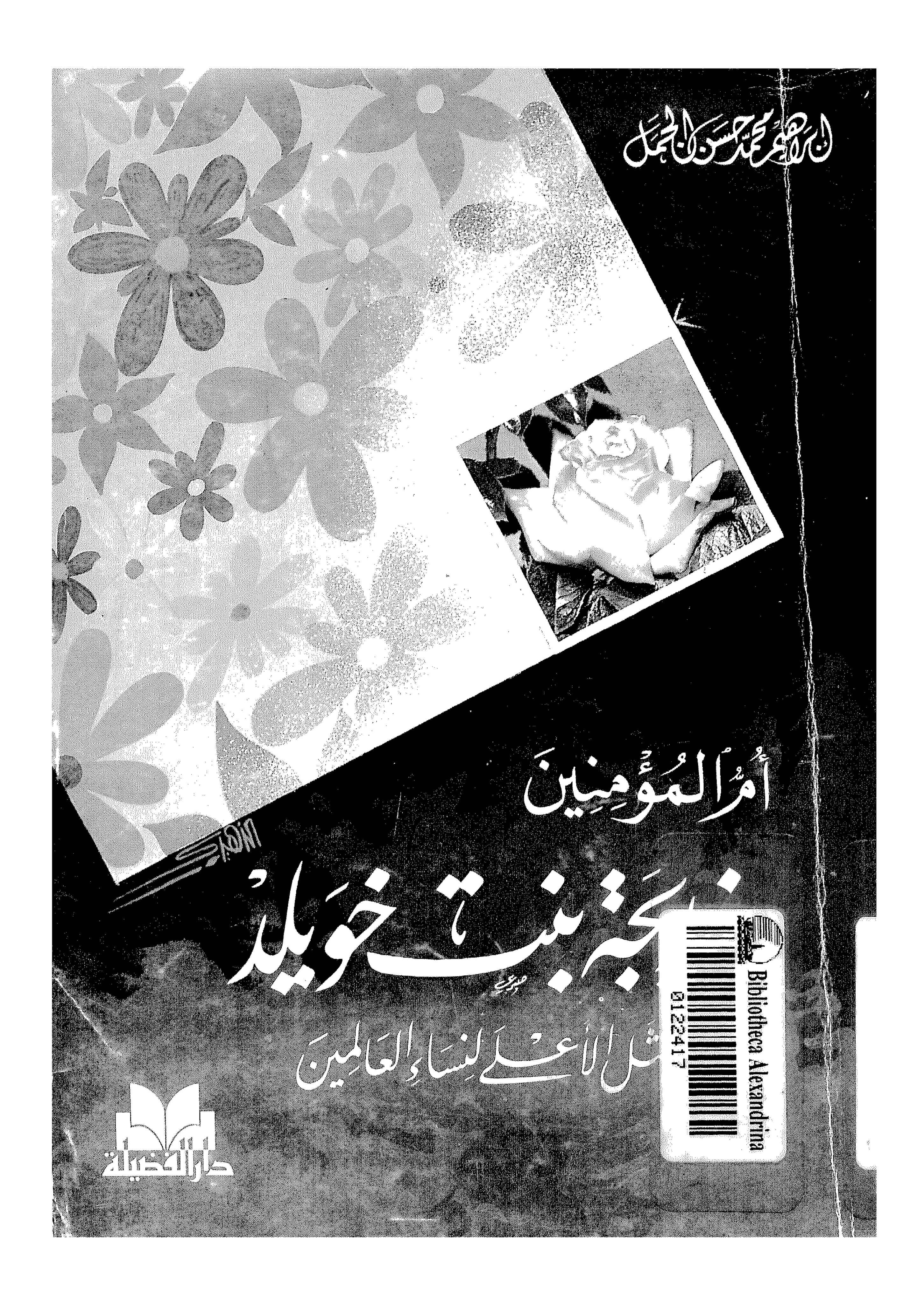

ابراهيم محمد حسن الجمل
أم المؤمنين
خديجة بنت خويلد
ثل الأعلى لنساء العالمين
دار الفضيلة
Bibliotheca Alexandrina
0122417

ابراهيم محمد حسن الجمل

أم المؤمنين

خديجة بنت خويلد

المثل الأعلى لنساء العالمين

دار الفضيلة



دار الفضيلة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٩٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس ٢٩٢٢٩٢٦٦٢
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

الإهداء

إلى كل معانى النبل والوفاء ، والطهر والنقاء ، والتضحية والإيثار .
إلى أكمل صور الترفع عن الأهواء ، وغرور الغنى والجاه ، وكل مظاهر الحياة الكاذبة .
إلى أكمل صور التواضع لأمر الله ، والوعى الصحيح لمعالم الحق ، وشرائع السماء ، والتفانى فى نصر دينه سبحانه وتعالى ، ورعاية حق الزوج والبر بالأهل والأبناء والعطف على المحتاجين ونصرة المظلوم .
أهدى هذه السيرة العطرة التى أحيت هذه المعانى وجلتها أعظم جلاء
إنها سيرة أم المؤمنين
خديجة بنت خويلد

إبراهيم الجمل



المقدمة

...... وكأنما الدنيا لم تخلق إلا من أجل أناس جاهدوا ، وكافحوا فى سبيل هذا الدين القويم ، وقد تحملوا العذاب والآلام ، حتى هدى اللهُ الناسَ ، فدخلوا فى دينه أفواجا .

لقد شغلت الدنيا بهم ، وسطرت مواقفهم ، وما قاموا به على مر الدهور والأزمان ، تردده الأيام ، وتحكيه السنون ، وكأنه كتاب مسطور ، يتأسى به من يريد ويتعشقه من يحب ، ويهيم به كل مغرم يتجلى حبه لله فى الإخلاص لطريقه ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ومنهجه ، متفانيا فى التمسك بما أمر به ، مضحيا بالنفس والنفيس حتى يلقى المولى عز وجل وهو على المحجة البيضاء صافية خالصة ، لقاء الأحبة الذين وعوا جيدا .. لماذا خلقت الدنيا ؟ ومن الفائز فيها ؟ وعظم الجزاء على الإخلاص والحب والتضحية !!

وإنما الدنيا عاطفة وعقل وإذا امتزج العقل بالعاطفة باتباع ما أمر الله به والتعلق به فإن هذا هو السعادة التى لا تدانيها سعادة . وما أجمل التأسى من المخلصين الذين يحاولون السير على الدرب ، ويتعلقون بركب السابقين الذين أدوا رسالتهم لله وفى الله ، وضحوا بكل ما يملكون من متاع الدنيا ليزيدوا الربح ، ويصلوا إلى أعلى الدرجات !! .

وفى سيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم التأسى والاتباع والمنهج والطريق رضى الله عنهم أجمعين ، وفى سيرة أم المؤمنين الأولى السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها خير سبيل لمن يطلب الرضوان والسعادة فى الدنيا والآخرة ، ففى كل طور من حياتها نبراس ، وهداية للقلوب المؤمنة والنفوس الصافية .

وإنها لسيرة أعظم امرأة عرفها التاريخ قامت بمهمتها خير قيام ، رعت حق الخالق سبحانه وتعالى ، فاتبعته فى كل ماأمر به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وسلكت الطريق الصحيح تجاه نفسها ، وتجاه من تولت شئونهم وتحملت المسئولية كاملة ، وما أعظم مسئوليتها ! وأعظم بما قامت به تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، زوجها الأمين ، وتجاه دعوته إلى الله ، وتجاه بيتها وذريتها الطاهرة !! .

لقد أدت واجبها بما جبلت عليه من خلق وتكوين حتى أصبحت مثلا يحتذى ، ومصباحا ينير لكل من أراد أن يسلك الطريق الواضح المعالم فى الحياة .

ونحن إذ نعرض هذه السيرة الخالدة ، فإنما نجلوها ، ونرفعها إلى مكان عال لتكون قبسا يستضاء به ، وما أحوجنا إلى تلمس الطريق السوى تجاه ديننا ودعوتنا .

وسنجد ــ إن شاء الله ــ فى هذه السيرة كل ما نبحث عنه لنبنى عليه حياة مملوءة بالسعادة فى كل مناحى الحياة لمن يتطلع إلى رضا الله ومحبته .

وإنى إذ أقدم هذه السيرة ، فإنما هى بيان وتوضيح لأعظم فترة من تاريخنا الإسلامى ، فترة بدء الدعوة إلى الإسلام ، وما لاقاه النبى صلى الله عليه وسلم من المشركين . وكيف صبر على قومه وكيف أن الله لم يتركه أبدا حينما تتأزم الأمور ، وأن المقادير كانت تتدخل إذا لم يكن هناك بد من ذلك ، وأن جبريل عليه السلام الذى قال للرسول صلى الله عليه وسلم حينما كثر إيذاء أهل مكة : « لو شئت أطبقت عليهم الأخشبين » هو جبريل الذى روى أنه انتقم من الذين كثر إيذاؤهم ، وأغضبوا الرسول عليه الصلاة والسلام طويلا ولم يراعوا حقا ولا خلقا ولا معاملة ، وكذلك بيان من كافحوا وناضلوا من الصحابة رضى الله عنهم ، فقد تحملوا العذاب ، وصبروا ليشاركوا فى بناء الأساس المتين للدعوة .

ولقد بدأت السيرة العطرة ببيان ما حصلت عليه السيدة خديجة رضى الله عنها من ألقاب استحقتها ، فكانت تاجا توجت به فى الدنيا والآخرة .

وعرضت للبيئة التى عاشت فيها وأثرها فى حياتها ، وإنها لأعظم بيئة على وجه البسيطة ، إنها مكة المكرمة ففيها تربت وتعلمت ، وضحت بكل ما تملك فى سبيل الله .

ولقد أسهبت الحديث عن قومها ، وما امتازوا به من صراحة وقوة

ومكانة ، وما قاموا به سواء للدعوة أو عليها . ثم بينت أصل السيدة رضى الله عنها ونشأتها الأولى وما صادفها من متاعب استطاعت بما جبلت عليه أن تتغلب عليها ثم اتجاهها إلى الاشتغال بالتجارة وسلوكها فيها سلوكا ينأى بها عن كل ما قد ينقص أو يقلل من المكانة والقدر .

ثم التقاؤها بالأمين محمد بن عبد الله ، واختياره لكى يقوم بالتجارة لها واطلاعها عن قرب على الأخلاق والمعالى والسمو والرفعة . ثم كانت الخطبة والزواج والمعاشرة فى بيت طيب مبارك .

وركزت بالدليل والحجة على أن عمرها رضى الله عنها حين الخطبة والزواج كان قريبا من عمر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن بالفارق الكبير الذى درج على ترديده الكثير غير ملتفتين إلى بحث هذا الموضوع ، وكأنه ليس له أهمية ، كما حصل عند التعرض للذى زوجها ، فقد قالوا : إن الذى زوجها أبوها كما روى الزهرى وابن إسحاق وابن حجر فى كتابه « فتح البارى » وغيرهم ممن سبقهم أثبتوا ذلك مع أن أباها توفى قبل الخطبة بسنوات عديدة .

وفيما ذهبت إليه قطع الطريق على المستشرقين أعداء الدين وعلى المغرضين فى وصفها رضى الله عنها بالكهولة وانقضاء الشباب ، وفى ذلك مخالفة للواقع وتحكم بلا دليل صحيح .

وتعرضت للبيت المبارك الذى قضى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فترة ما قبل الوحى ، وهى فترة مهمة فى التمهيد للدعوة ففيها الإعداد والتوجيه والتكوين وتحتاج إلى الهدوء والطمأنينة والبعد عن المشاغل الكثيرة الملهية ، ولقد كفته كل هذا رضى الله عنها وأرضاها .

ثم جاء الوحى وشدته ، فوقفت بجواره صلى الله عليه وسلم بكل ما تستطيع من قوة ، حتى مرت الشدة بسلام ، وكانت أول من آمن وصدق وشد الأزر ، وواسى وأخلص وشجع ، وكان فضل الله عليها عظيما حيث شملها بعنايته ، ووجهها بفضله ، فوفقت فى كل ما قامت به محتفظة بكرامتها ومكانتها ومنزلتها وإنها لعناية الله العلى القدير

لقد شاركت المسلمين حينما أوذوا فى سبيل الله بقلبها وتفكيرها وكانت كلماتها بردا وسلاما على كل من آذاه المشركون ثم كانت الهجرة إلى الحبشة وقامت بكل ما استطاعت لمعاونة المسلمين المهاجرين وعلى رأسهم ابنتها رقية وزوجها عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، ودعت الله كثيرا كى يرحم الفئة

المؤمنة ، ثم كانت المقاطعة ، فأسهمت فيها بنصيب وافر وتحملت الكثير حتى جاء أمر الله فأقبلت عليه راضية مرضية .

وكانت منزلتها أكبر وأعظم من أن يوفيها الكلام والتفكير حقها وما عند الله خير وأبقى .

وإنى لأدعو المسلمين بصفة عامة وأدعو النساء المسلمات بصفة خاصة إلى قراءة هذه السيرة الطيبة ، وإلى التأسى بهذا الخلق النبيل والتضحية الغالية فى سبيل الله، ولنا فيها القدوة والمثل الأعلى، فقد رأينا ما قامت به فى بيتها المبارك وفى سبيل الدعوة والإسلام .

هدانا الله إلى كل خير نافع ، ورفع مكانتها فى أعلى عليين .

المدينة المنورة

إبراهيم الجمل

قال صلى الله عليه وسلم :
« خير نسائها مريم . وخير نسائها خديجة »
صحيح البخارى

ألقاب السيدة خديجة رضي الله عنها

اللقب الذى يدل على المدح صفة يخلعها الناس على إنسان تميز عن أقرانه بالتمسك بخصلة خاصة ، ولا يكون ذلك إلا بعد دراسة طويلة ، واختبارات يتعرض لها الشخص ، ويمر فيها بمراحل حتى يتأكد بُعْدُه عن كل ما ينتقص من تلك الصفة ، فإذا تخطى كل المراحل المتعارف عليها بين الناس ، أطلق عليه اللقب ، وصار ينادى به ، وكأنه اسم جديد أضيف إلى الاسم الذى يعرف به .

ينال الإنسان بلقبه هذا فخراً على أمثاله ، وشرفا وعزة ؛ فإجماع الناس على إطلاق صفة خاصة على فرد من الأفراد تكون شاهداً صادقا على تحليه بها ؛ والإجماع أمر لا يستهان به ، فله اعتباره على مر الزمان والأيام ، وكلما وضع الشخص فى مختبر البحث زادت قيمته ، وارتفع إلى المنزلة السامية والمكانة العالية . وللإنسان أن يفتخر بلقب مدح أطلق عليه ، وبصفة اتصف بها ؛ لأن اكتسابه لهذا ليس أمرا سهلا ، فحصول الإنسان عليه يقتضى منه أن يسلك سلوكا خاصا ، قد يضيع عليه كثيرا من متع الحياة الظاهرة ، ولكن له من حديث الناس والثناء عليه متعة وعوض عما فاته من السير فى طريق الناس العادى ليقضى فيه مآربه .

قد يكون للشخص لقب واحد ، فيرتفع به أحيانا ، وقد يتناسى فى غمرة الحياة ، فيعيش صاحبه مثل بقية الناس حياة عادية ، فلا يرتفع به إلى المكان المرموق ، والمنزلة الرفيعة ، فقد نرى أحيانا بعض الناس يمتازون بلقب أو بصفة لا تخرجهم عما تعارف عليه الخلق .

أما إذا امتاز الإنسان بأكثر من لقب ، وحصل على أكثر من صفة فإنه يصبح فى منزلة خاصة ومكانة عالية يجلس على عرش يغبطه عليه الكثيرون ،

وهذا ما امتازت به السيدة خديجة ، فالسيدة خديجة رضى الله عنها لم تتصف بصفة واحدة بل اتصفت بأكثر من صفة .

وأول لقب يصادفنا لقبت به السيدة خديجة رضى الله عنها هو « الطاهرة » ووصفها بهذه الصفة إنما هو عن جدارة واستحقاق ، فلقد تزوجت فى الجاهلية مرتين قبل اقترانها بسيد البشر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ومات زوجها الثانى وهى فى مقتبل العمر والشباب ، وكانت ترفل فى ثوب العز والرفاهية ، وسادت وساد قومها ، وكثر مالها ، ونزلت إلى مجال العمل والتجارة ، وكثر الطلاب والراغبون فيها وكان لها مما احترفته مالا يمنعها أن تتصل بالرجال ، وأن تقحم نفسها معهم فى أمور التجارة ولكن ذلك لم يحصل ، فلم تضع عينها على سيد من سادة قريش ، ولم تشترك معهم فى أمور تتصل بالتجارة ولم تتخذ من التجارة ذريعة للاتصال بهم ولتقوية الروابط بينها وبين الرجال من مكة أو غير مكة .

لكنها ــ رضى الله عنها ــ اتخذت لها طريقا جاداً بعيدا عن طريق الأهواء والرغبات ؛ فلقد كانت تجارتها كثيرة ومتنوعة ، ولم تتصل بتجار قومها وكانوا كلهم تجاراً ، ولم تشترك معهم فى اجتماع خاص أو عام ، ولم تسر فى ركابهم ، وإنما كان يقوم بأمور التجارة عبيدها ، وعلى رأسهم مولاها المخلص ميسرة ، وكانت تلقى الأوامر من برجها العاجى ، فإذا ما تأزمت الأمور فإنها تُحلّ فى صالة الضيوف الغاصة بالأقارب والأهل .

كانت بيوت مكة كثيرا ما يقام فيها ليالى مرح ولهو وغناء،وكان القائمون عليها إما اخوة أو أولاد عمومة أو خؤولة ، وكان بيت عبد العزى بن عبد المطلب المعروف فى الإسلام بأبى لهب معروفا بهذه البضاعة ، وكان قريبا من بيت السيدة خديجة رضى الله عنها ، وكانت تمر عليه أحيانا ، وفيه من اللهو والسهر الذى يرفه عن النفس المحملة بالأثقال ، ومتاعب العمل ، وكان اللائى يحضرنه نساء الحى مشاركة لأم جميل زوج أبى لهب ، فلم يُغْرِ السيدة خديجة رضى الله عنها ذلك ، ولم تحاول أن تلهو لهواً بريئا مع قريناتها من القرشيات .

لقد عرف عنها ذلك نساء مكة ، والمقربات إليها فكن يذهبن بأنفسهن إليها فى بيتها ولها فى نفوسهن منزلة عظيمة فينلن من كرمها وفضلها الشيء

الكثير ، فإذا ما خرجت إلى البيت العتيق لتطوف به ، خرجن معها ، وقد أحطن بها ، فلا تلغو واحدة منهن فى قولها ، ولا تتكلم إلا بالجد من الكلام ، ولا يحببن أن يسمعن من أحد لفظة نابية ، قد تجرح سمع السيدة خديجة رضى الله عنها ؛ ولقد ثارت النسوة ، وغضبن حينما طلع عليهن يهودى وهن عند البيت العتيق وناداهن قائلا : « يا نساء قريش ، سيظهر نبىّ فى هذا الزمن ، فمن أرادت أن تكون له فِراشا فلتفعل »[1] .

ثار النسوة اللاتى يحطن بالسيدة رضى الله عنها ، وقذفنه بالحجارة فعلن ذلك من أجل السيدة خديجة ؛ فلا يُردن إسماعها شيئا قد يؤذى سمعها ، فلو لم تكن معهن ما أراهن إلا ضاحكات ساخرات لاهيات فاستحقت السيدة خديجة رضى الله عنها أن تلقب بهذا اللقب . الطاهرة .

ولقبت رضى الله عنها بلقب آخرءلقبها القوم جميعهم به وهو « سيدة نساء قريش » ولا تلقب بهذا اللقب إلا من حازت صفة الكمال ، وأجمع الناس على ما امتازت به خَلْقاً وخُلُقاً ، ولم تحد قيد أنملة عن الصفات التى أجمع عليها المجتمع ، وصار ظاهرها كباطنها ، فليس فيها خليقة تخفيها عن الناس ، وليس لها مأرب خاص ، فلم تستعبدها التجارة ولم يستهوها المال فيتحكم فى خصالها ، ويجعلها أحيانا تخضع لتحقيق رغبة ، أو لتجنى ثمرة ، وإنما هى التى تُخْضِعُ كل هذا لعاطفة سامية ، قالوا فى تحليلها : كانت نفسها مشغولة عن الناس ، وعن التحدث فى أمورهم ، بالبحث والسؤال عما وراء هذه الحياة ، كانت تسأل عن الرسل الذين أرسلوا ، وعن الرسول الذى سيرسله الله لهداية الناس ، وعن وجود الإله العظيم ، الخليق بالعبادة ، والذى ينبغى السجود والخضوع له ، يساعدها فى هذا التفكير نفسها الصافية ، وذكاؤها المتوقد ؛ فقد روى أنها كانت دائمة الحديث مع ابن عمها الشيخ الكبير ورقة بن نوفل عن الرسول الذى سيرسله الله لهداية الخلق ، وهل قرب زمنه ؟ وهل ستراه ؟

لقد أبعدها كل هذا عن اللغو والفضول من سير الناس ، وارتفع بها إلى مقام محمود .

---

(١) سوف نتعرض بالتفصيل لتلك القصة فى موضعها إن شاء الله تعالى .

كان فى مكة من نساء القوم من كان يمكن أن تلقب بهذا اللقب من أمثال « هند بنت عتبة » زوج سيد القوم فى الجاهلية أبى سفيان بن حرب ، لكنها لم تكن من الحزم والثبات والترفع حتى تنال هذا الشرف ، أما السيدة خديجة فقد امتازت بالشرف والحزم والترفع ؛ واشتهرت بين قومها بالفضل والكرم ومعاونة المحتاج ، وكان يغشى قصرها الفقيرات والمحتاجات ، والضيفان ، فكانت تنفق على الجميع من خيرها وبرها ، حتى غبطها أهل مكة لمقامها وأخلاقها وذكائها ، فلقبوها بهذا اللقب ... سيدة نساء قريش .

ولقبت السيدة خديجة رضى الله عنها فى الإسلام « بأم المؤمنين » وهذا اللقب لا تستطيع أى أنثى أن تحصل عليه ، وتكنى وتتصف به ، وإنما هى امرأة محظوظة ، امتازت بمميزات لم تعط إلا للقليلات ، فليس فى استطاعة أى امرأة أن تتزوج الرسول ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتزوج إلا بتوجيه وإعداد من الحكيم الخبير : ﴿ **يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما** ﴾[1] .

﴿ **لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شئ رقيبا** ﴾[2] .

ولهذا لا يلقب به إلا الخاصة من النساء اللاتى يتمتعن بالخلق الجميل الذى يرضى عنه المولى جل وعلا .

هذا اللقب يرتفع بمن اتصفت به إلى منزلة عظيمة ، ومكانة مرموقة على مر الأيام والدهور ، يدعو المسلمون لهن ، ويطلبون لهن رفع الدرجات من العليم الخبير ، فيصلون عليهن حينما يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم فيقول المسلم : « اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات

---

(١) سورة الأحزاب ٥٠ .

(٢) سورة الأحراب ٥٢ .

المؤمنين » نعم يشترك مع السيدة خديجة رضى الله عنها فى هذا اللقب غيرها من زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلا أن منزلتها فى مقدمتهن ، فهى الأولى فى الترتيب وفى المكانة والمنزلة نظير ما قدمت وضحت ، واشتركت مع الرسول فى كل عمل عاد نفعه على الدعوة ، وكانت أول من صدق وآمن ، فقدمت على الرجال والنساء ، وأوذيت فى سبيل الله ، وتحملت العذاب والحرمان والجوع مع الرسول صلى الله عليه وسلم أيام المحنة والحصار صابرة محتسبة فى وقت كانت فى حاجة إلى الراحة والتمريض .

لقد بذلت أقصى ما فى وسعها لتخفف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمن معهما من الأهل والمسلمين وطأة المقاطعة والحصار . كانت ترسل سرا إلى أهلها وذويها والمخلصين الذين لم يقعوا تحت نير الحصار والمقاطعة ، ليرسلوا لها ما يستطيعون إرساله من الطعام ، لتستعين به ومن معها من المسلمين على سد رمق الحياة ، فلم يهملوا طلبها ، أو يظهروا لها العداء ، وقد ظاهروا أعداء الدعوة ، وإنما كانوا أوفياء لها ؛ فأسرعوا إلى الاستجابة لطلبها ، ولقد كرمها الله فبسببها — رضى الله عنها — كانت بداية حل المقاطعة[1] فاستحقت بهذا وغيره لقب « أم المؤمنين »مع الأولوية فهى فى مقدمة الزوجات رضى الله عنهن .

ولعل من أسمى الألقاب وأرفعها وأعظمها منزلة وأشرفها أن تلقب الطاهرة وسيدة نساء قريش وأم المؤمنين بلقب هو « سيدة نساء العالمين » .

هذا اللقب لم تنله سيدة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم سواء فى ذلك زوجات النبى صلى الله عليه وسلم أو غيرهن إلا إذا استثنينا السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وابنة السيدة خديجة رضى الله عنها ، ولم تنله سيدة قبلها إلا المختارة المصطفاة من المولى جل وعلا وهما السيدة مريم ابنة عمران ، والسيدة آسية بنت مزاحم .

والسيدة مريم ابنة عمران هى أم سيدنا عيسى عليه السلام ﴿ **وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين .**

---

(١) سوف نتعرض لهذا الموضوع بالتفصيل .

يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾(١) .

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى إلى السيدة الطاهرة البتول رسولا من الملائكة ليقول لها إن الله انتقاك واختارك وفضلك على نساء العالمين ؛ لتكونى دليلا على قدرته لولادتك نبى الله ورسوله عيسى عليه السلام ، فداومى فى حياتك على إطالة القيام فى الصلاة وعلى الطاعة ، والزمى العبادة والشكر لله .

والسيدة آسية بنت مزاحم زوجة أعدى أعداء الله فرعون حاكم مصر فى الأزمنة الغابرة ، منذ آلاف السنين ، وزمن إرسال الله سبحانه وتعالى لنبيه ورسوله موسى عليه السلام ، فقد آمنت به ، ولما عرف فرعون ذلك أمر بقتلها ، فنجاها الله من شره ، فلم يضر السيدة آسية اتصالها به ، وهو من أعتى الكافرين ، فضرب الله سبحانه وتعالى بها المثل ، فدعت الله قائلة : **﴿رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾**(٢) .

فهى تطمع كما هى عادة الصالحين القانتين أن تكون بجوار الله بعد البعث فى قصر مشيد تحيطه رحمة الله وعنايته ، فاستجاب لها ، ونجاها أكرم نجاة ، فرفعها إلى الجنة تأكل وتشرب وتنعم(٣)

هؤلاء الأربع السيدة آسية بنت مزاحم زوج فرعون حاكم مصر ، والسيدة مريم بنت عمران أم المسيح عليه السلام ، والسيدة خديجة أم المؤمنين وزوج الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، والسيدة فاطمة بنت النبى محمد صلى الله عليه وسلم وزوج على بن أبى طالب رضى الله عنه رابع الخلفاء الراشدين،قد اشتركن فى هذا التكريم الإلهى فكن سيدات نساء العالمين فى الدنيا والآخرة .

روى عن الإمام أحمد عن ابن عباس قال : (خط رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض أربعة خطوط وقال : « أتدرون ما هذا » ؟ قالوا : الله

---

(١) سورة آل عمران ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) سورة التحريم ١١ .

(٣) تفسير البحر المحيط للقرآن الكريم ٨ : ٢٩٥ .

ورسوله أعلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون »)

وفى البخارى عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة » .

وعن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون[1] .

وتلك — والله — منزلة نالتها السيدة خديجة بنت خويلد عن جدارة ، فقد قدمت لله كل ما تملك ، وضحت فى سبيله بكل غال وعزيز ، وشدت من أزر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تتخل عن مساعدته ومعاونته ، فرضى الله عنها ، وأنزلها منزلاً مباركا عند عزيز مقتدر .

* * *

(١) هذه الأحاديث الصحيحة وردت فى كثير من كتب السيرة والتراجم والتاريخ والتفسير وكتب الحديث الصحيحة وأورد بعضها البخارى فى صحيحه فى باب المناقب ، وابن كثير فى تفسيره فى سورة التحريم وفى كتابه (البداية والنهاية) وفى الاستيعاب عند ذكر السيدة خديجة وكذلك أوردها محب الدين الطبرى فى كتابه السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين .

« والله .... إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلىّ ، لولا أنى أخرجت منك ما خرجت »

من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

بيئة السيدة خديجة رضي الله عنها

مكة المكرمة بيئة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، ولمكة مكانة خاصة فى القلوب ، وأثر عظيم فى حياة من عاشوا فيها ، وتأثروا بها ، ولقد كان لها أكبر الأثر فى حياة السيدة خديجة رضى الله عنها .

ومكة ــ حرسها الله ورعاها ــ قديمة ، تاريخها غامض ، يذكر أن أول ما عرف عنها أنها كانت تقع فى القديم فى طريق القوافل العربية وغير العربية التى تعبر الطريق ، وهى قاصدة فلسطين وما جاورها من البلاد ، أو آتية منها إلى اليمن أو متجهة إلى الشرق .

وقد كانت القوافل تلجأ إليها للراحة بسبب ما كان فيها من العيون ، ولم يكن العمران قد انتظم فيها،فكان رجال القوافل يجعلون فيها مضارب لخيامهم للراحة ولتبادل السلع وبهذا كانت محلة للتجارة .

ومن المرجح أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من اتخذها مقاما وسكنا ، ومكانا للعبادة ، وكانت قد اتخذت مقاما للعبادة أيضا من زمن بعيد وقبل أن يجيء إليها إبراهيم ومعه ابنه اسماعيل وأمه هاجر ، فيقيم بها بزمن طويل ، ويلمح هذا من الآية الكريمة ، التى جاءت على لسان إبراهيم عليه السلام فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾[1]

إذ يفهم من هذه الآية أن البيت كان موجودا قبل أن يفد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى مكة .

---

(١) سورة ابراهيم ٣٧ .

ومكة بلدة مكرمة ومقدسة منذ بدء الخليقة وإلى أن تقوم الساعة،وذهب الناس فى تعليل هذا الشرف والفضل إلى كثير من الأسباب حتى قيل : « إن الله شرفها ؛ لأنها نقطة منتصف الأرض ، وإلى هذا أشار أحد العلماء المصريين فى استخدامه للكمبيوتر للدراسات القرآنية فى أمريكا ، ومن دراسته لمقاييس الكرة الأرضية فقال : « إن مكة قلب الأرض » فلو تصورنا أن الأرض إنسان لوجدنا أن مكان مكة فى موضع القلب بالنسبة له .

وورد قديما للعلامة القاضى أبى زيد الدبوسى المتوفى عام ٤١٣ من الهجرة فى مخطوطته النادرة المسماة « الأمد الأقصى » قوله فى مكة المكرمة مقررا نفس المعنى بصورة أخرى . قال : (فهى أم القرى ، وبمنزلة الرأس من الجسد لسائر الدنيا ، فأول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا ، وأول جزء ظهر فى الأرض تلك البقعة ، كما يظهر أول شيء من الإنسان رأسه عند الوقفة ... وبهذا ــ والله أعلم ــ سميت مكة (أم القرى) كما يسمى موضع الدماغ أم الرأس ، ولأن مرجع الولد : إلى أمه أو منها كان المبدأ ، ومرجع البدن الرأس ، ومرجع القرى إلى مكة ومنها الابتداء)[١]

كان الحرم آمنا ، يأمن من التجأ إليه ، إلا إذا تعدى فيه بما أوجب حدا .

وقالوا فى تسميتها « مكة » وهو المشهور من أسمائها ؛ لأنها تَمُكُّ الجبارين أى تذهب شوكتهم .

﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾[٢] وقيل : لأنها تمك الفاجر أى تخرجه منها وقيل أيضا إنما سميت مكة : لأن العرب فى الجاهلية كانت تقول : لا يتم حجنا حتى نأتى مكان الكعبة فنمكّ فيه : أى نصفر صفير المكاء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا كانوا بها .

وقيل : سميت بهذا الاسم : لأنها تَمُكّ الذنوب أى : تذهب بها كما يمك الفصيل ضرع أمه فلا يبقى فيه شيئا وأيضا من أسمائها « بكة » قال الله سبحانه

---

(١) لماذا بعث الرسول ﷺ فى مكة لعبد القادر أحمد عطا ص ١٤ .

(٢) سورة الفتح ٢٤ .

وتعالى : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين** ﴾(١)

قال بعض الإخباريين : إنه بطن مكة وتشدد بعضهم فقالوا : بكة موضع البيت ، ومكه ما وراءه . وقال آخرون : لا ، والصحيح البيت مكة ، وما ولاه بكة .

ومن أسمائها « الباسة » لأنها تبس أى تحطم الملحدين . وقيل : تخرجهم .

وأيضا تسمى « أم القرى » إذ يخاطب المولى جل وعلا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فيقول : ﴿ **لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾(٢) وتسمية مكة أم القرى ، وملاحظة الأمومة فى رجوع أبنائها إليها يتفق تماما فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا** ﴾(٣)

فإليه يثوب الناس جميعا ، كما يثوب الأبناء إلى أمهم ، ويأمنون بجوارها ، ومكة أم العالم وقلبه ورأسه وهى كل ما تعطيه الأمومة والأولية من معان هى العالمية التى اصطبغ بها دين الإسلام(٤) وتسمى البلد الأمين ، قال تعالى : ﴿ **والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين** ﴾(٥) والبلد الأمين هو مكة المكرمة .

ويأمر الله سبحانه وتعالى النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه : ﴿ **إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾(٦) فأى تشريف أعظم من هذا ، فلقد خصها الله سبحانه وتعالى بالذكر ، وأضافها إليه ، فهى أحب البلاد إليه سبحانه وتعالى وأكرمها عليه ، وإشارته جل وعلا إليها اشارة تعظيم ، فهى موطن نبيه ،

---

(١) سورة آل عمران ٩٦ .
(٢) سورة الشورى ٧ .
(٣) سورة البقرة ١٢٥ .
(٤) لماذا بعث الرسول ﷺ فى مكة ؟ ص ١٤ .
(٥) سورة التين ١ — ٣ .
(٦) سورة النمل ٩١ .

ومهبط وحيه ، ويكفى مكة فخرا على غيرها أن أقسم المولى سبحانه بها ، فقال جل من قائل : ﴿ **لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد** ﴾[1] ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا** ﴾[2]

ولقد أحب النبى صلى الله عليه وسلم مكة حبا شديدا ، وقد آلمه تركها وحز فى نفسه أن يخرجه قومه منها ، فلما خرج من مكة ، وقف على الحزورة وقال : « إنى أعلم أنك أحب البلاد إلىّ وإنك أحب أرض الله إلى الله ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت »

ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح على جمرة العقبة وقال : « والله إنك لخير أرض الله ، وإنك لأحب أرض الله إلىّ ، ولو لم أُخْرج ما خرجت ، إنها لم تحل لأحد كان قبلى ، ولا تحل لأحد كان بعدى ، ما حلت لى إلا ساعة من نهار ثم هى حرام »

وتكريم الله لهذه البقعة ، واختباره لها ، وجعلها مكانا لحرمه ليس له علة ظاهرة إلا ما ذكرنا .

فماذا فى مكة من جمال الأنهار وكثرة المياه ، وحسن الزرع والخضرة وطيب الهواء ، واعتدال الجو ، وكثرة الخير ؟ لم يكن فيها شيء من ذلك !!

إنها بلد يقع فى واد غير ذى زرع ، لا تنساب فيه مياه ، ولا تكتنفه الحدائق ، ولا تقوم فيه صناعات ، تحيط به الجبال ، شديد الحرارة ، تصل أحيانا لدرجة اللهيب .

ويشتد العجب بالإنسان ، ويملؤه الأسى والحزن ، إذا عرف أن كفار مكة كانوا يعذبون من أسلم من عبيدهم من أمثال بلال بن رباح بوضعهم فى وقت الظهيرة على رمضاء مكة ، فكأنها نار السعير ، إذ كان أمية بن خلف يطرح بلالا على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة على صدره .

---

(١) سورة البلد ١، ٢

(٢) سورة إبراهيم ٣٥ .

وقال القزوينى فى مكة : « وهى مدينة فى واد ، والجبال مشرفة عليها من جوانبها ، وبناؤها حجارة سوداء ملس وبيض أيضا ، وهى طبقات مبيضة نظيفة حارة فى الصيف جدا إلا أن ليلها طيب وعرضها سعة الوادى ، وماؤها من السماء ليس بها نهر ولا بئر يشرب ماؤها وليس بجميع مكة شجر مثمر ، فإذا جزت الحرم ، فهناك عيون وآبار ، ومزارع ونخيل وميرتها تحمل من غيرها بدعاء الخليل عليه السلام »(١)

وقال أيضا : « وبها من الجبال ، جبل أبى قُبَيْس ، وهو جبل مطل على مكة ، وبها الصّفا والَمْروة ، وهما جبلان ببطحاء مكة ، وبها جبل ثور أطحل، وهو جبل مبارك بقرب مكة ، فيه الغار الذى كان فيه الرسول مع أبى بكر حين خرج من مكة مهاجرا وبها ثبير جبل عظيم بقرب منى : يقال : إن الكبش الذى جعله الله فداء لإسماعيل ، ذبح فوقه ، وبها جبل حراء . وهو جبل مبارك على ثلاثة أميال من مكة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتيه الوحى حبب إليه الخلوة ، وكان يأتى غارا فيه ، وأتاه جبريل عليه السلام فى ذلك الغار ، وبها قِدْقد : وهو من الجبال التى لا يوصل إلى ذروتها(٢) .

ولقد صاغ معروف الأرناؤوط عضو المجمع العلمى بدمشق ما عليه هذه الجبال فى أسلوب أدبى جميل فقال : « تحدق بمكة جبال عارية جرداء ، لا يروق مشهدها المتأمل ، ولا يستهوى شحوبها من يحب العزلة ، ويطمئن إليها ، وتشق هذه الجبال التى يزحم بعضها بعضا ، والتى تبين لرائيها فى ساعة الطفل حمراء بلون الدهان ، أودية كأباء معذرة ماتت فيها الألوان والصور الزاهية ، ويتخللها طرق ضيقة ملتوية تعصف بها أعراف الرياح السافيات ، ووراء هذه الجبال الوردية صحراء دائمة الترديد والسجيع ، تغشاها كمدة الموت تحت سماء سدفاء أشبهت فى سكونها وصمتها وذهولها جثة محنطة »(٣)

ومناخ مكة قارى ، فالحرارة تشتد فى أثناء النهار ، والرياح الساخنة تكاد تخمد الأنفاس ، وتصير الحجارة التى فرش بها مطاف الكعبة ، كأنه صفائح

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١١٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٩ .

(٣) سيد قريش ح ٣ ص ٧ .

محماة حتى ليقول ابن بطوطة : « ولقد رأيت السقايين يصبون الماء عليها ، فما يجاوز الموضع الذى يصب فيه إلا ويلتهب الموضع فى حينه »[١]

وتصعد عمارة مكة إلى عهد الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، وكان بنوه يعيشون فى الخيام والمضارب ، حتى عاد قصى بن كلاب من الشام فى القرن الثانى الميلادى ، وبنى فيها المساكن والبيوت حول الكعبة ، ومن ثم أخذت تزيد ، وكانت فى زمنها البعيد خالية من الحضارة بيوتها ساذجة مبنية بالحجارة والطوب اللبن ، مسقوفة بجذوع النخل خالية من الزخارف .

وفى القرن السادس الميلادى ، بدأ السادة من قريش يهتمون ببناء بيوتهم فكانت أحيانا تتألف من طابقين ، ويتخذ لها أجود الأخشاب ، ويكثر فيها الشرفات ، ويغلب منها بيوت صغيرة تلحق بالبيوت للضيوف الذين يردون من داخل البلاد وخارجها ، وكان من أحسن البيوت وأعظمها بيت السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها .

كل هذا فى القديم . أما اليوم فقد أخذت المدينة زخرفها وازينت ، فتغيرت وتبدلت فى وصف يطول لو تعرضنا لها ــ حفظها الله ورعاها ــ

ولقد كسا الله سبحانه وتعالى مكة حلة روحية تجعل القلوب تهوى إليها والنفوس الصافية تعشقها ، يأتيها الناس من كل فج منفذين أمر الله الذى أمرهم بالحج إليها جماعات ووحدانا ، راجلين وراكبين ، رجالا ونساء ، يزيدون كلما زاد الخلق ، وكثروا عاما بعد عام ، استجابة من الله لخليله إبراهيم عليه السلام حينما دعا الله ، فأجاب دعاءه . ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾[٢].

ومكانه مكة فى قلوب العرب ، تجعل أهلها دائما محل نظر واهتمام وعرضة للنقد ، وبخاصة المرأة القرشية ، فلا بد أن تظهر بالمظهر اللائق ، لأن كل عربية تأتى لتحج ، ولتعيش فى رحاب البيت العتيق تتخذ لها مثلا أعلى من نساء أهل مكة .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ١٢٢ .

(٢) سورة إبراهيم ٣٧ .

ولا شك فى أن الذين أتوا إلى مكة أعجبوا بما تتحلى به نساء مكة من احترام الرجل القرشى لهن ، ومشاركتهن للرجال فى كثير من الأمور ، فلقد قدرها الرجل فى تلك البقعة ، وترك لها الحرية المقيدة بعادات وتقاليد الأحرار البعيدة عن كل ما يشين ، وعرفت المرأة ذلك ، فكانت عالية الهمة شامخة الرأس ، يحوطها الخلق الحسن ، والمعرفة لما يجب عليها تجاه مجتمعها .

وقد كان وأد البنات شائعا فى العرب كما أخبر القرآن الكريم ولما وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة المنورة — قيس بن عاصم ، واعترف أمامه بأنه ما ولدت له بنت إلا وأدها ، سأله أحد المهاجرين قائلا : ما الذى حملك على وأد بناتك ، وأنت أكثر العرب مالا ؟ فقال وهو مسرع فى إجابته : مخافة أن يتزوجهن مثلك ! فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هذا سيد أهل الوبر .

وكانت المجتمعات العربية التى لم تبتل فى الجاهلية بعادة وأد البنات ، تفضل الولد على البنت لما يقوم به الولد من عون لأهله فى جميع مناحى الحياة ، ومساعدة للأب وللمجتمع ، وما نشك فى أن المجتمع المكى كان كذلك ، ولكن عندما كانت تولدهم بنت ، فإنهم يحسنون تربيتها ، ويؤهلونها لكى تشترك بصنعة ما فى إقامة مجتمعهم .

هذه هى مكة وهذه بيئتها ، وللبيئة أكبر الأثر فى حياة الإنسان فهى تضفى عليه مما وهبها الله من الطبيعة ، فتؤثر فى طباعه وأخلاقه ومعاملاته ، وتجعله خاضعا لعاداتها وتقاليدها ، تلبسه ثوبها ، فيأتمر بأمرها ، ويخضع لما تطلبه منه ، فيصبح وكأنه جزء منها .

فسكان البلاد الباردة الذين عاشوا مع الثلوج والأمطار ، وسيول الأودية والأنهار ، فى البرد الشديد ، والعواصف والرعد والبرق ، غير أولئك الذين عاشوا فى السهول وعلى شواطىء الأنهار واعتدال الطبيعة واستمرار طلوع الشمس وإشراقها .

لا شك فى أن طبائع هؤلاء تختلف عن أولئك فى كثير من العادات ، والتقاليد ووسائل طلب العيش والاستعداد الشخصى لمفاهيم الحياة .

وكذلك الذين نشأوا فى الصحراء ، وفى البلاد المشمسة الشديدة الحرارة وليس أمامهم إلا الرمال المذهبة ، والجبال الشامخة العالية والحرارة القاتلة .

إنها تهب من يعيشون فيها الصبر على الشدائد ، والتحمل الزائد ، والكفاح المستمر . ومقابلة قسوة الحياة بالجلد ، وتقبل عطائها بإيمان وطيد ، حتى تنتهى الأزمات ، فإذا تجددت ، فالاستعداد لها موجود بلا كلل ولا ملل .

وإذا كانت مكة تقع فى منطقة حارة وحرارتها رهيبة أحيانا ، إلا أن موقعها ، وماحباها الله به تفوق غيرها ممن يعيشون فى مثل طبيعتها وجدها .

فمكة تعتبر ميناء يقع فى قلب الصحراء ، فهى مرسى للقوافل التى تحمل التجارة من الشمال إلى الجنوب ، ومن الجنوب إلى الشمال ، ومن آسيا إلى مداخل أفريقية ، فيجتمع الناس فيها من رجال ونساء مع احتفاظ المرأة المكية بكبريائها وعزتها وكرامتها ، واحترام كل الواردين إلى مكة لشخصيتها كل ذلك ساعد على توسيع مداركها ، وقوى من فهمها للأمور ، وزاد من علمها ومعرفتها ، فأصبحت فى مجتمعها محترمة الرأى معززة الجانب ، فأدلت بدلوها فى الحياة العامة ، وكان فى مقدمتها حرفة الناس فى ذلك الوقت وهى التجارة .

فلا عجب أن رأينا السيدة خديجة مثلا أعلى لهذه البيئة فى كل ما عملت وكل ما أقدمت عليه ، وكانت سيرتها الحسنة مثلا يضرب به .

ولقد أجمع المؤرخون على القول بأن السيدة رضى الله عنها ورثت عن أبويها جمال الخلق والخُلق ، وساعدت البيئة على إبراز شخصيتها التى تجبر كل من راها على الاحترام والإكبار والتقدير .

ولقد قابلت صدمات الحياة فى أولى خطواتها على درجات الحياة ، إذ قد مات زوجها الأول ولم تتعد السابعة عشرة ، ثم فقدت زوجها الثانى حين جاوزت العشرين بقليل وقد تركا لها أربعة أولاد فتقبلت ذلك كله بقلب كبير وصبر أكيد ، وجلد لا يعرف اليأس وهذا ما هو معروف عن أهل البيئة الصحراوية

لقد انصرفت لتربية أولادها والإشراف على تأديبهم وتعليمهم ، ورأت أنها

استفادت من تجاربها ، وأنها فى إمكانها تنمية الأموال الطائلة التى فى يديها ، فأدلت بدلوها فى التجارة حرفة قومها ، وقد كان ذلك متعارفا فى بيئتها .

ولقد أثرت الحياة الروحية التى عرفت بها هذه البيئة تأثيرا عظيما فى حياة السيدة خديجة رضى الله عنها ، ففى مكة البيت العتيق ، وهو المتجه الروحى للناس ، فإليه يحجون ، ومن بعيد البلاد يسافرون إلى هذه البقعة الطاهرة ، فلقد اتجهت إلى هذا البيت بعقلها وقلبها وكل عواطفها ، فهو مقدس عندها ، وله رب واحد تتجه إليه بالدعاء والشكر لأنه مصدر الخير ، وهو الذى يعطى ويمنع ، وما كانت تفعله فمن أجله سبحانه وتعالى .

لقد استهالها ما عليه جماعة الحنفاء من البحث فى الديانات الصحيحة السابقة لذلك فقد داومت على الاستماع إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فكان له دور كبير فى حياتها الروحية التى وجهتها وجهة خاصة ، وكان لها أكبر الأثر فى حياتها التى استقبلتها ، وظهر أثرها فيما أقبلت عليه من حياة فكلل عملها بالنجاح الباهر ، وكان للبيئة التأثير العظيم .

* * *

« خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه
على ولد فى صغره ، وأرعاه على بعل فى
ذات يد »

حديث شريف

مجتمع السّيدة خديجة وقومها

ظلت مكة على البداوة ، من البساطة فى الحياة ، والعيش فى الخيام ، إلى أن اجتمع أمرها لقصى بن كلاب ، أحد أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخديجة بنت خويلد رضى الله عنها فى منتصف القرن الخامس الميلادى .

« وقصى » هذا ليس اسما له ، وإنما هو لقب اشتهر به ، وغلب على اسمه الأصلى الذى سمى به وهو « زيد » وذلك لبعده عن دار قومه فى طفولته(١) .

فقد مات كلاب أبوه ، وهو ما يزال فطيما ، وله أخ كبير يسمى زُهْرة ابن كلاب ، كانا يعيشان مع أمهما فاطمة بنت سعد بن سَيَل أحد بنى الجدرة من جعثمة الأزد من اليمن ، فتزوجها ربيعة بن حرام من عذرة بن سعد بن زيد ، وكان قد قدم مكة بعد موت كلاب ، وكان زُهرة يومئذ رجلا ، وقصى فطيما ، فاحتمل فاطمة هذه إلى بلاده فى بادية الشام ، فحملت معها ابنها قصيا، وأقام زُهرة بمكة .(٢) .

فلما بلغ قصى ، وصار رجلا ، أتى مكة ، ويقال فى سبب رجوعه إليها أنه تساب هو ورجل من قضاعة ، فعيره بالدعوى ، وقال له : لست منا ، وإنما أنت فينا ملصق ، فدخل على أمه وقد وجم لذلك ، فقالت له : يا بنى صدق ، إنك لست منهم ، ولكن رهطك خير من رهطه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وإنما أنت قرشى وأخوك وبنو عمك بمكة ، وهم جيران بيت الله الحرام .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١١٨ وقال الخطابى : سمى قصيا لأنه قصّى قومه ، أى تقصاهم بالشام فنقلهم إلى مكة الروض الأنف ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) السيرة النبوية ج ١ ص ١١٨ .

تطلع قصى إلى أن يرجع إلى بلده ووطنه وأهله وأخيه فدخل فى سيارة حتى أتى مكة[1] ، واستطاع بذكائه ونشاطه وحبه لمجتمعه الجديد ، واحتفائه بأقاربه ، والتقرب إليهم أن يجعل له مكانة فى قلب كل من عرفه .

ثم خطب إلى حُلَيْل بن حُبْشية بن سلول الخزاعى ابنته حُبّى ، فرغب فيه حُليل ، فزوجه حُبَّى ، وكان حُليل هذا يتولى أمر مكة والكعبة .

فرح قصى فرحا شديدا لمعرفته بنسبه وأجداده وكانت حُبّى سعيدة بقصى ، فولدت له عبد الدار وعبد مناف أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم وعبد العُزّى أحد أجداد السيدة خديجة رضى الله عنها وعبدا[2] .

ولما تقدمت السنون بحُليل وكبر ، ولم يقدر على فتح باب البيت وإغلاقه ، كان يعطى المفاتيح إلى ابنته حُبى ، فكانت بيدها ، وكانت تعطيها أحيانا لقصى فيفتح البيت للناس ويغلقه .

ولما مات حُليل ، أوصى بولاية البيت إلى قصى ، فأبت خزاعة أن تمضى ذلك لقصى ، فَعَنَدَ ذلك وتمسك بما أوصى به حليل ، فهاجت عليه خزاعة ، وقامت بينهما مناوشات وحروب ، وانقسمت قريش إلى قسمين وما يزال قصى متمسكا بخدمة البيت .

ثم تداعوا إلى الصلح والتحكيم ، وكان المحكم يعمر بن عوف بن كعب المسمى « الشداخ » فقضى لقصى بالكعبة وأمر مكة .

فلما ولى أمر الكعبة ومكة ، جمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة ، فملكوه لما رأوا فيه من الذكاء ، والخبرة والقوة ، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ، فكان لا يُقْضَى أمرٌ إلا به ، ولذلك سمى مُجمّعا .

قصى لعمرى كان يدعى مجمعا   به جَمَّع الله القبائل من فِهْرِ

صار قصى يتولى بنفسه خدمة البيت ويرأس دار الندوة ، وأخذ مكانه فى

(١) الروض الأنف ح ٢ ص ٣٣ ومعنى دخل فى سيارة أى مع رفقة مسافرين .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ح ١ ص ١١٧ ، وعبدا هذا اسم لأحد أبناء قصى .

قومه ، فجمع ذرارى فهر بن ماللك إلى مكة ، وزحم بهم من كان فيها من القبائل ، وثبت الملك فى عقبه ، ونظم شئون المدينة ، وقسم الوظائف والواجبات على أولاده حين شعر بدنو أجله ، ومنهم عبد العزى الذى أنجب أسدا الجد القريب للسيدة خديجة بنت خويلد بن أسد .

بدأ العمران والنشاط التجارى يزداد يوما بعد يوم بفضل أولاد قصى متآخين وكان فيهم صرامة وتماسك ، جعل الناس يحترمونهم ويقدرون كلمتهم .

والظاهرة الواضحة فى المجتمع المكى الذى وجد قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وله اتصال بها ، واستمر زمنا بعدها ، أنه كان خاليا من النفاق ، مما جعل القوم يعيشون فى مكة فى ذلك الوقت وهم بعيدون عن المداهنة والتظاهر بما ليس فيهم .

حقيقة ما وجد المنافقون فى مكان إلا أفسدوه ، ومنعوا كل فضيلة أن تنمو وأن تكبر وجعلوا كل عقيدة تضل فى ضروب ملتوية حتى تنمحى وتضيع مبادئها فى متاهات اللؤم والخبث ، والنوايا غير الشريفة .

نستطيع أن نقول إن أبرز سمات هذا العصر الذى وجدت فيه الطاهرة أم هند خديجة بنت خويلد ، والذى كان قبيل الدعوة إلى الإسلام أنه كان خاليا من النفاق ، فكان مجتمعا تسيطر عليه الصراحة والوضوح والمكاشفة التى تظهر ما فى دخائل النفوس ، فالواحد منهم إما معك وإما عليك .

ولتوضيح هذا نقول : إن الدعوة حينما انتقلت من مكة إلى المدينة ــ وما أكثر المنافقين الذين يعيشون بالمدينة ــ كان المنافقون حربا عليها ، يحاولون بكل جهدهم طمس معالمها ، وإفساد ما بين المسلمين ولولا أن الوحى والقرآن كان يسرع لفضح أعمال المنافقين ، وإظهار دخائلهم ، وبيانهم بالأسماء والعلامات ، لكان للدعوة طريق آخر غير الطريق الذى سارت فيه ، ولكثرت وزادت المشاكل والخصومات والحروب ؛ وإن فى سورة المنافقين وسورة التوبة لأكبر دليل على ما قاموا به ضد الرسول صلى الله عليه وسلم والإسلام والمسلمين .

﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾(١)

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾(٢)

﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾(٣) .

لقد هيأ الله سبحانه وتعالى المجتمع المكى تهيئة فريدة لكى يتفاعل مع الدعوة ولكى يكون له قدرة وقوة على مواجهتها بالقبول أو بالوقوف ضدها ، مستمدا ذلك من تفكيره وحريته ، وأحيانا من تعصبه ؛ فالأخوان قد يؤمن واحد منهما بالدين الجديد ، وقد يقف الآخر يحاربه بكل ما يستطيع من قوة ، وقد يهدى الله الابن لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد يحارب الأب هذه الدعوة ، ومن يقوم بأمرها ، فهداية الله كان لها دور فعال فى تليين القلوب ، وجذبها إلى الطريق المستقيم .

ولم تستطع السيدة خديجة رضى الله عنها أن تؤثر فى ابن أخيها حكيم بن حزام ، فتجعله يؤمن بما يدعو إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى أول الدعوة ، وهو الذى لا يخالف لها أمرا ، بل وكثيرا ما كان يسرع إلى تلبية أمرها ويطيعها فى كل ما تأمر به ، لقد ظل مدة طويلة على دين آبائه وأجداده ، ولم يؤمن إلا عام الفتح .

لقد أتاح الله سبحانه وتعالى لهذا المجتمع أناسا أقل ما نقول فيهم إننا لم نر لهم مثيلا على مر السنين والأيام ، سواء قبل البعثة أو بعدها ، فكأنما خلقوا خلقا خاصا لهذا الوقت بالذات ، سواء فى ذلك من آمن بالدعوة الجديدة ، أو

---

(١) سورة المنافقون ٢ .

(٢) سورة المنافقون ٨ .

(٣) سورة التوبة ٦٧ ، ٦٨ .

لم يؤمن بها ، ووقف يحاربها بكل ما أوتى من قوة .

فمن مثل أبى طالب فى صراحته ومدافعته عن ابن أخيه ، وحرصه على أن يذود عن محمد بيده ، وأن يمسك بيده الأخرى على دينه ودين آبائه .

ومن مثل الوليد بن المغيرة فى عتوه وقوته ومن مثل أبى جهل فى محاربته وخصومته ، ومثل أبى لهب فى محاربة ابن أخيه الأعزل ، لم يكن هناك نفاق ظاهر أو مداهنة ، وإنما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لسنا معك ولن نؤمن بما جئت به بالرغم من القرابة التى بيننا .

أما الذين أسلموا ، وقد وهبهم الله الرأى السديد ، والقول الراجح ، والإيمان القوى والإخلاص لله ولرسوله ــ وما نظن أن الله سبحانه وتعالى قد من على الدنيا بمثلهم على مر الأزمان والعصور ــ فهم نمط عجيب خلقوا لذلك الزمان ، ليكونوا درعا للدعوة وحفاظا عليها حتى ترسو أوتادها .

فمتى كان فى الدنيا أناس مثل أبى بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ؟ ومتى كان فيها مثل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين من الذين هيأهم الله لهذه الفترة من الحياة وكأن الدنيا لم تخلق إلا من أجل هذا الزمن .

لم يكن كل هذا مقصورا على الرجال وحدهم ، بل شاركهم فى ذلك النساء ، ولقد كان للمرأة القرشية فى تلك الحقبة بالذات منزلة ونهضة عظيمة . ولعل ظهور الأحداث الجديدة ، والتفاعل مع المجتمع الجديد أظهر شخصيتها ، وطيب عنصرها ، وقدرتها على تملك زمام الحرية ، والتعبير بالقول وبالعمل مظهرة شخصيتها فى عزة وإباء .

كان الرجل القرشى ينظر إلى المرأة القرشية نظرة احترام وتقدير للقرابة القريبة ؛ فهى إما أخت أو ابنة عم ، أو ابنة خال ، وعنده من الشهامة والرجولة ما يجعله يجلها ويحترمها ، فإذا وجد ميل ، فلا طريق إليه إلا بالزواج ، ولا يفكر فى شىء آخر ، وقلما اجتمع اثنان على خسيسة .

وكان لهن كثير من الحقوق ، فلهن أن يواجهن الرجال فحرية الرجل والمرأة كانت تامة حتى لقد قيل :

ولم يكن مقام المرأة فيهم مهينا   بل إن لها لديهم مقاما كريما

فالمرأة القرشية أخذت مكانتها ، ولا مانع من أن تتساوى بالرجل إذا كان عندها القدرة على مواجهة مشاكل الحياة بإباء وشمم ، كانت تشترك مع قومها فى الحروب ، وتدلى بدلوها فيها بقدر ما تستطيع فتدعو إلى توحيد الصفوف ، وإلى تحميس الأبطال لدخول المعركة حتى يتم النصر ، وأحيانا كانت تشترك فى القتال والدفاع .

يحفظ التاريخ حلف المطيبين ، وكان من أمره أن بنى عبد مناف بن قصى وعبد شمس ، وهاشما والمطلب ونوفلا أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار بن قصى ، مما كان قصى جعله إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم ، وفضلهم فى قومهم .

تفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة من بنى مناف على رأيهم ، يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار لمكانتهم فى قومهم ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون أن لا ينزع منهم ما كان قصى جعل لهم .

وكان مع بنى عبد مناف بنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر فأرادت أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوأمة أبيه أن تقوم بواجب فى هذه الحرب ، وأن تشترك بشىء فيها ، فأخرجت جفنة مملوءة طيبا ، فوضعتها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ، فسموا بالمطيبين ، نسبة إلى ما فعلته أم حكيم ، فزاد من حماسهم للقتال ، إلا أن القوم اصطلحوا فيما بينهم ، وقد قامت المرأة بدورها .

وهذا موقف لإمرأة عاشت فى الجاهلية ورأت نور البعثة المحمدية وتعاونت مع ذويها ضد الإسلام والمسلمين وشجعت المشركين ضد من آمن بالدعوة الجديدة ، إنها هند بنت عتبة ، فقد خرجت يوم أحد ، وقد قتل جل أقاربها يوم بدر ، فراحت تحمس المشركين وتصرخ فيهم بل وتساوم الرجال للانتقام

من أبطال المسلمين كما فعلت مع وحشى الذى غدر بحمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن مواقف هند هذى فى الجاهلية ما رواه المؤرخون : فقد تقدم لهند خاطبان ، وقد أصبحت فى سن الزواج ، وجاء أبوها يشاورها فى رجلين من قومها راغبين فى الزواج منها:فقالت لأبيها:صفهما لى : قال عتبة أبوها : أما أحدهما ففى ثروة وسعة عيش ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين فى أهله وماله .

وأما الآخر فموسع عليه ، منظور إليه فى الحسب الحسيب ، والرأى الاريب ، مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ، لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله .

يا أبت الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها ، فأشرت وحافها أهلها ، فأمنت فساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فإذا جاءت بولد أحمقت ، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه على بعد .

وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العفيفة ، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة ، فزوجنيه فزوجها الثانى وكان هو أبا سفيان بن حرب .

وموقف ثالث لهند يبين حرية المرأة وانطلاقتها ، والتعبير عن رأيها فى زمن السيدة خديجة وبعيد وفاتها .

وتبدأ القصة حينما أرسلت السيدة زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم القلادة التى أهدتها لها أمها السيدة خديجة ليلة زفافها لتفدى بها زوجها الذى كان يحارب فى صفوف المشركين فى غزوة بدر ، وكان نصيبه الأسر ، وكانت زينت لا تزال تعيش مع زوجها فى مكة ، وعندما عرضت القلادة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفها ، ورق لها رقة شديدة ، وذكر أم المؤمنين خديجة ، فدعا لها ، وقال لأصحابه : إن رأيتم أن تردوا القلادة وتطلقوا لزينب

---

(١) الأمالى لأبى على القالى ح ٢ ص ١٠٤ .

أسيرها ، فافعلوا ، فأطلقوا أبا العاص بن الربيع والتقى أبو العاص بالرسول صلى الله عليه وسلم فتحادثا وطلب منه صلى الله عليه وسلم أن يخلى سبيل زينب فما عادت تحل له حيث هو ما يزال على دين قريش ، وقد منع الإسلام أن يتزوج المشرك مسلمة ، أو يستمر زواجهما ، إن كان قد تزوجها قبل المنع ، فيترك كل منهما صاحبه ، والسيدة زينب قد آمنت بالله ورسوله منذ بدء الرسالة ، فوعد أبو العاص أن يخلى سبيلها بمجرد أن يصل إلى مكة .

ثم استدعى الرسول صلى الله عليه وسلم إليه زيد بن حارثة ، وطلب منه أن يذهب وفى صحبته صحابى من الأنصار ، فينتظرا مرور زينب فى مكان ذكره لهما وهو بطن ياجج ، فيصحبا السيدة زينب حتى يأتيا بها إلى أبيها صلى الله عليه وسلم .

ولما عاد أبو العاص بن الربيع إلى مكة طلب من السيدة زينب أن تتجهز للسفر إلى المدينة لتلحق بوالدها صلى الله عليه وسلم ، وطلب من أخيه كنانة ابن الربيع أن يعدَّ لها بعيراً ، فركبته وأخذ كنانة قوسه وكنانته ، ثم خرج نهارا يقود بها البعير ، وهى فى هودج لها .

وعلمت هند بنت عتبة بالخبر ، وكان« بدر »لا تزال ماثلة أمام عينيها ، وصوَر قتلى المعركة متمثلة فى ذهنها ، فكانت تخرج كل يوم من بيتها إلى أندية قريش ومجتمعاتها ، تدعو للثأر من المسلمين الذين قتلوا أباها عتبة بن ربيعة ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد بن عتبة وابن عمها عبيدة ، والعاصى بن سعيد بن العاصى ، وابن زوجها حنظلة . بن أبى سفيان بن حرب ، فأقبلت هند على السيدة زينب ، وتحكى السيدة رضى الله عنها ما دار بينها وبين هند فتقول : بينا أنا أتجهز بمكة للحوق بأبى ، لقيتنى هند بنت عتبة ، فقالت : يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟ قالت : فقلت ما أردت ذلك . فقالت هند : أى ابنة عمى ، لا تفعلى إن كانت لك حاجة بمتاع مما يُرْفق بك فى سفرك ، أو بمال تتبلغين به إلى أبيك ، فإن عندى حاجتك ، فلا تضطنى منى ، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال .

قالت السيدة زينب : والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكنى خفتها ، فأنكرت أن أكون أريد ذلك ، وتجهزت .

ثم علم القوم فى مكة بخروج السيدة زينب ، فجروا خلفها يتقدمهم هبار ابن الأسود ، ونافع أوخالد بن عبد قيس ، وكادت تحصل معركة بينهم وبين كنانة أخى زوجها وابن خالتها هالة ، اضطرت بعدها إلى الرجوع إلى مكة ، وكانت قد بلغت ذى طوى .

قالت لهم هند بنت عتبة . أمعركة مع أنثى عزلاء ؟ فهلا كانت هذه الشجاعة يوم بدر !! وفى ذلك يقول الشاعر ، وينسب إلى هند بنت عتبة

أفى السِّلْم أعيار جفاء وفى الحرب أشباه النساء العوارك

ولقد قامت هند بدور كبير للإعداد لمعركة أحد ، وإشعال الحرب بين المشركين والمسلمين .

وممن نشأن فى الجاهلية ، وقضين وقتا طويلا فيها ، وتربين على أخلاق أهل قريش ، ومع أبناء أعمامهن ، ونلن المنزلة الكريمة وأخذن بقسط وافر من الاستغلال الشخصى المحمود ، وكن مضرب المثل فى الأخلاق والعادات ، وهن من أتراب السيدة خديجة رضى الله عنها ، ووجدن فى زمانها ومن جيلها ، أو الجيل الذى يليها ومن عشيرتها التى ضربت أروع المثل فى التضحية والفداء والإخلاص للأزواج ، ووجدن فى الإسلام ما أظهر طيب العنصر وكرم المنبت والتفانى فى سبيل العقيدة ، والدفاع عن الدعوة المحمدية ، فاستحقت كل واحدة منهن أن تنال الخير الذى مدح به الرسول صلى الله عليه نساء قريش فقد قال : « خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناها على ولد فى صغره ، وأرعاها على بعل فى ذات يد »

من هؤلاء الفضليات السيدة فاطمة بنت زيد بن نفيل أخت عمر بن الخطاب رضى الله عنهم،التى تحدث أهل مكة وأهلها عن إسلامها وعيروا عمر — قبل إسلامه — بها ، فقد أسلمت مع زوجها .

جلست مع زوجها لتقرأ ما وصل إليهما من آيات نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم ، وكانت آيات من سورة طه قد كتبت فى صحيفة .

دخل عمر على أخته وزوجها ، وقد تأكد من نبأ إسلامها ، وكان

لا يزال على دين قريش ، ويظهر العداء الشديد للمسلمين ، وأراد أن يبطش بزوج أخته ، فقامت إليه تمنعه عن زوجها وتكفه عن محاولة الفتك به ، فضربها ، وشجها حتى سال الدم ، وغطى وجهها ، ولكنها وقفت تتحداه قائلة :

« نعم أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك !! »

لم تهتم بعصبية أخيها ــ حينذاك ــ ولا بقوته ولا بما ستلقاه على يديه حتى ولو كان هو الموت .

ومن اللائى نشأن فى الجاهلية ، وضربن أروع مثل للتضحية فى سبيل المبدأ والعقيدة والإسلام السيدة رملة بنت أبى سفيان (أم حبيبة رضى الله عنها) أبوها أبو سفيان زعيم مكة ، وقائد المشركين ، والرجل الأول فى قريش وحامل لواء الشرك ضد المسلمين فى الجاهلية .

أسلمت السيدة رملة رضى الله عنها مع زوجها ، وكانا من الأوائل الذين أسلموا ولم تهتم بما كان عليه أبوها ، وأقرب الناس إليها لأنها تربت على استقلال الشخصية ، بعيدة عن التبعية تعيش بتفكير حر سليم ، ثم هاجرت هى وزوجها مع الذين هاجروا إلى الحبشة من أجل العقيدة والدين والبعد عن إيذاء مشركى قريش .

وفى يوم وهى فى الحبشة فوجئت بزوجها يرتد عن دينه الذى هاجر من أجله إلى الحبشة ، واعتنق النصرانية دين الأحباش جريا وراء لهوه وخمره .

فكرت ، وهى مستقلة برأيها وبشخصيتها التى تربت عليها فى مكة ، وبعقلها الناضج ، وما أضاف إليها الإسلام من حب التفانى فى سبيل العقيدة والحرص عليها ، والمحبة لله ولرسوله ، تلك المحبة التى غرست فى أرض قريش طيبة المنبت والمرعى ، فأبت إلا أن تظل وفية لما قدمت من أجله إلى الحبشة ، وهو الفرار بدينها حتى تنتهى الأزمة أو تخف حدتها . وظلت على دينها حتى عادت مكرمة معززة إلى المدينة ، وقد توجها الرسول صلى الله عليه وسلم بتاج أمهات المؤمنين .

ومثال آخر لقرشية من عشيرة السيدة خديجة ، مرت بها نفس الظروف

والتربية والخلق الذى كان له أكبر الأثر فى حياتها ، وما جد من أحداث .

تلكم هى هند بنت أمية بن المغيرة المخزومية القرشية ، وهى عريقة النسب والأصل فى الجاهلية .

فقد هاجر زوجها إلى المدينة ومنعها أهلها من الذهاب معه مدعين أن من حقهم أن يمنعوها ، وكان فيهم عليها شدة وغلظة ، وماذا تملك هند ؟ هل استسلمت لهم ؟ وهل رضيت بما فعلوه ؟ ولكن ما تصنع ؟

لم تملك إلا البكاء ليل نهار !! إنها تريد أن تلحق هى وابنها بزوجها ، فكانت تخرج كل صباح ، وتجلس بالأبطح بمكة حتى المساء ، تبكى وما تزال تبكى حتى تمسى سنة أو قريبا منها .

ولقد مر بها رجل قرشى من أبناء عمها ، وهو واحد من الذين يقدرون المرأة ، ويحترمون رغبتها ، وهذا ما كان متعارفا عليه قبل الإسلام . ذهب إلى قومها وقال لهم :

ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها !! ومازال بهم حتى قالوا لهند : الحقى بزوجك إن شئت .

حملت ابنها ، وركبت بعيرها ، ثم خرجت تريد المدينة بشجاعة وجرأة وإيمان عظيم غير آبهة بالمخاطر التى ستقابلها فى الطريق .

لم تكن تفكر فى شيء إلا باللحاق بالركب المؤمن فقد آمنت بالله وذاقت حلاوة الإيمان ، وما عادت تطيق صبرا على البعد عن الفئة المؤمنة ، ولا عن أن تسمع ما يتلى من آيات الله البينات ، وأن تكون فى مأمن مع زوجها وابنها .

كانت توقن أن الله معها ، ولن تغفل عينه عن حراستها ، تلك العين التى تحرس المؤمنين وترعاهم ، وعلى بعد فرسخين من مكة أرسل الله من يرعاها ويوصلها إلى حيث يقيم زوجها مع المؤمنين . لقد وجدت رجلا يسرع نحوها ، وهو يقول : لقد عرفتك يا هند !!

لقد كان عثمان بن طلحة من أبناء عمها ، ولا يزال على دين الجاهلية قال لها عثمان : أين يا بنت أمية ؟

قالت : أريد زوجى
قال : هل معك أحد ؟
قالت : لا والله إلا الله وابنى هذا
قال : والله ما لك من مترك

حرسها بالمروءة والشهامة التى توارثها القرشيون ، حتى أوصلها قريبا من المكان الذى يقيم به زوجها ، وتركها وقفل راجعا إلى مكة .

ومالنا نذهب بعيدا ، فها هى السيدة زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأمها أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، وقد عاشت طفولتها وجزءاً من شبابها قبل الإسلام مع والديها ، وتربت فى رحاب أمها ، وهى من بنات قريش ، ومن خير ما أنجبت مكة .

لقد أسلمت مع أبيها ، وظلت مع زوجها ، وهو وأهله ما يزالون على الشرك ثم استدعاها والدها صلى الله عليه وسلم : إلى المدينة بعد الرحلة المثيرة ، وأصابها ما أصابها من المشركين ، وقد نخس أحدهم بعيرها ، وهى على بُعد من مكة ، فربعت ، وسقطت على صخرة ، وهى حامل ، فهلك جنينها ، مما اضطرها إلى الرجوع إلى مكة ، حتى استراحت قليلا ، ثم بدأت رحلتها إلى المدينة لتكون بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم خرج أبو العاص زوجها من مكة قاصدا الشام بمال له ، وأموال لرجال من قريش ، أعطوها له للتجارة ، فلما فرغ من تجارته ، وأقبل راجعا ، لقيته سريَّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذوا ما معه ، إذ لا يزال العداء مستحكماً بين المسلمين بالمدينة ، والمشركين بمكة ، فكثيرا ما كان المشركون يسلبون المسلمين ، ويأخذون ما معهم ، بل لقد استولوا على أموالهم التى تركوها بمكة بعد هجرتهم ، لذلك فإن المسلمين كثيرا ما كانوا يتربصون بهم الدوائر ، ليسلبوا ما معهم ، ويأخذوا أموالهم وتجارتهم ، فكانت الدوريات تخرج من المدينة لمحاصرة الطريق التى يمرون بها وهم آتون من الشام .

فر أبو العاص خوفا من القتل ، لكنه لم يطق أن يرجع إلى مكة ، وقد سلبت أمواله وأموال أهل مكة التى كانت معه ، فراح يفكر فى طريقة يمكن بها

أن يرجع الأموال إليه أو بعضها ، أو يعمل عملا يرجع به إلى مكة يعرف منه أنه لم يقصر أو يهمل فى المال الذى كان معه ، وأنه فعل كل ما يقدر عليه .

لقد هداه تفكيره إلى أن يذهب إلى بنت خالته زينب بالمدينة لعله يجد عندها مخرجا مما وقع فيه .

وعندما أقبل الليل ، وتحت جنح الظلام ، دخل المدينة وتسلل حتى صار على باب بيت السيدة زينت ، وناداها مستجيرا بها ، فأجارته ، وكان النهار قد أقبل واستعد المسلمون لصلاة الصبح ، وعندما كبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكبر الناس معه سمع الناس صوتا ينادى إنه صوت زينب تقول أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا : نعم يا رسول الله

قال : أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك ، حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنته زينب فقالت له : يا رسول الله ، قد أجرت أبا العاص
فقال صلى الله عليه وسلم : « أى بنية أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك ، فإنك لا تحلين له »

وإنها لجرأة قرشية ، لا تقدم عليها إلا من تربت على خلق وحرية وعزة وكرامة .

ولقد وافقها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان فى معاملته لها منهاج للتربية يحتذيه المسلم فيما يقوم به تجاه ذوى أرحامه .

هؤلاء ـــ ما أكثر ما سطر التاريخ لنساء قريش ـــ كن مثلا عليا عشن فى ظل الكعبة ، قد ورثن المجد من الآباء الذين كن دائما يفخرن بهم ، ويعتززن بالانتساب إليهم ، فجلهن ينتسبن إلى كنانة ، وكنانة من قريش ، وقريش اختيروا من العرب ، فهن عطاء البيئة العظيمة بما فيها من البيت العتيق ، والوراثة التى جرت فى جذورها الأصيلة

إن المرأة القرشية ، قد أنزلها الرجل منزلة كريمة وأولاها كل اهتمامه وجعل لها مكانة عظيمة فى نفسه وفى مجتمعه ، وأخذ برأيها وشاركها آمالها وأحلامها ، وشاورها فيمن ستتخذه بعلا لها ، حتى تكون مستريحة الضمير راضية النفس ، وحتى تقبل على الحياة شامخة الرأس عالية الجبين ، عزيزة الجانب ، وحتى يشب ابنها ويرى عزة أمه ، فيفخر بها .

لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يفخر بأمه فيقول : « أنا ابن العواتك من سليم » وقال أكثم بن صيفى « إن المناكح الكريمة مدرجة الشرف » وقال أعرابى لبنيه : « لقد أحسنت إليكم صغارا ، وقبل أن تولدوا » قالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد فأجاب : « اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها » ومثل هذا لا يحدث إلا فى المجتمع المكى .

ولقد كانت السيدة خديجة رضى الله عنها مثلا أعلى لهذا المجتمع العظيم ، من حيث الأصل والنسب ، ومن حيث الرتبة والنشأة ومن حيث السيرة العطرة التى تمسكت بأنبل الأخلاق فى كل حياتها العامة والخاصة ، وظهر ذلك فى بيتها ومع أولادها وتضحيتها مع زوجها الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

« كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة جلدة
من أوسط نساء قريش وأعظمهن شرفا
وأكثرهن مالا وأحسنهن جمالا »

نفيسة بنت منبه

أصل السّيدة خديجة ونسبها

ولدت السيدة خديجة رضى الله عنها لأبوين من قريش ، فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العُزّى ، وعبد العُزّى هذا أخو عبد مناف أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم إذ أبوهما هو قصى بن كلاب ، فهى رضى الله عنها تلتقى مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الجد الرابع وهو قصى بن كلاب .

وخويلد هذا هو الذى قاد الناس يوم حرب الفجار ، وكان فى بيته الأصل والعدد ، فهو والد السيدة خديجة أم المؤمنين ، وهالة أم أبى العاص صهر النبى صلى الله عليه وسلم ، ورقيقة أم اميمة بنت بجاد بن عمير من بنى تميم بن مرة والعوامل بن حل ، وحزام بن خويلد ، ونوفل بن خويلد اسد قريش وأسد المطيبين[1] .

ولا ينسى التاريخ موقف خويلد حينما وقف فى وجه تبع الآخر عندما جاء من اليمن حاجا ، وسولت له نفسه أن ينتزع الحجر الأسود ، ويأخذه معه ، فقد تصدى له خويلد وراح ينازعه فيما أقبل عليه ، ويبين له أن إقباله على هذا الأمر جدير بأن يغضب السماء ، وأن رب البيت لن يتركه بل ستحل عليه اللعنة التى تودى به إلى التهلكة .

وقف هو وجماعة معه فى وجهه ، حتى امتلأت نفسه بالرهبة والخوف وبدأت داخليته تتأثر بما سمع من خويلد ، وفكر طويلا فيما سيقبل عليه ، حتى إذا دخل الليل ونامت عينا تبع وحديث خويلد يملأ عليه تفكيره ، ويشغل باله ، إذ به يرى رؤيا تقرعه وتحذره من الإقدام على ما نوى عليه ، وتنذره بأن اللعنة ستحل به ، فما كان منه إلا أن صرف النظر عما كان سيقدم عليه .

---

(١) أنساب الأشراف للبلادرى ص ٩٢٩ .

يقول السهيلى : « وخويلد بن أسد هو الذى نازع تبعا حين حج ، وأراد أن يحتمل الركن الأسود معه إلى اليمن ، فقام فى ذلك خويلد ، وقام معه جماعة ، ثم إن تبعا روّع فى منامه ترويعا شديدا حتى ترك ذلك(١) وانصرف عنه » أما ابن اسحاق فتناول القصة بالبسط والتوضيح فقال : « فلما أراد — تبع — الشخوص إلى اليمن ، أراد أن يُخرج حجر الركن فيخرج به معه ، فاجتمعت قريش إلى خويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قصى .

فقالوا : ما دخل علينا يا خويلد إن ذهب هذا بحجرنا !

قال : وماذاك ؟

قالوا : تبع يريد أن يأخذ حجرنا ، يحمله إلى أرضه .

فقال خويلد : « الموت أحسن من ذلك » ثم أخذ السيف وخرج ، وخرجت معه قريش بسيوفهم حتى أتوا تبعا .

فقالوا : ماذا تريد يا تبع إلى الركن ؟

فقال : أريد أن أخرج به إلى قومى .

فقالت قريش : الموت أقرب إلى ذلك ! ثم خرجوا حتى أتوا الركن فقاموا عنده فحالوا بينه وبين ما أراد ذلك .

وأم السيدة خديجة رضى الله عنها هى فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن عامر ابن لؤى ، وكان جد فاطمة ابن خنثر أحد أبطال الجاهلية ، وأم فاطمة هذه هى هالة بنت عبد مناف بن الحارث الذى يصل إلى لؤى بن غالب(٢) . فكِلا أبويها من أعرق البيوت فى قريش نسبا ، وأعلاهم حسبا ، فقد نبتت فى بيت واسع الثراء ، ملتزم بالأخلاق الفاضلة ، ومعروف بالتدين ، والبعد عن الانغماس فى الملاهى التى كان بعض بيوتات قريش غارقة فيها .

سكتت المراجع ، فلم تذكر لنا شيئا مفصلا عن طفولة السيدة خديجة ، والذى نستطيع أن نقوله إنها درجت طفولتها الأولى فى بيت كبير فيه الغنى والنعيم ، وكل وسائل العيش الرغيد ، معروف بإطعام الطعام ، ومساعدة

---

(١) سيرة ابن إسحاق .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٨٩ .

الفقير والمحتاج .

ولقد كانت عناية الله ترعاها وتحرسها منذ طفولتها الأولى ، لأنها خلقت لتكون أما للمؤمنين — وليس كل امرأة تصلح لأن تكون أما للمؤمنين ، لأن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم أحطن بتربية خاصة ، وعناية إلهية حرستهن منذ أن خلقن ونشأن ، واختارهن الله سبحانه وتعالى لحكمة ومهمة يقمن بها ؛ ولذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستطع أن يتزوج امرأة مهما كانت منزلتها أو قرابتها منه إلا بعد موافقة من الله سبحانه وتعالى .

وقصة أم هانئ ابنة عمه أبي طالب دليل على ذلك ، فلقد أراد أن يتزوجها بعد فتح مكة ، وعُرِض عليها ذلك فكان مما قالته : « لقد كنت أحب ذلك فى الجاهلية ، فكيف لا أريده الآن »

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عرض ، وهو يعيش فى بيت أبى طالب على عمه أن يزوجه ابنته ، إلا أن أبا طالب ارتآها لغيره فلم يوافق ربه سبحانه ، ونزل قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك**﴾(١)

ولقد منع القرآن الكريم زواجها ، وثبت أن كل امرأة لا تصلح لهذا الزواج ، وإنما تصلح له امرأة كونت تكوينا خاصا ، لتكون صالحة لأن تقوم بعبء ومساعدة زوجها صاحب الرسالة السماوية ، فلها من أسلوب الحياة وسلوكها ما يتفق مع هذه المنزلة

كان من عادة بيوت الأشراف من قريش أن تتزوج البنات فى سن مبكرة فإذا جاوزت العاشرة أو أتمتها طلبت للزواج ، وكان لا يجرؤ أن يطلب يد واحدة من هذه البيوت إلا إذا كان شريف النسب معروف الأصل

لقد تقدم إليها وهى — تقريبا — بعد العاشرة بقليل عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، فولدت له عبد الله ، ثم مات عتيق هذا فلم تستمر أيمًا مدة طويلة ، فقد خطبها أبو هالة واسمه هند بن زرارة بن النباش بن عدى

---

(١) سورة الأحزاب ٥٠ .

بن حبيب بن صُرد بن سلامة بن جروة بن أسيد بن عمر بن تميم ، ودخل بها فولدت له ابنين ذكرين هما هند والحارث وابنة اسمها زينب .

هذه هى رواية ابن حزم رحمه الله وهو معروف بالتحرى والدقة فيما ينقل من أخبار ، وكان عبد الله بن عتيقَ هذا قد جاوز العاشرة حينما تزوج النبى صلى الله عليه وسلم خديجة ، أما هند ومن معه من الصغار ، فقد كانوا فى دور الطفولة ، فأنسوا فى محمد العطف والحنان الزائد والأبوة الصادقة مما جعل هند هذا كان يقول عند الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « وأبى محمد » (١)

وإذا تكلمنا عن أهلها وعشيرتها والمقربين إليها وجدنا أن التاريخ لم يحفظ سيرة أحد منهم إلا كان علما فى الشجاعة والشمم ، فمثلا حكيم بن حزام بن أخى السيدة خديجة رضى الله عنها ، كان من ذوى الأموال الطائلة ، وكذلك ورقة بن نوفل من ابناء عمومتها .

ونذكر هذين الشخصين لما لهما من أثر كبير فى حياة السيدة خديجة ، أما حكيم هذا فقد ولدته أمه فى قلب الكعبة فقد دخلتها وجاءها المخاض ، فكان هذا شرفا يعتز به .

كان راجح العقل له دراية ورأى حكيم النفس ، مبسوط اليد فى العطاء إلى درجة لم يصل إليها إلا القليل . دخل دار الندوة ، وأصبح من رجالها وهو ابن خمس عشرة سنة ، وكان لا يقبل عضوا بها إلا من بلغ الأربعين ، فقبوله بهذه السن ، دليل على ما كان يمتاز به حكيم من رجاحة العقل ، وسداد الرأى ، وسلامة التفكير وطالما غبط أبو سفيان فى الجاهلية حكيما على بلوغه تلك المكانة ، وتمنى أن يصل إلى ما وصل إليه حكيم بن حزام .

---

(١) حوامع السير لابن حزم ص ٣٠ طبعة باكستان تحقيق د . احسان عباس ، ود . ناصر الدين الأسد ومراجعة أحمد محمد شاكر .

ووافق هده الرواية فى تاريخ الطبرى ح ٣ ص ١٧٥ ، والسمط الثمين ص ١٣ وعيون الأثر ح ١ ص ٥١ . وورد فى الطبقات الكبرى لابن سعد ح ٨ ص ١٤ ، ١٥ وصفوة الصفوة ح ١ ص ٢٥ أنها تزوحت أبا هالة النباش بن زرارة التميمى ثم تزوجت بعده عتيق بن عائذ المخزومى كما أن هناك اختلافا فى الأولاد منهما ، وقد أيدنا ما جاء فى حوامع السير .

ولقد صرف حكيم هذا كل تفكيره ونشاطه وذكائه إلى التجارة ، فكانت قوافله تجوب داخل الجزيرة العربية وخارجها إلى الشام وبلاد فارس وغيرهما ، وقد عادت عليه بالربح الوفير والمال الكثير ولم يكن يدخر كل ما يكسب مع الوفرة ، وإنما ينفق على الفقراء من أهل مكة ، وعلى الضيفان يبتغى بذلك البركة فى المال والمحبة وتأليف القلوب .

كان حكيم محبا لعمته ، دائم التردد عليها فى بيتها ، يشاركها الرأى والعمل ، وطالما نهته عن السجود للأصنام التى كان يطيل لها العبادة ، ولكن ذلك لم يصرفه عما ذهب إليه .

وورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة ، ذلك الشيخ الكبير الذى كان له أكبر الأثر فى التربية الروحية التى كانت عليها السيدة رضى الله عنها فى الجاهلية ، قبل زواجها من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد زهد فى متاع الدنيا ومباهجها ، وكانت حياته كلها للتأمل فى الكون ، ولعبادة الله وعكف على التوراة والانجيل يقرأ فيهما ، وينقل منهما ، ويجرى وراء المعرفة ليتعرف على شيء من أوصاف النبى الذى بشرت الكتب المقدسة القديمة بقرب مجيئه ، ولقد جالس الكثير من الرهبان ، والمشتغلين بالكتب المقدسة ، وسمع منهم أنباء النبى المنتظر ، وكان يتشوق لرؤيته قبل أن يموت ، وبخاصة عندما علم أن هذا النبى من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

كان بجانب بعده عن الرجس والأوثان وعبادة الأصنام ، والتوجه إلى خالق الكون والايمان العميق بالحساب والجزاء والجنة والنار شاعرا رقيق الإحساس ، كبير النفس والقلب يحب الناس ويألفهم ، وكانوا يحبونه ويألفونه ، فإذا ما مَرّ بمجلس من مجالس القوم ، رحبوا به ، وتمنوا لو يقضى وقتا بمجالسهم إلا أنه كثيرا ما كان يؤثر الوحدة والتعبد .

ولقد تأثرت السيدة خديجة بهذين الرجلين وكان حكيم ابن أخيها حزام مثلها الأعلى فى التجارة والغنى فقد قيل عنه : « إنه كان يؤمن بالتجارة ، ويجد فيها عز العرب ، فكان لا يدع سوقا بمكة أو تهامة إلا حضرها ، وكان بتهامة أسواق كثيرة وأعظمها سوق حباشة »

كان دائم البشر ، دائم الحركة ، وكثيرا ما يشاهد عند عمته خديجة ولا ينسى التاريخ أن حكيما هذا أهداها زيد بن حارثة الذى أهدته بدورها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وورقة بن نوفل سمعت السيدة خديجة رضى الله عنها منه الكثير وآمنت إيمانا عميقا بما يقول ، وكثيرا ما مرت بخاطرها خواطر مرت بقلبها الكبير ، وعقلها الراجح ، وتفكيرها الهادف عن الله وآياته وعن ثوابه وعقابه وجنته وناره وقيمة العمل الصالح ، والإنفاق على الفقراء والمساكين ومساعدة المحتاج .

كان ورقة يشعر بصفاء نفس ابنة عمه ، الخالية من كل شوائب الحياة ، فيجيبها عما تسأل مما عرف من قراءته وتجاربه حتى تأثرت به فى حياتها الدينية ، فلم تسجد لصنم من الأصنام ، ولم تقدم إليها قربانا ، ولا نذرت لها نذورا .

ولهذا كانت حياتها فى الجاهلية خالية من الأوثان والأصنام والرجس والعبادة لغير الله .

كان من عادة العرب أن العرب لا تقعد أرملة مدة طويلة ، فلا تمر شهور دون أن يتقدم إليها الخطاب ، لأنه مجتمع الزواج ؛ ولأن الزواج شيء عادى فى ذلك الوقت والتعدد ليس ممقوتا ، بل هو دليل على الفحولة ، وبالنسبة للمرأة ليس شيئا صعبا ، وقد يكون لها ظروف تجعلها تؤخر الزواج لأسباب ربما لا تقع تحت تفكيرنا ، سواء منه الخاص أو العام ، وليس لنا فى مثل هذه المواقف أن نلجأ إلى الحدس والتخمين ، أو نصور الموقف تصويرا باهتا نخضعه لتجاربنا القاصرة ، وتفكيرنا الخاص ، كذلك فإن التحليل النفسى لطبيعة من الطبائع قد يختلف من زمن إلى زمن ومن بلد إلى بلد ، فليس لنا أن نتمادى فنضع أنفسنا حكاما بدون ما يقتضى المقاضاة ، وإصدار الحكم فيما بعد عنا إدراكه ، فمسألة التزوج التى يترتب عليها تعمير الكون ، إنما هى بيد خالق الكون ومعمره ، وهو سبحانه وتعالى يتولى هذا الأمر بنفسه ، فكم من اثنين اتفقا على زواج ولم يكن بينهما وبين الرباط الزوجى إلا لحظات أو خطوات ، ولم يجتمع الشمل لأن الله أراد منعه لحكمة ولأمر فوق حكمتنا وأمرنا .

وما نشك فى أن القدر عطل كل زواج قدره الغير أو قدرته السيدة خديجة لنفسها إن كانت قد قدرت وذلك حتى تنفذ إرادة الله فتلتقى السيدة خديجة رضى الله عنها بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك فنجد من يفترض أنها لم تتزوج ، وكانت تعتذر إليهم ، لا رغبة فى العزوبة ، ولكن رغبة عن ذل الرجال !!

ونحن نقول : وهل مثل خديجة يذلها الرجال ؟!

أو من يفترض أن خديجة لم يعجبها أحد لأن عادة من يتقدمون إلى الأرامل الثريات كهول ذوو مطامع . نقول لمن يرى هذا الرأى : إن المجتمع الذى نعيش عليه غير المجتمع الذى كانت تعيش فيه السيدة خديجة فقياسك باطل ؛ لأن المجتمع فى الجاهلية ، وحتى بعد الإسلام لم ير مثل هذا الرأى المحدث الدخيل .

لقد حفلت كتب التاريخ بكثير من شيوخ تزوجوا ممن لم يبلغن العشرين وكن سعيدات فى حياتهن ، فلا ينبغى أن نقيس ما فى المجتمع على مجتمعنا مع الفرق والاختلاف فى كل مناحى الحياة .

ثم نجد من يمتدح التحضر فى مكة فى الجاهلية ، ثم يناقض نفسه فيقول : « وكانت السيدة خديجة سيدة ذات عقل ناضج ، وقلب كبير فى مجتمع خشن كثيف غليظ ، ولابد لها من شاب فى ربيع حياته يخرجها من ظلام هذه التقاليد الجاهلية ، وفوضى البداوة . ونحن نقول :

لم تكن السيدة خديجة فى حاجة إلى مثل هذه التحليلات القاهرة فإنها كانت فى سعادة عظيمة وهى تطعم الطعام وتكسو الجائع ، وتعين الضعيف على نوائب الدهر ، وهذا كان مصدر السعادة فى حياتها ، وبه ردت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جاءها يشكو إليها ما أصابه قالت رضى الله عنها :

« كلا لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »

فهذا هو قانون الإثابة فى الحياة الدنيا ، وهذا ما كانت تعيش به ، وتتمثله

وتتصوره عند غيرها ، وهذا منهاجها فى الحياة ، ومصدر سعادتها ، تفعل ذلك ثم تسرع إلى البيت الحرام لتطوف وتناجى ربها خالق السماوات والأرض ، وترجع إلى بيتها لتنصرف إلى تجارتها المباركة ، ولقد أحبها الله .

لقد أصبحت بعد موت زوجها الثانى أبى هالة النباش بن زرارة التميمى مسئولة وحدها عن تربية أولادها والعناية بهم ، والاخلاص لهم ، فنشئوا نشأة صالحة ، هيأتهم لأن يستقبلوا محمدا ، وأن يجعلوه فى منزلة الأب ، فيتقبلوا عطفه وحبه ورعايته لهم بسرور زائد ، ظلوا يعبرون عنه بحماسة حينما يذكرون حياة الرسول صلى الله عليه وسلم معهم فنجد هندا ابن السيدة خديجة يفتخر بأنه ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبى محمد »

لقد وجدت السيدة خديجة من الفراغ ما جعلها تنصرف للإشراف بنفسها على الاتجار فى أموالها الطائلة ، وكانت التجارة التى ترسلها مع القوافل التى تخرج من مكة من الوفرة بدرجة كبيرة ، وكانت تختار من قريش من يخرج مع العير ليشرف لهم بالأمانة والصدق بل لقد كان لها من جديتها وشخصيتها ما يجبر من تؤجره على أن يتحلى بالصدق والأمانة والإخلاص .

ومع عظم تجارتها وكثرتها وزيادة دخلها وربحها ، نراها لم تنصرف بكليتها إلى التجارة والربح ، وكأن كل هذا كان شيئا عاديا ، فلم يستول على كل تفكيرها ، ويشغل داخليتها ، وكأنها تسلية تسلى بها نفسها ، أما عقلها الداخلى فما نرى إلا أنه كان يفكر فى أمر روحى خاص يهيئها الله له ، والدليل على ذلك أنها بمجرد أن رأت الإرهاص وعلامة النبوة تظهر على زوجها محمد بن عبد الله تركت كل هذا ، واخلصت لما كانت تعيش فيه من الايمان الشديد بالله .

* * *

« دعانى إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق
حديثك ، وعظيم أمانتك ، وكرم أخلاقك وأنا
أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك »

خديجة بنت خويلد

التجارة الرابحة

كانت حرفة أهل مكة فى الجاهلية التجارة ، فقد برعوا فى هذه الحرفة وأصبحت تجرى فى دمائهم ، وتغلب على كل معاملاتهم ، ولم تقتصر على التجارة فى الداخل ، بل تعدتها إلى الخارج ، وكان من أهم هذه التجارات ، متاجرتهم مع أهل اليمن وأهل الشام ، وكانت منتظمة ففى الشتاء كانت الرحلة إلى اليمن ، وفى الصيف كانت الرحلة إلى الشام ، ولقد جمعوا من الرحلتين ثروات طائلة ، فاقتنوا الرياش والذهب والفضة .

ولقد من الله سبحانه وتعالى عليهم ، وما أولاهم بها من نعم ، ووجههم إلى طريق الخير والفضل فقال تعالى : ﴿**لإيلاف قريش إيلافهم** رحلة الشتاء **والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾[1] .

وإذا كان الرجال قد تباروا فى التجارة وفتحوا لها أسواقا فى خارج حدود اليمن والشام ، فى بلاد فارس والعراق ، وضموا إلى رحلتيهم رحلات أخرى ، فقد شاركتهم النساء فى التجارة فكانت أسماء بنت مخربة سيدة بنى مخزوم عطارة ، يأتيها العطر من اليمن ، تزوجت أبا ربيعة المخزومى ، فأنجبت منه عبد الله وعياش وقد تزوجها هشام بن المغيرة من بعده فولدت له أبا جهل ، ولم يعد اشتغالهن بالتجارة عيبا .

وكانت المرأة أحيانا تتبارى مع الرجال فى التجارة ، ولكن لم نجد من سبقت فى هذه الحلبة ، وتبارت مع السيدة خديجة من النساء بل لقد سبقت الرجال ، وكانت فريدة عصرها فى هذا المضمار .

لقد اتجهت السيدة خديجة رضى الله عنها إلى التجارة بعد أن فقدت زوجها الثانى ، وكانت سلوتها فى الحياة ، وكانت مباركة فبارك الله لها فى مالها

(١) سورة قريش ١ — ٤ .

وتجارتها حتى كثر المال وذاع الصيت وصار التجار فى بلاد الشام وبلاد فارس والروم ينتظرون تجارة السيدة خديجة لما تمتاز به من جودة الصنف واختيار النوع ، وشمولها على المطلوب ، فزادت ونمت وكثرت حتى قيل : إن عيرها التى تحمل البضائع كانت تعادل عير قريش فى حجمها ونفاسة ما اشتملت عليه من بضائع .

كانت تدير تجارتها وهى فى برجها العاجى ، تصدر أوامرها إلى خدمها ومواليها فيوصلونها إلى من اختارتهم لتجارتها ، وإذا اقتضى الأمر مناقشتهم ، وكان لابد من ذلك — فهى السيدة التى يؤخذ برأيها الناضج ، وخبرتها الطويلة ، التى زادها قوة ذكاؤها النادر ، وما عرفته من أحوال الناس ، مما كانت تطلع عليه من أقرب الناس إليها وألصقهم بها من أمثال ابن أخيها حكيم بن حزام بن خويلد .

كانت مستقلة بتجارتها وأموالها ، ولم يكن لأحد من عائلتها سلطان عليها ، ولا على من تختارهم وكلهم من ذوى الأمانة فى حلهم وترحالهم ، فهى حرة فى تصرفاتها ، تمليها عليها نفس أبية كريمة ، وقلب كبير يتفتح للفقير والمحتاج والمسكين ، وآمال عريضة صافية تستمد صفاءها من روح طيبة ، استولت على تفكيرها ، ووجهتها لحياة تحركها إرادة خفية قوية حسبما رسمه لها القدر .(1) .

ومع ذيوع صيتها ، وتحدث الناس بسيرتها العطرة فى داخل الجزيرة وخارجها ، لم يحدث أن ذهبت بتجارتها إلى الأسواق فى الداخل أو الخارج ، وإنما كانت تؤجر أناسا يكونون وكلاء عنها فى التجارة على أجر معلوم ، تعطيهم إياه على مقدار ما يبذلون من جهد فى الرحلة يبيعون ويشترون باسمها ، ولا شأن لهم فى كسب التجارة إنما لهم أجر معلوم يأخذونه كسدت التجارة أو ربحت ، وأجرهم مقدر بالأمن أو العمل أو بهما معا .

أو تختار أناسا يتجرون فى المال بعقد بينها وبينهم على أن يكون الربح بينها وبينهم مقسوما بحصص شائعة كالربع أو الثمن أو السدس أو نحو ذلك ،

(1) خاتم النبيين ﷺ ح 1 ص 199

وملكيتها قائمة ، وإذا خسرت التجارة تكون الخسارة عليها وحدها ؛ لأن المال باق على ملكيتها ، ويسمى هذا العقد المضاربة أو القراض . ويقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله :

« ولا شك أن الطريقتين كانتا تحتاجان إلى أمانة كاملة ، فكانت ــ السيدة خديجة رضى الله عنها ــ تتحرى فى أولئك العاملين لها الأمانة ؛ لأنهم فى عملهم ينوبون عنها ــ لا تلقاهم إلا فى ذهابهم ومجيئهم ، وكانت مع ذلك ترسل من قبلها من يكون معهم كميسرة مولاها »(١) .

كانت رضى الله عنها تتمتع بشهرة عظيمة فى البلاد التى تصل إليها تجارتها وذلك فى الشام والعراق وفارس وبلاد الروم ، لعراقة بيتها فى الشرف من ناحية ، ولاستيلائها من ناحية أخرى على تجارة العطور والديباج والحرير فى الهند واليمن وبلاد فارس ، وكانت قوافلها التى تصل إلى الألاف من الجمال تنقل التجارة إلى أسواق هذه البلاد وغيرها ، فيقبل الأغنياء عليها ، بل لقد كان للسيدة خديجة عمال من الروم والغساسنة والفرس فى دمشق والحيرة وفى عاصمة كسرى(٢) .

كانت تجارة مباركة ، تعود على السيدة خديجة بالمال الوافر ، والخير الكثير ، وكان بيت ضيافتها مفتوح الأبواب للمعوز والمحتاج ، وللأقارب والأهل ، ومن يأوى إليها من الصديقات ، تطعم الجائع ، وتكسو الفقير ، وتنفق على من أناخ عليه الدهر ، يأنس إليها القريب ، فينال من خيرها ، ويسمع لحديثها فتنشرح نفسه ، ويسر خاطره .

وكثيرا ما كان يلم بقصرها الكثيرات من أبناء عمومتها ، ومن صديقاتها ، فيجالسنها وينلن من خيراتها ، ويصاحبنها فى الذهاب والعودة من الكعبة ، فيحطن بها ، وكأنها ملكة غير متوجة ، تستشار فى الملمات ، وينال من خيرها أصحاب الحاجات .

تذكر كتب التاريخ أن امرأة من سليم يقال لها « ماوية » وقع بينها وبين

---

(١) سيد قريش ح ص .
(٢) المرجع السابق ح ١ ص ١٩٩ .

زوجها خصام فقد كانت حاملا ، وكان كلما تصور زوجها أنها ستضع بنتا ، فقد أعصابه وهددها بقتلها وبوأد بنتها ، وهذا الخصام زاد وهما فى سوق عكاظ ، فراحت تبحث عمن يخلصها من هذا الزوج الجاحد .

علم الناس فى السوق بأمر الزوجةِ المسكينة ، وما حصل من زوجها وهم يعرفونه جيدا ، فهو « عدى بن أثامة » من سليم ، وله فى سوق عكاظ مغامرات سابقة ، لا يزالون يذكرونها له ، ويتحدثون عنها فقد أخاف الناس بسلاحه وحمقه وسذاجته ، ووقفوا ضده إلى أن عاد إلى رشده ، وأقسم ألا يعود ، إلا أنه فى هذه المرة كانت زوجته كبش الفداء لطيشه ، فعطفوا عليها وأشاروا عليها بأن تذهب إلى ورقة بن نوفل الذى يكن له العرب كل حب وتقدير لمكانته ، ومنزلته عند القرشيين ، واستجابتهم لما يأمر به ، وهو لا شك منصف لها ، ومخلصها مما هى فيه من هم وألم .

ولقد كان عند حسن ظن الجميع فقد عطف على المرأة ، فنقلت إلى خيام قريش ، وفى وسط نسائها وضعت طفلتها .

علم عدى بما جرى من زوجته ، وقد وضعت أنثاها فعاد إلى رشده وصوابه ، وذهب إلى ورقة معتذرا عما حصل منه ، ومتأسفا لما وصل إليه حاله ، فالفقر الذى يعيش فيه ، وضيق ذات اليد ، كانا هما السبب !! فقال له ورقة :

« انطلق أنت وامرأتك وابنتك إلى ابنة عمى خديجة بنتِ خويلد فى مكة ، فإنها امرأة خيرة رقيقة وهى فوق ذلك أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا ، وأكثرهن مالا ، فإذا لقيتها فقل لها :

إن ابن عمك ورقة أوفدنى إليك لأكون فى جملة الرجال الذين تبعثين بهم إلى الشام فى تجارتك »

وقد فعل عدى ، فاتجه إلى بيت خديجة ، ومعه أهله ، فلما دخل عليها وقص الخبر رحبت به وبزوجته ، وأكرمت وفادتهما ، وألحقت عديا بعمل يدر عليه ما يستطيع أن يعيش به هو وزوجته(١) .

---

(١) انظر سيد قريش ج ص .

كانت التجارة رابحة دائما ، وكان المال كثيرا ، والصيت يعم الآفاق ، وقد ملكت الدنيا ، ولكن كل هذا كان يمر على قلب خديجة الصافى ، والنفس الشفافة ، والضمير الحى ، مرور العابر ، فلم يؤثر فيها المال ، ولم يصنع بالقلب والنفس والأيدى إلا ما يرضى رب السماوات والأرض ، ولم يستول عليها بريقه ورنينه ، ولم يتحكم فيها كثرته وجماله .

لقد كان يشغلها أمر عظيم ، إنها لا تسجد للأصنام ، ولا تحب أن تراها وهى قائمة لا فائدة فيها ، ولطالما أشار عليها بعض المقربين من الأهل أن تضع فى قصرها تمثالا من التماثيل ، أو صنما من الأصنام التى يقدسها أهل مكة ، فكانت تقابل ذلك بابتسامة التهكم والسخرية ، فهى تعرف جيدا قيمة هذه الآلهة التى لا تضر ولا تنفع ، بل وكثيرا ما كانت تنهى ابن أخيها حكيم بن حزام عن تقربه إلى الأصنام ، وتطلب منه أن يكون إنفاقه وتصدقه وبذل المال الكثير الذى كان دائما يعطيه للفقراء والمحتاجين تقربا إلى رب السماء والأرض .

إنها تستريح وتطمئن نفسها ، وتهدأ داخليتها لسماع الكتب السماوية التى يتلوها عليها ابن عمها ، وتستطيع أن تبين رأيها بقلب ذكى وتفكير ناضج ، وإيمان ثابت ، فلطالما استولى عليها — وهى فى زحمة العمل والبيت — الشوق الشديد إلى ما تسمعه من ابن عمها وهو يحدث عن التوارة والإنجيل ، وما فيهما من مواعظ .

إنها لتنطلق بتفكيرها إلى عالم آخر ، وتترك لروحها العنان حينما يتحدث ابن عمها ورقة عن النبى الذى سيرسله الله لهداية الناس ، فينقذهم من العمى والضلال ، إنه سيملأ الأرض بحنانه وعطفه ، ورأفته ورحمته ، ولكن ذلك لن يحدث إلا بعد جهاد طويل ، وكفاح مرير ، وايذاء يصل بقومه أن يحاولوا قتله ، وأن يخرجوه من بلده ولكن الله ينجيه ، فيفر منهم ، ويكون الله معه دائما حتى يتم له النصر .

حينما كانت تسمع سيرة هذا الرجل الذى سيكون نبيا ، وسيتم على يديه هداية البشر ، وسيجتمع الناس عليه ، يسمعون له ، وينفذون أوامره ، ويجتنبون ما ينهى عنه تتمنى أن تراه ، وأن تكون أحد أتباعه ، فتقدم إليه كل

ما تملك فى سبيل نصرته .

ولعل ذهنها الصافى راح يصور هذا الرجل الكامل صورة ارتسم فيها كل ابداع الخالق .

فهو رجل جميل الخلق ، كامل الخلق ، يدعو إلى الخير والبر ، يحث على الكرم والوفاء .

كانت كلما فكرت فيه اتسعت دائرة التفكير ، حتى اصبحت ، وكأنها تتحسسه فى داخليتها ، فتهرع إلى ابن عمها ، ليشبعها من الحديث عن هذا الإنسان الملائكى ، وتتعجل أن تراه .

إن أمر المال والتجارة ليمر بحياتها مرا سريعا من غير أن يؤثر فى تفكيرها أدنى تفكير ، وكأن مدبرا يدبره ، وينظمه ويرتبه .

لقد ذهبت السيدة خديجة كعادتها إلى البيت الحرام ، وطافت مع جواريها وصديقاتها بالكعبة سعيا ، وجلست فى البيت ما شاءت ، وأطلقت لفكرها العنان ، ثم عادت إلى قصرها ، وذهبت إلى مضجعها وإذا بها ترى فى منامها أن شمسا عظيمة تهبط من سماء مكة ، لتستقر فى دارها ، وتملأ الدار نورا ، وأن هذا النور فاض من دارها حتى ملأ الدنيا .

لقد شعرت بالراحة والسعادة حينما استيقظت من نومها، وراحت تسائل نفسها ، ما الذى خطر على بالها ؟ إنها لم تصل بتفكيرها إلى هذه الصورة ، وما كان لها أن تتخيل مثل الشمس المشرقة ؟

لقد انشرح صدرها فأسرعت إلى حيث يجلس ابن عمها ورقة بن نوفل ، فقصت عليه القصة ، وما رأت فى منامها ، فتهلل وجه الشيخ بما سمع من ابنة عمه ، ثم قال :

أبشرى يا ابنة العم، لو صدق الله رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك ، لقد شغلت بالها تلك الرؤية التى ما خطرت على بالها فى اليقظة ، وكانت كلما تذكرتها أسرعت إلى الكعبة ، لتترك لتفكيرها العنان ، وتتخيل ما شاء لها ذهنها الصافى ، ونفسها الشفافة وقلبها الكبير ، ثم ترجع إلى البيت وقد امتلأت

روحها بالخير والمحبة ، والرضا والقرب من الله ، ثم تتطلع بنظرها إلى القصر وكأنها تستحثه أن يضيء بالنور العظيم الذى أخبرها ابن عمها أنه سيضيء فى جنباته ، وأن ترى النبوة قد سكنت فيه ، وخرجت منه هداية ونبراسا فى هذه الحياة .

ولقد تعودت نساء قريش إذا أتى العيد أن يجتمعن فى الحرم ، وأن يحتفلن به ، فيهنيء بعضهن البعض ، وكان من عادتهن قبل الذهاب إلى البيت العتيق أن يتجهن إلى بيت السيدة خديجة ليسلمن عليها وينلن من كرمها وخيرها ، ثم تخرج معهن وقد أحطن بها ، يستمعن إلى كلامها العذب ، ورأيها السديد ، ومداعبتها لهن فى احترام وعزة نفس ، وما إن وصلن إلى البيت الحرام وطفن معها سبعا ، ثم جلست يحيط بها القريبات من بنات عمومتها وصديقاتها يتحدثن حتى سمعن صوتا عاليا ينادى « يا معشر نساء قريش إنه يوشك أن يظهر نبى قريب وجوده فأيتكن استطاعت أن تكون له فراشا فلتفعل »

وثارت النسوة ، فرمينه بالحصباء ، والقين عليه سيلا من السباب والشتائم وأغلظن عليه القول . أما السيدة خديجة ، فقد شغلت عما حولها ، وما يجرى بين النسوة وبين الرجل الذى أثارهن ، وغمضت عينيها ، فقد مر على خاطرها الحلم الذى رأته فى منامها ، والشمس التى ستدخل بيتها ثم تنتشر فى العالم وتفسير ابن عمها ورقة لهذا الحلم ، وها هو الرجل اليهودى ليؤكد ما يدور بفكرها .

لقد رجعت إلى بيتها متباطئة مثقلة تدور برأسها أحلام جميلة غريبة تمد لها خيط الأمل فى تحقيق ما تصبو إليه من هذه الرؤية العظيمة ، ثم ترجع إلى واقع الحياة فتسلى نفسها بأولادها ومداعبتهم حتى إذا غلب النوم عليهم ، قامت لبعض أعمالها ، ولكن ما تزال تلك الأمانى والأحلام تسيطر على تفكيرها ، داعية الله عز وجل أن يحقق لها ما تحبه وترضاه .

كانت طرقات مكة تسعد بقدمى محمد بن عبد الله حينما يمر بها ، وتتمنى أن تراه يمشى عليها دائما ، وعين الله ترعاه ، فهو يكبر يوما بعد يوم ، فتتسع مداركه ، ويقوى فهمه ، ويكثر تفكيره وتأملاته ، وتجذبه يد قوية إلى وجهة يقترب منها شيئا فشيئا فيشعر بالقرب من عالم آخر ، ترتاح له نفسه فتصفو

وتسمو ، ويزداد رفعة ومكانة عالية .

إن حسن خلقه ، وصدق حديثه وابتعاده عن كل أمر لا يهمه ، قد زاد من احترامه وجعل أهل مكة ينزلونه منزلة خاصة فهو لا يدخل فى شئونهم ، ولا يتحدث إليهم إلا فيما يطلب منه وإن عمه أبا طالب ليحبه مثل أولاده ، إن لم يكن أكثر ، فما يزال فى ذاكرته ما بشر به الكهان والعرافة من أن ابنه هذا سيكون له شأن عظيم ، وأن رسالة من الله تنتظره ، وكان يسر وتستولى عليه السعادة حينما يرى ابن أخيه ، وقد خالف القوم وأعرض عن الأصنام ، بل وكرهها ومقتها فيراه صاحب رأى وفكر مستقل .

لقد كبر محمد وقارب الخامسة والعشرين ، وترك رعى الأغنام وأصبح يُرى فى السوق ، فقد تعلم التجارة ، فهو يذهب أحيانا ليتاجر ، ولكنه لا يريد مالا كثيرا بل يقنع بالقليل الذى يكفيه .

ولكن العم يريد لابن أخيه الغنى والثراء ، وأن يدخل جيبه المال الكثير ، فله من الذكاء والفهم بأساليب التجارة ما لو شاء لأصاب الربح الوافر ، فيكون له بجانب المستقبل العظيم الغنى والجاه .

ودخل محمد على عمه أبى طالب ، وسلم محمد ، وقابله عمه وعمته بالبشاشة والترحاب وجلس معهما يتحدثون ، ثم التفت إليه عمه وقال : يا محمد ، أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان ، وألحت علينا سنون مفكرة وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرها ، فيتجرون لها فى مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وصدقك فقال محمد : فلعلها ترسل إلىّ فى ذلك . فقال له عمه أبو طالب : إنى أخاف أن تولى غيرك ، فتطلب مدبرا(١) .

ويروى أن محمدا استأذن عمه أبا طالب ليتوجه إلى خديجة فأذن له ، وبعث بعده جارية يقال لها نبعة ، فربما كان قلقا يريد أن يعرف رد خديجة ،

---

(١) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٢١٤ .

ولقاءها لمحمد .

ورجعت نبعة تخبر سيدها أبا طالب بحسن لقاء خديجة لمحمد ، وترحيبها به . فهدأت نفس أبى طالب الذى كان قلقا على ابن أخيه ، ويريد أن يطمئن على لقاء خديجة له .

ويروى أيضا أن عاتكة بنت عبد المطلب ، أخت أبى طالب ، وعمة محمد وهى التى كانت حاضرة عند أخيها وسمعت ما دار بين أبى طالب وابن أخيها ، وبين أبى طالب وجاريته نبعة ، أرادت أن تعرف رأى خديجة فيما طلب محمد منها عن قرب ، فذهبت إليها وليس غريبا أن تذهب عاتكة فصلتها بخديجة قوية إذ هى أخت صفية زوج العوام بن خويلد أخى خديجة ، فاتجهت إلى بيت خديجة ، وأخبرتها بما دار بين محمد ابن أخيها وبين عمه أبى طالب ، وما إن انتهت عاتكة من حديثها حتى أبدت خديجة أسفها ، وتمنت لو عرفت ذلك منذ زمن ثم قالت : وما علمت ـــ من قبل ـــ أنه يريد هذا[1] .

بدأت أحوال محمد تأخذ لها مجرى عمليا فى حياة السيدة خديجة ، فربما كانت تراه أحيانا عند عمته صفية بنت عبد المطلب ، وكانت تستمع إلى سيرته العطرة التى يتحاكى بها الناس فى مجالسهم ، وربما أيضا أخذت هذه السيرة طريقا إلى قلب السيدة خديجة ، وإذا لم يكن من الأخبار الصريحة التى تؤيد ذلك فإن كل الدلائل تدل على أن السيدة كانت تعرف عنه من الشمائل والأخلاق والصفات ما يجعلها تفكر فيه ، بل وتتمنى أن يكون زوجا لها ، فالمجتمع المكى لم يكن من الكثرة حتى تختفى أخبار الناس ، بل كان محدودا ، والكل يعرف بعضهم بعضا ، وبخاصة أنهم ينتمون إلى أصل واحد فهم أصحاب قرابة ومودة .

وارسلت السيدة خديجة نفسها إلى محمد تدعوه عندها للاتفاق على ما سيقوم به من عمل ، وعلى الأجر الذى سيأخذه ، وبدأت حديثها قائلة : « إنى دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك »[2]

(١) المرجع السابق ح ٢ ص ٢١٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٥ .

يقول الشيخ ابو زهرة رحمه الله : « إننا نلمح من ثنايا السطور أنها راغبة فى أن تعهد إليه بتجارتها من ذات نفسها ، وأنها لرغبتها أعطته ضعف ما كانت تعطى غيره ولماذا ضاعفت الأجر ؟ »

الجواب عن ذلك : أنه وقع فى نفسها أن التجارة ستكون رابحة بفضل الأمانة ، ولتشجعه على الحرص ، وربما تكون رغبة خفية جعلتها تعامله بما لم تعامل به غيره ، وأخفت ما لا تبديه مما جرى بعد ذلك(١) .

وما إن خرج الأمين من بيت خديجة ، حتى اتجه إلى عمه ليخبره بما جرى بينه وبين السيدة خديجة ، فسر عمه بما وصل إليه وشجعه قائلا : « إن هذارزق ساقه الله تعالى إليك »(٢)

وتهيأ الأمين محمد للأمر الجديد ، إنه سيتاجر لخديجة فى مالها ، لقد اتفقا على أن يسافر لها سفرتين بقلوصين ، وبدأ السفرة الأولى ، وكانت إلى سوق حباشة ، واستعد العمال لحمل السلع التى ستوضع على ظهر الإبل ، وحسبت خديجة أن محمدا سيجلس فى مكان يتخذه لنفسه ، ويترك العمال يقومون وحدهم بالعمل والترتيب حتى ينتهوا منه .

ولكن محمدا شارك العمال فأشرف على السلع ، ووضع كل سلعة فى مكانها ونظم الأحمال ، وهو يساعد هذا ، ويشجع ذاك ، ويعطف حتى على الإبل ، فيربت عليها فى حنان وشفقة .

حقيقة إنه نمط عجيب من الرجال ، نشيط فى عمله ، قوى يحمل ما تعجز الرجال عن حمله ، يشارك فى كل عمل صغر أم كبر .

لقد رأته خديجة عن قرب ، وامتلأ قلبها سرورا وغبطة ، فهو قريب منها ، بل وأصبح واحدا من رجالاتها ، وهو من هو حسبا ونسبا وخلقا !! فما عادت داخليتها تساعدها على الانطلاق لتصور صورة النبى الذى تحدثت عنه الكتب ومحمد أمامها فمضت تسائل نفسها : لماذا لا يكون محمد هو النبى المنتظر ؟ فهل يوجد له مثيل فى عاداته وأخلاقه ؟ إنه لا يشارك الشباب فى

---

(١) خاتم النبيين ﷺ ج ١ ص ٢٠١ .

(٢) سبيل الهدى والرشاد ج ٢، ص ٢١٥ .

لهوهم ولعبهم ، ولا يتردد على مجالس القوم ، ولا يتقرب إلى كبرائهم ، ولا يسجد للأصنام ، ولا يعظم ما يعظمون من الأوثان . لكن متى ؟ وأين ؟

وقطع عليها التفكير أصوات القافلة التى تستعد للرحيل ، وظلت خديجة تتابع النظر إليها حتى غابت عنها ، فقد اتجهت إلى تهامة ، لتصل إلى سوق حباشة ، وهى سوق من أسواق العرب فى الجاهلية ، ومدته ثمانية أيام فى السنة ويقام بتهامة[1] .

باع محمد ما كان معه ، واشترى ما وجد فى السوق ، مما يروج بيعه وشراؤه ، حتى إذا انقضت أيام السوق الثمانية ، رجع محمد ومعه ميسرة إلى مكة ، وقد امتلأت نفس ميسرة بالحب والإعجاب مما رآه من خلق محمد وصدقه والخير الذى جاء على يديه ، فأسرع إلى سيدته ، ليخبرها بما رأى وسمع ، وليصف لها هذا الرجل العظيم .

يروى ابن زبالة[2] فى كتابه (المنتخب من كتاب أزواج النبى صلى الله عليه وسلم) فيقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استوى وبلغ أشده وليس له كثير من المال ، استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حباشة واستأجرت معه رجلا من قريش . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت صاحبة خيرا من خديجة ، ما كنا نرجع وصاحبى إلا وعندها تحفة من طعام تخبئه لنا .[3] .

قال الليث فى حديثه : استأجرته بسقب[4] يدفعه إليه غلامها ميسرة ، فرأى ميسرة إذ رجع من سفره من يمنه وخلقه والبركة فى سفره والزيادة فى الربح ما اشتد به حبه إياه ، فقدم وهو يهتف به[5] . فسبق إلى خديجة فأخبرها

---

(١) معحم ما استعجم للبكرى ج ٢ ص ٤١٨ .

(٢) هو محمد بن الحسن القرشى المخزومى المدنى المعروف بابن ربالة ، عده ابن حجر من كبار الطبقة العاشرة توفى عام ٩٩ هـ وكتابه المنتحب من أزواج النبى تحقيق د . اكرم العمرى مطبعة الجامعة الإسلامية .

(٣) المنتخب من أزواح النبى لابن زبالة ص ٢٤ .

(٤) السقب ولد الناقة الدكر حين يولد .

(٥) يهتف به : أى يلهج بذكره .

ما أصاب من الظفر والربح ، وما رأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت : فأرنيه .

فلما أقبلت العير ، أشار لها إليه ، وإذابسحابة تظله ، وتسير معه ، فأمرت له بسقب آخر ، وعلقه قلبها لما أراد الله بها من السعادة(٣) .

لم يكن الذهاب إلى سوق حباشة إلا عنوانا على مقدرته الفائقة على العمل والتجارة ، وعلى ذكائه ، ثم على زيادة الاطلاع على مواهب رجل لم تسمع بمثله من قبل .

لقد كلفته بالاستعداد لرحلة جديدة ، وما أظنها اتفقت معه على الأجر ، اكتفاء بالاتفاق الأول ، أو لأنها ستعطيه ما لم تعط أحدا من قبل ما دام الربح كثيرا ، والثقة عظيمة .

كانت هذه الرحلة إلى الشام خارج الجزيرة ، وهذه الرحلة يعد لها تجار مكة إعدادا كبيرا فيحملون معهم كل ما يدر عليهم الربح الكثير ، والمال الوافر ، وهم يعرفون ما تحتاج إليه تلك البلاد .

وكان عندما تستعد القافلة للسفر ، ويحين موعد سيرها ، يقبل شيوخ مكة وسراتها ، لتوديعها كعادتهم من قبل ، ولقد أقبل أعمام محمد بن عبد الله وعلى رأسهم عمه الكبير أبو طالب لتشجيعه ، وتوصيته بما يجب عليه عمله فى أثناء السفر ، وما يجب اتخاذه عند البيع والشراء ؛ ثم راحوا يوصون به الأهل والأصدقاء ، ممن لهم تجارب سابقة فى مثل هذه الأسفار .

كان محمد بادى البشر ، عليه سمات الجد ، ينظم الأمتعة ويضعها مرتبة ، ويطمئن على كل محتوياتها .

ثم سارت الرحلة ، وكان مع محمد مولى خديجة وخادمها ميسرة وقد أمرته سيدته ألا يعصى أمرا لمحمد ، وأن يعاونه فى كل أموره ويساعده ، ولا يخالف له رأيا .

ووصلت القافلة بصرى جنوب الشام ، وبدأ التجار فى عرض ما معهم

(١) منتخب ارواج النبى لابن زبالة ص ٢٤ .

من البضائع ، ولكن محمداً مر فى السوق ليعرف أحوال البيع والشراء ثم بدأ فى عرض مامعه .

ويقال : إن الناس كانوا يسألون عن تجارة خديجة ، لما تمتاز به من حسن الصنف وجودته ، وبدأت تظهر مواهب محمد ، ومقدرته على البيع وعلى لقاء الناس ، فقد اختلف رجل من أهل الشام عليه سمات الوقار ، أو تعمد أن يختلف معه ، فقال له « احلف باللات والعزى » فرد عليه محمد قائلا : « ما حلفت بهما قط وإنى لأمر فأعرض عنهما » فقال الرجل : القول قولك .

وحدث فى هذه الرحلة أن نزل محمد يوما يستظل تحت شجرة بالقرب من صومعة راهب يدعى « نسطورا » فلما رآه الراهب سأل ميسرة عنه ، فأخبره أنه من أشراف قريش . توسم الراهب الخير فى محمد ، واطلع على ما فيه من علامات النبوة التى ذكرت فى الكتب السماوية ، ثم قال : « إن هذا الرجل نبى من الأنبياء » .

باع محمد كل ما معه ، واشترى ما طلب منه شراؤه ، وما يعتقد أن الإقبال عليه يكثر فى أسواق مكة ، واستعد للرجوع وفى شدة الحر ، وقت الظهيرة كان الغمام يتجمع ثم يظلل محمدا وهو راكب على بعيره ، حتى هيىء للناس أن ملكين كانا يظلانه لأن ذلك لم يكن يحدث لأحد من قبل .

ولما وصلت القافلة إلى وادى مر الظهران بالقرب من مكة ، قال له ميسرة : يا محمد انطلق إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فتقدم كما تقدم غيره من شباب قريش العائدين مع القافلة ، وسارت القافلة حتى أناخت خارج مكة ، وخرج رجال قريش كعادتهم لاستقبالها ، واعتلت نساء قريش أسطح المنازل حتى ترى كل منهن ذوى قرابتها العائدين من الشام عند دخولهم المدينة .

دخل محمد ساعة الظهيرة ، وكانت خديجة تطل مثل غيرها من النساء من غرفة عالية فى بيتها بالبطحاء فرأت محمدا وهو على ظهر قعود أحمر ، ورأت ما يظلله ، فزاد من إعجابها ، وعظمت منزلته فى قلبها ، ولم يعد إليها محمد إلا بعد أن ذهب إلى الكعبة فطاف بها سبعا ، ثم دعا ما شاء الله له الدعاء ، وحمد

الله على الرحلة المباركة ، ثم ذهب إلى بيت خديجة ، ليخبرها بشأن التجارة ، وما أولاه الله من توفيق عظيم ، يتمثل فيما أعطاه الله من الربح والبركة .

كانت خديجة فرحة بكل ما يقص عليها ، وقد امتلأ قلبها سرورا وانشراحا ، فأجزلت لمحمد العطاء وكافأته ضعف ما كانت قد عرضت عليه من أجر .

ودخل على السيدة خديجة خادمها ميسرة وأخذ يروى عليها أنباء هذه الرحلة المباركة ، وما جرى فيها من أحداث لم يشهد لها مثيلا من قبل ، وعما قاله راهب بصرى ، وما وصف به محمدا ، وعن الغمامة التى كانت تظلله ، ثم عن معاملته وأخلاقه وصفاته .

أصغت السيدة خديجة إلى كل ما قاله ميسرة ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لتخبره بما سمعت من ميسرة ، كانت تحدثه وقد غمره السرور والإعجاب ، ثم أخبر خديجة بما قرأ فى الكتب القديمة المنزلة أن الله سيبعث إلى الناس رسولا هو خاتم الأنبياء والمرسلين وأن هذا الرسول من ولد إسماعيل ، وسيولد بجوار البيت ، وأن أوان ظهوره قد حان .

ثم كف عن الكلام قليلا ، وبعد تفكير عميق قال : لئن كان هذا حقا يا خديجة فإن محمدا لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه أو كما قال : جعل ورقة يستبطىء الأمر ، ويقول حتى متى ؟ وقال فى ذلك .

لَجِجْتُ وكنت فى الذِّكر لجُوجا	لِهَمّ طالما بعث النشيجا [1]
ووصفٍ من خديجةَ بعْد وَصْفٍ	فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكّتَيْن على رجائى	حديثك أن أرى منه خروجا [2]
بما خبرتنا من قول قَسٍّ	من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمدا سيسود يوما	ويخصم من يكون له حجيجا

(١) النشيج : البكاء مع الصوت .

(٢) المكتين : المقصود أعلاها وأسفلها .

ويظهر فى البلاد ضياء نور يقيم به البرية أن تموجا[1]
فيلقى من يحاربه خسارا ويلقى من يسالمه فلوجا[2]
فياليتى إذا ما كان ذاكم شهدت وكنت أولهم ولوجا

سواء أكان هذا شعر ورقة أم من غيره فإنه يحكى حالا شغل به أولئك الذين يأملون فى المستقبل ظهور نبى ، وكلما ظهرت علامة وسمعوا بها شغلتهم فأطلقوا لأنفسهم العنان ، ليتحدثوا عن هذا النبى المنتظر ، وما أشك فى أن كل هذا من الإرهاص بقرب إرسال الله سبحانه وتعالى النبى ، لينقذ الناس مما هم فيه من الضلال والفساد .

لقد شغلت خديجة بما سمعت عن محمد ، وتمنت أن تدوم صلتها به ، وأن ترقبه عن كثب ، فموسم التجارة ليس كافيا لتوثيق هذه الصلة ، إنها تريد صلة أقوى لتشترك معه وتساعده على المهام الجسام التى ستصادفه ، ففكرت فى رباط أقوى ، وحياة أعم وأشمل ، إن كل هذا لا يكون إلا بأن يصبح محمد معها دائما ، ولن يكون إلا بالزواج ، فهل سيقف معها القدر حتى يحقق ما تصبو إليه .

هذا ما سوف يكشف عنه المستقبل القريب .

* * *

---

(١) تموج : تضطرب .
(٢) الفلوج : الظهور والانتصار على الخصم والعدو .

« يا ابن عم ، إنى رغبت فيك لقرابتك ،
ووسطتك فى قومك ، وأمانتك ، وحسن
خلقك ، وصدق حديثك »

خديجة بنت خويلد

الخطبة والزّواج

تعود محمد منذ صغره على العمل ، وعلى كسب رزقه من كده فرعى الغنم وهو صغير ، وتاجر عندما شب عن الطوق ، إلا أنه لم يكن من ذوى الأموال الموفورة ، والسبب ظاهر ؛ فما خلق محمد للثراء والغنى ، وللرفاهية والعز ، فالمال قد يعوق الإنسان عن السمو الروحى ، والانطلاق نحو عالم الروح ، وهو إنما خلق لمهمة عظيمة ، قد يكون المال الكثير من معوقاتها ؛ لذلك ما كان محمد بالذى يجرى وراء الثراء .

وربما كان ذلك مما لا يرضى عنه أبو طالب كل الرضى ، وهو الذى يعيش فى شظف من العيش وضيق ذات اليد ، فى أيامه الأخيرة ، حينما تقدمت به السن ، وقل نشاطه ، ولم يعد فى استطاعته التنقل والسفر .

كان يرى أن ابن أخيه الذى حاز كل صفات الكمال ، يجب أن يكون تاجرا كبيرا ، يملأ عليه الدنيا مالا ومتاعا ، ولكن محمداً يسير بخطا متئدة ، لأنه يخضع لتكوين داخلى ، وعالم يعيش فيه ، وسيأتى يوم ، وقد اكتمل نموه الروحى ، ليصبح خليقا بالاتصال بملكوت غير ملكوتنا وحياة غير حياتنا .

ولكن هل يعلم أبو طالب بالحقيقة التى يؤهل لها محمد ؟! .

لقد كان لأبى طالب ابنة تسمى « فاختة » وكانت أقل من محمد فى العمر ، وفى يوم فاتح محمد عمه أن يزوجه ابنته هذه ، ولكن العم صمت ، ولم يتكلم ، ربما أراد لها الغنى والثراء ، فقد يختار لها رجلا يعبر بها الفقر والأزمات ، وسكت محمد منتظرا أن يأتى اليوم الذى يجيبه إلى طلبه .

وفجأة وافق أبو طالب على زواج « فاخته » من هبيرة بن أبى وهب بن عمر ، فذهب محمد إلى أبى طالب وقال له : يا عم زوجت هبيرة ، وتركتنى ؟ ولكن العم اعتذر إليه قائلا :

يا ابن أخى إنا قد صاهرنا إليهم والكريم يكافىء الكريم[1] وسكت محمد وانشغل بحياته العادية .

لم يشغل الزواج بال محمد كثيرا ، لأن التكوين الروحى قوى إرادته ، فكان له عزيمة تمنعه من أن يسترسل فيما يشغله عن المهمة التى يعده الله لها ، فليس للهوى عليه سلطان ، ولا تتحكم فيه عاطفة ، وهو الذى يتحكم فى عاطفته ، ليوجهها إلى طريق الخير ، فلم يملأ عينيه من امرأة غريبة عنه ، ولم تجذبه امرأة مهما كان فيها من جمال ، ولم تستول على نفسه غاية تتعلق بالبدن .

وما نشك فى أنه لو وافق عمه على زواجه من ابنته لضاعف العمل ؛ فهو لا يحب أن يكون عالة على غيره ، ولكنها عناية الله التى لم تفارق محمدا فى شبابه طرفة عين .

لقد كان عتابه لعمه عتابا مؤقتا ، انتهى أثره بمجرد أن خرج من فمه ، فلم يكن له فى قلبه مكان ، ولم يؤثر فى علاقته معه ، فقد مضى محمد فى حياته عاديا ، يُكن لعمه المكانة الكبيرة والحب الأبوى الجليل .

مضى محمد مع شبابه ورجولته ، وعين الله ترعاه ، عف النظر حافظا لسانه من العثرات ، لا يتكلم فى أمر إلا حيث يطلب منه الكلام ، وإذا تكلم كان من الجدية بحيث لا يترك لإنسان مجالا لما تحدثه نفسه به من أهواء وأغراض ؛ لذلك فقد كان أمر الزواج من محمد يمر على النساء ، وكأنه أمل بعيد مستعصى لأن المرأة غالبا لا تعرض نفسها على رجل إلا إذا وجدت منه رغبة ، أو رأت فى عينيه ما يدفعها إلى المغامرة بالعَرْضِ ، ومحمد بعيد عما يدعو لمثل هذه الأهواء والعروض .

وعمل محمد لخديجة ، ورأت من أخلاقه وجديته وعمله ما أثلج صدرها ، وملأ عليها تفكيرها ، وجعلها تعيش مع أمل تمنت لو تحقق ؛ إنها تناقشه أحيانا فى العمل ، وترى الأدب الجم فى نظراته وكلامه وتعبيراته ، فلم يترك لها مجالا لتعرض نفسها عليه لتتزوج به ، وليس فى العرض عليه غرابة فعرض المرأة على رجل ليتزوجها أمر ليس بمستنكر ، ولكنه الخوف من الصدمة

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ح ٨ ص ١٥١ ، والسمط الثمين لمحب الدين الطبرى ص ١٥٨ .

التى قد لا تتحملها إن كان الجواب بالرفض ، فالحياة مع الأمل غالبا أخف على النفس من الحقيقة المرة ، والصبر حتى تنجلى الأمور أهون من التسرع فى أمر ليس له بينة ووضوح .

ويحلل بعض من تعرضوا لهذا الموقف بأنها خافت من أن يصيبها ما أصاب ابنة عمها رقية بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل حينما فاجأت عبد الله بن عبد المطلب والد محمد قبل أن يتزوج من السيدة آمنة بعرض نفسها عليه ليتزوجها ، فاحمر وجه عبد الله حياء ، واعتذر عن تلبية الرغبة فما يزال هذا الموقف مؤثرا فى نفس وحياة ابنة عمها .

لقد تحكمت السيدة خديجة فى نفسها ، ووقفت صامدة لترد كل من يتقدم إليها ، يريد الزواج منها من سادة قريش وأغنيائها ومترفيها ، وأوصدت الباب فى وجوههم ، ولم تدع مجالا للمناقشة أو المزايدة ، وكانت عملاقة فى ردها ورأيها ، واقتنع الجميع بما قالت ، وزاد احترامها وإكبارها فى نظر أبناء عمومتها .

ولكن ما بالها اليوم يستولى على قلبها محمد ، لا شك فى أنه صنف آخر غير هؤلاء الخلق جميعا فى خُلُقِه وخَلْقِه ، وكانت على حق فيما فكرت وقدرت ، فمحمد جدير بكل وصف ، حقيق بكل إجلال وتقدير وأن الصورة التى اختزنتها السيدة الطاهرة التى ردت جميع الرجال — فى قلبها لا نشك فى أنها كانت من أجمل الصور وأزهاها ، ولو أردنا أن نصورها فلن نرى بدًا من أن نستعين بأولئك الوصافين الذين أسعدهم الحظ فرأوا خير خلق الله كلهم ، لنجلو الصورة التى جذبت قلب السيدة خديجة التى تمنعت على السادة والكبراء . لقد قالوا حينما تعرضوا لوصف محمد بن عبدالله :

« إن اعتدال الجسم ، وتناسب أجزائه ، يدل — فى الجملة — على استقامة العقول والنفوس ، وإن المزاج النفسى يصحبه غالبا مزاج جسمى كامل يتناسق فى تركيبه الظاهر والداخل ، فالعناصر المؤثرة كلها متناسقة منسجمة انسجاما لا شذوذ فيه ، ويكون معه انسجام نفسى كامل ، وعقل

كامل وخلق كامل »[1] .

والرسول صلى الله عليه وسلم كان معتدل الجسم ، متناسب الأجزاء ، مستقيم العقل والنفس ، متناسقا فى ظاهره وباطنه ، منسجم النفس والعقل والخلق ، والذين رأوا الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا فيه الكثير ممن انبهروا بالجمال المصحوب بالاشراق الروحى .

قابل أعرابى محمداً بعد أن أرسله الله سبحانه وتعالى ، فراعه منظره وإشراق وجهه وتلألؤ النور فى جبينه . فسأله : من أنت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : محمد بن عبد الله فقال الرجل فى إيمان مدرك :

أأنت الذى تقول عنه قريش إنه كذاب ؟!!

قال الرسول الكريم :

نعم !

فقال الرجل :

ليس هذا بوجه كذاب ! ما الذى تدعو إليه ؟

فذكر النبى صلى الله عليه وسلم حقيقة الإسلام فأعلن الأعرابى إيمانه .

ووصف هِنْد ابن السيدة خديجة رضى الله عنهما ، وكان وصافا ، وقد عاش مع والده — كما كان يدعوه دائما — وعرفه حق المعرفة .

قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فِخْماً مُفخَّماً ، يتلألأ وجهُهُ تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المَرْبُوع[2] ، وأقصر من المُشَذَّبِ[3] ، عظيم الهامة ، رَجْلَ الشَّعْرِ[4] ، إن انفرقت عقيقته[5] فَرَق ، وألا يُجَاوز شعرُه

---

(١) خاتم النبيين ح ١ ص ٣٣٦ للشيخ محمد أبو زهرة رحمة الله .

(٢) المربوع والربعة : الرجل بين الطول والقصر (لا بالطويل ولا بالقصير) .

(٣) المشذب : البائن الطول فى نحافة .

(٤) الشعر الرجل (بكسر الجيم وسكونها تخفيفا) الذى كأنه مشط فتكسر قليلا ، ليس بسيطا ولا جعداً .

(٥) العقيقة : هى شعر الرأس ، والمراد إن انفرقت من ذات نفسها فرقها ، وإلا تركها معقوصة .

شَحْمَة أذنه ، إذا هو وفّره ، أزهر اللون(٥) ، واسع الجبين ، أَزَجّ الحواجب ،سَوابغ فى غير قَرَنٍ(٢)بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين(٣) ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، سهل الخدين ، ضَلِيع(٤) الفم أَشْنَب ، مُفَلّج الأسنان(٥) ، دقيق المَسْرُبَةِ (٦) كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة ، معتدل الخَلْق ، بادنا متماسِكا ، سَوَاءَ البطن والصدر (٧) ، فسيح الصدر بعيد ما بين المنكبين ضخم الكراديس (٨) أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط ، عارى الثديين والبطن مما سوى ذلك أشعر الذراعين والمنكبين ، وأعالى الصدر طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين (٩) والقدمين ، سائل الأطراف(١٠) ، شَيْطَ العَصَبِ ، خمصان الأخمصين(١١)فَسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء .

إذا زال زال تَعَلُقا ، ويخطُو تكفُّوءًا ، ويمشى هَوْنًا(١٢) ، ذريع المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب(١٣)وإذا التفت التفت جميعا(١٤)، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ،

---

(١) الأزهر : البير .

(٢) الحاجب الأرح · أى المقوس الطويل الوافر التعر . والقرن : اتصال تعر الحاحبين وصده البلح .

(٣) الأقنى · السائل الأنف المرتفع الوسط .

(٤) ضليع الفم · واسع الفم .

(٥) الفلح : فرق بين التنايا . والتنب : رونق الأسنان وماؤها وقيل : زقها .

(٦) المسربة . حط التعر الدى بين الصدر والسرة

(٧) أى مستويهما ، فليس له بطن مرتفع ضحم

(٨) الكراديس : رءوس العظام .

(٩) شتن الكفين والقدمين : أى أنهما دوات لحم فليس معروقين ، والزندان عظما الدراعين ، ورحب الراحة أى واسعها .

(١٠) سائل الأطراف : أى طويل الأصابع .

(١١) أى متجافى أخمص القدم ، والأخمص : هو الموصع الدى لا تناله من وسط القدم وفسيح القدمين · أى أملسهما

(١٢) الهون . الرفق ، والتكفؤ : الميل إلى ستن الممتى وقصده ، والتقليع : رفع الرجل نقوه وهده صفات أقوى الناس فى متيته ، وهى تكون من تماسك الحسم وورنه وشدته .

(١٣) من صبب : أى من علو ، والدريع : الواسع الخطو .

(١٤)أى لا يلوى بعض جسمه حين يلتفت ، بل ينفتل بجميع جسمه ، وهى حالة تكون من بلوغ القوة منتهاها .

يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام[1] .

هذا وصف ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن زوجته السيدة الطاهرة ، وقد عاشر الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يرسله الله سبحانه و تعالى ، ورأى من خلقه ومعاملته ومعاشرته ما جعله يكن له كل حب واحترام وتقدير ، فهو منه بمنزلة الوالد ، بل أكثر من الوالد ، حتى طبعت صورته صلى الله عليه وسلم فى وجدانه وقلبه وعينه .

فحينما يتكلم عنه ، فإن صورته ماثلة أمامه ، وهى من أجمل ما رأى آدمى .

إن وصف جمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس فيه شيء من الابتداع ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف بعض النبيين فى حديث المعراج .

روى سعيد بن المسيب أن رسول الله وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى فقال :

« أما إبراهيم فلم أر رجلا قط أشبه بصاحبكم ، ولا صاحبكم أشبه به منه وأما موسى فرجل آدمُ طويلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ اقنى ، كأنه من رجال شنوءة وأما عيسى بن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل ، سَبْط الشعر كثير خيلان الوجه ، كأنه خرج من ديماس ، تخال رأسه يقطر ماءً ، وليس به ماء ، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفى[2]

وروى الدارقطنى من حديث أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما بعث الله تعالى نبيا إلا حسن الوجه ، حسن الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم وجها ، وأحسنهم صوتا ، صلى الله عليه وسلم .

---

(١) شمائل الرسول لابن كثير ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ح ١ ص ٤٠٠

الصرب من الرجال : الحفيف اللحم ــ الحعد المتكسر الشعر ــ الأقنى . المرتفع قصبة الأنف ــ شنوءة قبيلة من الأزد ــ الخيلان : جمع خال وهو الشابة السوداء ــ الديماس : الحمام .

ولقد وصفت امرأة الرسول صلى الله عليه وسلم هى أم معبد ، وقد مر بها فى أثناء هجرته من مكة إلى المدينة ، ولم تغيره وعثاء الطريق ، ولا ما هو فيه من مطاردة واختفاء ، حينما سألها زوجها عن تغير أحوال معيشتها فى ساعة من نهار .

مَرَّ بنا رجلٌ مبارك ، كان من حديثه كيت وكيت ، فقال :

صفيه لى ، فوالله إنى لأراه صاحب قريش الذى تطلب »

فقالت أم معبد :

رأيت رجلا ظاهر الوضَاءة[1]حَسن الخلق ، مليح الوجه ، لم تَعِبْه ثُجْله[2] ، ولم تَزْر به صُعْلَة[3] ، قسيم وسيم[4] ، فى عينيه دَعَج[5] ، وفى أشفاره وَطَف[6] وفى لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار[7] ، وإذا تكلم سما[8]وعلاه البهاء حلو المنطق ، فصل[9] لا نزر ولا هذر[10] كأن منطقة خرزات نظم ينحدرن ، أَبْهىَ الناس وأجملْهم من بعيد ، واحلاهم وأحسنهم من قريب ، زبعة لا تَشْنَؤه عَين من طول ، ولا تقتحمه عين من قِصَر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، وإن قال استمعوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ، مَحْضُود مَحْشود لا عابس ولا مُفْنِد[11] .

هذا قليل من كثير مما وصف به الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة وبعدها ، ومن أذكى وأنبل من السيدة خديجة لتتأثر بهذا الجمال الذى

---

(١) طاهر الجمال .
(٢) كبر البطن .
(٣) صغر الرأس .
(٤) حسن الخلق .
(٥) شدة سواد الحدقة .
(٦) طول أشفار العينين .
(٧) الهيبة .
(٨) علا على الناس .
(٩) يفصل الكلام .
(١٠) لا قليل ولا كثير .
(١١) شمائل الرسول ص ٤٦ ومعنى . يُفَنِّد أحدا أى يهجنه ويستقل عقله .

أحيط بجمال الخلق ، ورقة القلب ، والحياء وحسن اللقاء والحديث .

ولم تتحمل داخلية خديجة أن تحتبس ما تضمره نفسها ، ويخفيه قلبها من الإعجاب والحب الصافى النقى ، فظهر فى حديثها وثنائها ، وبدا ملامح ذلك على وجه الطاهرة الشريفة .

ولقد شعر بذلك الخاصة من المقربات إلى السيدة الطاهرة ، واللاتى يداومن على مجالستها ومخاطبتها ، وقد أكنن لها الحب ، والمنزلة العظيمة ، وكأنهن قد تبارين فى توصيل الرغبة إلى محمد .

روى ابن شهاب فى حديثه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما قدمت من سوق حباشة قلت لصاحبى : انطلق بنا نتحدث عند خديجة ، فبينا نحن نتحدث عندها ، إذ دخلت علينا منتشية ـــ جارية ـــ من مولدات قريش .

فقالت : أمحمد هذا ؟ والذى يحلف به إن جاء لخاطبا فقلت كلا .

فلما خرجت أنا وصاحبى قال : أمن خطبة خديجة تستحى ؟
فوالله ما من قرشية إلا تراك لها كفؤًا ، فرجعت إليها مرة أخرى أنا وصاحبى فجاءت تلك الوليدة ، فقالت مثل قولها الأول . فقلت : أجل على استحياء(١) وكذلك فقد .

عز على هالة أخت خديجة أن ترى أختها اتجهت نفسها إلى الرغبة فى الزواج دون أن تسرع فتشترك فى تحقيق أمنيتها ، فلتبحث عن محمد ، ولتوصل إليه رغبة أختها ، وفى اعتقادها أن محمدا بمجرد أن تصل إليه رغبة خديجة التى تعالت وتمنعت عن علية القوم فى الزواج ، أن يسرع إلى خديجة ـــ على الأقل ـــ ليستوثق الخبر من مصدره ، وهناك يكون إتمام ما أرادت خديجة .

ومر محمد مرة مع صديقه عمار بن ياسر والأمل ما يزال يشغل هالة فأسرعت خلفهما ، ولكن هيبة محمد منعتها أن تحدثه ، أو تناديه ، وتلجلجت ولم تملك إلا أن تنادى عمارا ، فأقبل عليها ، بينما سار محمد المؤدب بضع

---

(١) منتحب من كتاب ازواج النبى لابن زبالة ص ٢٥ .

خطوات ينتظر صاحبه ، ولم يدر ظهره حتى جاءه عمار ، وبدأت المسيرة ، ولم يسأل محمد ــ كعادته ــ عن السبب الذى نودى من أجله ، وعما تريد هذه المرأة سواء عرفها من صوتها أو لم يعرفها ، وأراد محمد أن يتم ما كانا يتحدثان فيه ، ولكن عماراً قطع الحديث ليقول لصديقه إن هذه هالة أخت خديجة ، إنها تطلب منى أن أسألك :

أما لك من حاجة فى التزوج من خديجة ؟

وعاد عمار ليقول لهالة :

إن محمداً يقول :

بلى لعمرى !!

سؤال من أخت تحب أختها ، وإجابة من محمد لم تتعد الأخت والطريق . وسار الصديقان ليتما مشوارهما ، وعلمت خديجة بما كان من أختها ، ولعلها لامتها على الطريقة التى عرضت بها الزواج على سيد الرجال .

أفى الطريق ؟ ومحادثة غير صاحب الأمر ؟ وتوصيل الأمر إليه بطريقة غير مرضية ؟ وهل مثل محمد يخاطب بهذا الأسلوب ؟

وكأن هالة قطعت على أختها اللوم ، لتؤكد لها أن محمدا سيأتى ، ولا بد أن يأتى ، فمن الذى لا يرغب فى خديجة ؟ ومن الذى لا يسرع للتلبية ، ولو بالإشارة ، فما عاد أحد فى مكة إلا ويعلم بتهافت السادة والأشراف على التقرب إلى خديجة .

ومضى الوقت والليل ، ولم يأت محمد ليجيب أو ليستطلع الخبر ، فلقد كان قريبا من خديجة ، ولو أرادت لأخبرته بنفسها ، أو ترسل إليه رسولا ، وربما تكلمت هالة من غير أن يوكل إليها الأمر ، إذ لو وكل إليها لكلمته بنفسها .

وانتهى الموضوع ، ولم يأخذ شكلا إيجابيا يشغل خاطره ، وكأن الأمر قد تنوسى ، ومضى محمد فى حياته العادية .

أما خديجة فما نظن لومها لأختها قد انتهى ، فهو يتجدد ، وربما أخذ شكلا أعنف كلما طال الوقت ، ولم يحضر محمد ، ولم يقطع هذا اللوم العنيف

إلا تدخل أقرب الناس إلى خديجة ، وصاحبتها المغمورة ، إنها نفيسة بنت منبه ، فلقد أخذت على عاتقها استجلاء الأمور وسوف تأتيها بالخبر اليقين .

وسكتت السيدة خديجة ، وكأنها راضية عما سوف تفعله نفيسة ، واستعدت نفيسة لمقابلة محمد ، وكانت حكيمة فيما أقدمت عليه .

كان الأمين يسير فى الطريق مع أحد أصحابه ، وإذا بنفيسة تناديه فيقبل عليها فتسأله .

يا محمد ؛ ما يمنعك من الزواج ؟

ومن هذا السؤال تعرف نفيسة الذكية ، هل هو مرتبط بالزواج من إحدى قريباته ، أو أنه عازف عنه ، فإذا ما ذكر سببا معقولا فلا داعى لتقديم باقى أسئلتها .

ولكن محمدا أجابها قائلا :

« ما بيدى ما أتزوج به »

لقد عرفت نفيسه السبب الذى جعل محمدا لا يقبل على الزواج لذلك فقد اسرعت إلى الإجابة التى تحسم الأمر ، وتزيده وضوحا ، فتحل العائق له ، حتى تصل إلى النتيجة التى تطلبها .

فقالت : إن كفيت ذلك ، ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟

فرد محمد قائلا : فمن هى ؟

وهذا يدل على أن أمر زوجة بعينها لم يكن يشغل باله ، وليس على خاطره موضوع محدد يسعى إليه ، لذلك فقد كانت إجابته محددة فمن هى ؟ .

قالت نفيسة : خديجة !!

فقال محمد الأمين الصادق : وكيف لى بذلك ؟ فهو لم يتعود الكلام فى مثل هذه الموضوعات ، وحياؤه يمنعه أن يذهب ليفاتح خديجة فى أمر الزواج ، ولا يريد أن يتعرض لموضوع ليس متأكدا من موافقة صاحبته .

فقالت له نفيسة :

أنا أكفيك الأمر ما دمت قد رضيت .

لقد نجحت نفيسه فى مهمتها وكانت فى سعادة لا تعادلها سعادة ،وما نشك فى أن الطاهرة كانت تنتظرها — ويعلم الله ما كانت عليه — وهى بين الرجاء والدعاء والانتظار .

وكانت المفاجأة ، فلقد أقبلت نفيسة متهللة الوجه ، بادية البشر ، تهنىء عزيزتها ، فلقد وفقت فى مهمتها ، وحملت إليها موافقة محمد .

اتجه محمد إلى البيت الحرام ، وطاف سبعا ، وبينما هو عائد إلى بيته التقى بالمنتشية ، وتحكى كتب السيرة فتقول : لما رأت المنتشية محمدا قالت : جئت خاطبا ؟ فقال لها : لا

وكان صادقا فيما قال ، فكلمات هالة لعمار تمر على خاطره ، ومقابلته لصديقة خديجة ، وما كان بينهما من مناقشة وآراء ، لكنه غير واثق من وقوع الأمر فتفرست فيه طويلا ثم قالت : ولم ؟

فوالله ما فى قريش امرأة — وإن كانت خديجة — لا تراك كفؤا لها .
ومشى محمد يفكر فى الأمر هالة ونفيسة والمنتشية وأخبارهن التى تتالت ، لابد أن أمرا جديدا سيحدث .

وإذا بمولاة خديجة تلقاه ، وتلتمس منه أن يوافى مولاتها الساعة . وذهب محمد إلى دار خديجة وهى لا تصدق ما يجرى ، فقد قابلته بكل ترحاب وسرور ومودة ، وأعادت عليه أمر الزواج ، لتعرف رأيه بنفسها ، ولتستمع إلى الكلمات العذبة التى تخرج من فم أكرم الناس عليها.

قالت :
يا محمد ألا تتزوج ؟
ورد عليها الصادق الأمين
من ؟
قالت : أنا
قال : ومن لى بك ؟
قالت : « يا ابن عم ، إنى رغبت فيك لقرابتك وسطتك فى قومك ، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك » .

قبل محمد الخطبة .

ثم قالت الطاهرة اذهب إلى عمك ، فقل له عجل إلينا بالغداة .

ولنا وقفة هنا لتوضيح ما سيأتى فالرواة الأوائل يريدون أن يربطوا بين قصة زواج السيدة خديجة رضى الله عنها ، وبين رقاش أخت جذيمة الأبرش ملك الحيرة عند زواجها من عدىّ نديم أخيها ، وكأن هؤلاء الرواة السالفين لا يتصورون أن يتم زواج بين امرأة ذات قدر وشاب أصغر منها أو أقل مالا ، إلا بالحيلة والدسيسة .

فقد كان جذيمة هذا ملكا للحيرة ، وكان ينادمه جماعة مختارة منهم عدىّ ابن نصر بن ربيعة اللخمى ، وكان له حظ من الجمال ، فقالت له رقاش أخت جذيمة : إذا سقيت الملك فسكر ، فاخطبنى إليه ، سقى عدىّ الملك ليلة ، وألطف له فى الخدمة ، ولما أسرعت الخمر فيه ، قال له الملك سلنى ما أحببت

فقال :

أسألك أن تزوجنى رقاش أختك .

قال :

ما بها عنك رغبة ، وقد فعلت .

فدخل بها ، وأصبح فى ثياب جدد ، وطيب .

فلما رآه جذيمة ، قال : يا عدىّ ! ما هذا الذى أرى ؟

قال : زوجتنى أختك رقاش البارحة .

قال : ما فعلت ! ثم وضع يده فى التراب ، وجعل يضرب بها وجهه ، وأقبل على رقاش يسألها ما حصل !! وما فعل !!

فأجابته رقاش :

أنتَ زوجتنى وما كنت أدرى ... وأتانى النساء للتزيين

ذاك من شربك المدامة صرفا ... وتماديك فى الصبا والمجون

فأطرق جذيمة ثم سلم بالأمر الواقع(١) .

أما عما تم فى زواج السيدة خديجة فقالوا إن خديجة أسكرت أباها خويلد

(١) قصص العرب ح ١ ص ٨ .

ابن أسد وألقت عليه حلة وضمخته بطيب خلوق على عادة تزيين آباء الزوجات ليلة الزفاف ، لأنها استشعرت من أبيها أنه يرغب عن زواجها من محمد[1] .

وروى ابن شهاب فى حديثه قال : فانطلقت ــ هالة ــ إلى أبيها خويلد ابن أسد ، وهو ثمل من الشراب فقالت هذا ابن أخيك محمد يخطب خديجة ، وقد رضيت .

فدعاه ، ثم سأله عن ذلك ، فخطب إليه ، فانكحه ، فخلقت[2] أباها ، وحلت عليه حلة ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، فلما صحا الشيخ من سكره قال :

ما هذا الخلوق ؟ وما هذه الحلة ؟

قالت أخت خديجة : كساكها ابن أخيك محمد ، زوجته خديجة ، وقد بنى بها ، فأنكر الشيخ ثم صار إلى أن سلم واستحيا[3] .

ولكن الثابت الذى لا يقبل الشك أو الجدل أن خويلدا مات قبل زواج ابنته وقبل حرب الفجار[4] .

قال الواقدى : وهذا غلط .

« والثبت عندنا ، والمحفوظ من أهل العلم[5] ، بخلاف ما ذكره ابن اسحاق الذى ذكر ــ وهو خطأ وقع فيه ــ أن أباها خويلد هو الذى زوجها ، وقد وردت أحاديث ــ مدلسة ــ منسوبة إلى ابن عباس وجابر بن سمرة تؤيده .

والذين رووا أن عم السيدة خديجة هو الذى زوجها ، مالوا إلى أن يصنعوا معه ما فعلته رقاش مع أخيها ، وأن يلبسوا القصة شيئا من الخيال .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٨٢ .
(٢) أى طيبته بالخلوق وهو نوع من الطيب يخلط بالزعفران .
(٣) من رواية ابن شهاب منتخب من كتاب أزواج النبى ص ٢٦ .
(٤) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٨٢ .
(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٨٢ .

روى عن الليث بن سعد قال : أرسلت خديجة إلى عمها عمرو بن أسد ، فصنعت له طعاما وشرابا حتى إذا أخذ فيه الشراب ، أرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن أقبل أنت ونفر من أهل بيتك ، فليخطبوا إليه ، فإنه سيزوجك ، فأتوه فكلموه ، فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرت بحلة وحبرة ، فألقيت عليه ، وببعير فنحر فأكل منه الناس ، وبطيب فطيب به فلما أفاق من الخمر قال : ما هذا العبير ؟ وما هذا الحبير ؟ وما هذا النحير ؟

قالوا : زوجت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد .

قال : ما فعلت !!

قالت خديجة :

لا تجمع بين أمرين : افِتتّ عليّ بنفسى ، ولم تؤامرنى ، ثم تسفه نفسك عند قريش ، وقد حضرك فلان وفلان ، فإن الرجل وإن يكن حديث السن ، قليل المال ، فإن له نسبا فاضلا من قومه ، فاسكت على ما صنعت ، فأنا كنت أحق بالغضب منك ، فقبل ذلك وسكت عنه ، وبنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

والصحيح المجمع عليه ــ بدون تنميق أو تزويق الكلام ــ أن عمها عمرو بن أسد هو الذى زوجها[2] .

والرواية الغريبة ، ما روى عن عمار بعد أن اتفق القوم على الزواج . قال عمار : فلما كان ذلك اليوم سقت هالة ــ عمها عمرو بن أسد حتى سكر ، ثم دهنته بدهن أصفر ، وطرحت عليه برد حبرة ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه ، فتزوجها ثم انصرفوا .

فلما أفاق الشيخ قال :

ما هذه النقيعة ــ يعنى البقرة ؟ وما هذا البرد ؟ وما هذا الدهن ؟ قالوا :

هذه نقيعة وبرد أهداه لك ختنك .

---

(١) منتخب من كتاب أزواج النبى ﷺ ص ٢٧ .

(٢) اتحاف الورى بأخبار أم القرى ح ١ ص ١٣٩ .

قال : ومن ختنى ؟ قال : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

فصاح ، وخرج ، يشتد ، حتى أتى باب الكعبة ، فقال : يا معشر قريش ، إن خديجة وهالة غلبتانى على نفسى ، وزعمتا أنى زوجت رجلا لا أعرفه ، فكيف يكون هذا ؟ فخلابه بنو هاشم ، فقالوا له :

لا تكلم بهذا ، فنحن نشهد أنك زوجته ، فقال ابعثوا إليه ، حتى أنظر إليه فوالله ما أعرفه فلما نظر إليه قال : إن كنت زوجته ، فكسبيل ذلك ، وإن لم أكن زوجته ، فأشهدكم أنى قد زوجته(١)

وهذا ــ طبعا ــ من التدليس غير المقبول ، وقد رد على كل ذلك أعلامنا السابقون وأعلامنا المحدثون .

يقول محمد لطفى جمعة رحمه الله :

« ولو كلف هؤلاء المؤرخون أنفسهم قليلا من عناء ، لعلموا أن خويلدا مات قبل زواج ابنته وابنه ، وأنه لو كان على قيد الحياة لقبل هذه المصاهرة مسرورا ، فلم يكن محمد صلى الله عليه وسلم نديما له ، ولم يكن ممن يختلسون النساء الثريات ، ولم يكن ليرضى الدخول بها على انقاض الخمر والحلتين والطيب المزعفر .... ولكن ما الحيلة فى هذه الآراء العبرانية التى سرت إلى كتاب السيرة من التوارة ؟ فإن صورة ابنتى لوط اللتين أسكرتا والدهما لا تبرح أذهانهم(٢) .

ويستمر هؤلاء المؤرخون المختلفون فيزعمون أن خويلدا لما أفاق من خماره .

قال :

ما هذا ؟

قالت له خديجة :

زوجتنى من محمد بن عبد الله .

قال :

---

(١) منتخب من كتاب أزواج النبى ﷺ ص ٢٧ .

(٢) ثورة الإسلام ٤٣٥ .

أنا أزوج يتيم أبى طالب إلا لعمرى !!

قالت له خديجة : ألا تستحى أن تسفه نفسك عند قريش ، نخبرهم أنك كنت مخمورا[1] .

فلم تزل به حتى رضى .

وفى هذه الرواية الآفنة ما فيها من الباطل والتلفيق .

ويكمل محمد لطفى جمعه قوله ، فيقول :

وقد عرضنا لها لنظهر القارىء على لون من تدوين التاريخ ، فإن وصف محمد بيتيم أبى طالب ، أو يتيم قريش غير معقول ، ولا مقبول بعد أن صار رجلا رشيدا ، واليتم لا يمتد إلى ما بعد بلوغ الرشد ، واليتم ليس معرة ، وكان محمدٌ إذ ذاك تاجرا يربح ، وفتى من فتيان قريش ذوى المكانة والقدر والنسب والعقل[2] .

وقال الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله :

« إن احتمال أن يعقد رجل من أشراف العرب عقد زواج وهو سكران يستنكره العرف والعقل ، ولا يمكن أن يقدم عليه أبو طالب ، وهو كبير ومسن ووكيل النبى صلى الله عليه وسلم فى الزواج »[3]

وما ذكره ابن اسحاق أن الذى زوجها أبوها خويلد غير صحيح لأن خويلد قد مات قبل حرب الفجار ، وذلك ثابت مشهور ، ولأن الخبر الذى يقول إن الذى زوجها هو أبوها تضمن ما يدل على كذبه .

ويقول الشيخ أبو شهبة :

« إن هذه الرواية مخالفة للظروف والواقع وللبيئة التى حدثت فيها . فبنو هاشم فى الذروة من قريش نسبا وشرفا ، وقد صدع بهذه الحقيقة أبو طالب فى مجتمع حافل بالسادات ، فما نازعه فيها منازع ، ثم إن مثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى شبابه الغض ، ورجولته النادرة ، وخلقه الكامل ونسبه السامق

---

(١) منتخب من كتاب أزواج النبى ﷺ ص ٢٧ .

(٢) ثورة الإسلام ٤٣٦ .

(٣) خاتم النبيين ج ١ ص ٢٠٧ .

الذى يطاول السماء ممن تتطاول إلى مصاهرته أعناق الأشراف .

فهذا أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، وهو من هو فى عداوته للنبى صلى الله عليه وسلم ، ومن أبناء عمومة بنى هاشم لما بلغه أن النبى صلى الله عليه وسلم تزوج السيدة أم حبيبة ابنته ولم يكن أسلم بعد قال :
« هو الفحل لا يقرع أنفه »(١)

ولنا أن نقول :
حقيقة أن ما قاله بعض المؤرخين العرب بحسن نية فيه كثير من الشر على سير حوادث التاريخ الإسلامى ، ورغم أن مؤرخى الغرب ينتهزون ثغرة لينفذوا منها إلى أغراضهم غير الشريفة ، إلا أنهم أجمعوا على عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم وجدارته ، وحذق خديجة فى انتقاء محمد بعلا لها .

وجاء أبو طالب إلى بيت خديجة ، فرحبت به ، ثم قالت اذهب إلى عمى ، فقل له يزوجنى من ابن اخيك ، فوافق أبو طالب على أصل الزواج ، وعلى أن يقوم من جانبه بالخطبة وقال : « هذا من صنع الله » .

وجاء محمد وأعمامه أبو طالب وحمزة والعباس والزبير والفيداق وصديقا محمد أبو بكر وعمار بن ياسر ، ودخلوا على عمها عمرو بن أسد ، وكان معه ابن عمها ورقة بن نوفل وابن أخيها حكيم بن حزام ، وجمع من رؤساء مضر ، وكبراء مكة وأشرافها لإتمام العقد .

وتكلم أبو طالب باسم محمد ، ثم وقف خطيبا وقال :
« الحمد لله الذى جعلنا من ذرّية إبراهيم ، وزَرْع اسماعيل ، وضئضىء(٢) مَعَد ، وعُنْصُر مُضَر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يُوزن به رجل من قريش إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا ، وإن كان فى المال قلا ، فإن المال ظِلّ زائل ، وأمر حائل ، وعارية مسترجعة ، ومحمد من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ،

---

(١) هامش منتخب من كتاب أزواج النبى ﷺ ص ٢٩ .
(٢) ضئضىء : معناها أصل .

وقد بذل لها من الصداق ما اجله وعاجله من مالى هذا . وهو مع هذا له نبأ عظيم وخطر جليل . فتزوجها وأصدقها عشرين بكرة وقيل أثنتا عشرة أوقية ذهبا ونشا[1] .

وخطب ورقة بن نوفل ، فرد على أبى طالب ، فكان مما قال : الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، ورغبتنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا علىَّ معاشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله فقال أبو طالب قد أحببت أن يشركك عمها :

فقال عمها :

اشهدوا علىَّ معاشر قريش ، أنى أنكحت محمد بن عبد الله ، وشهد على ذلك صناديد قريش .

ونحر محمد جزورين ، وأطعم الناس ، وضرب الجوارى الدفوف،وفرح أبو طالب فرحا شديدا،وقال :

« الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب ، ودفع عنا الغموم »

بدأ محمد حياته الزوجية ، وكان فى الخامسة والعشرين ، وهو المتواتر ولم يكن فى الواحد والعشرين ، أو السابعة والثلاثين ، أما خديجة يوم تزوجت من محمد فقد قيل :

إنها كانت فى سن الأربعين .

وقيل : فى سن الثلاثين .

وقيل : فى سن الخامسة والثلاثين .

وقيل : فى سن الثامنة والثلاثين .

بل لقد قال البعض إنها كانت فى الخامسة والعشرين .

ومعظم الرواة على أنها كانت فى سن الأربعين .

---

(١) والنشا نصف أوقية انظر ص ١٣٦ من إتحاف الورى بأخبار أم القرى .

ولعل الذى دفعهم إلى الأخذ بهذا الرأى ، ما كانت تمتاز به من رجاحة العقل ، وسديد الرأى ، واستقامة الفكر الذى لا يعطاه إلا الذين تقدمت بهم السنون ، فحسبوا أن كل ذلك لا يكون إلا لمن فى سن الأربعين .

بل إن بعضهم قال :

إنها كانت فى الخامسة والأربعين غير مقدرين لما يترتب على هذا التقدير من أشياء يخالف ما عليه ناموس الحياة .

ونحن نميل إلى الرأى القائل بأنها كانت فى سن تجاوزت به الخامسة والعشرين ، فكانت فى السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين . أو دون الأربعين بكثير .

فلقد تزوجت زوجها الأول عتيق بن عابد ، وهى تقريبا فى سن الرابعة عشرة ، إن لم يكن أقل من ذلك كما هى عادة البيوتات العريقة فى ذلك العصر ، فبمجرد أن تصل البنت العاشرة ، وقد ظهرت عليها ملامح الأنوثة يتبارى القوم فى التقدم إليها للخطبة وبعدها الزواج حتى أصبح هذا السن المعتاد .

ونحن لا نقول :

إنها كانت فى العاشرة أو الحادية عشرة وإنما نفترض المتوسط مما عليه القوم وأقصاه فنقول : إنها تزوجت من زوجها الأول فى سن الرابعة عشرة وكانت ولوذا فولدت له عبد الله ، ولم تطل إقامتها معه أكثر من سنتين أو ثلاث إذ توفى وتركها .

لم يطل ترملها ، فقد تقدم لها هند بن زرارة الذى عرف فيما بعد بأبى هالة ، فأنجبت منه ابنين الحارث وهندا وبنتا أسماها زينب على رواية الشيخ الإمام ابن حزم رحمه الله .

وترملت مرة ثانية ، وقد جاوزت العشرين بقليل ، وزهدت مؤقتا فى الزواج وهى فى سن النضارة والشباب وربما كان عامل الموت سببا فى ذلك ، فكأن سحابة رقيقة حالت دون الزواج ، ومهما يكن من سبب فإننا نحنى الرءوس إجلالا لأمر الله ، حتى تنفذ إرادته ، ويتحقق قدره ، وما أعد لها من

الخير والمنزلة والبركة .

فإذا كان الزواج فى سن الأربعين ، فيكون على هذا قد ترملت وهى فى سن العشرين أو تركت العشرين بقليل ، وتلك مدة طويلة فى أنضج مرحلة من حياة الإنسان ، وبعدها تقل الرغبة فى الزواج فقد مضت أعظم مرحلة فى الحياة ، وهى التى فيها الحيوية والنشاط وقاربت مرحلة اليأس .

وأيضا على فرض سن الأربعين يكون ابنها الأول قد قارب الخامسة والعشرين فيكون فى سن الزوج ، ويكون هند فى سن العشرين أو قاربها .

وهذا ما لم يحدث فالثابت أن عبد الله الابن الأول كان قد جاوز الثانية عشرة ، وأنه استقل بحياته ، ولأمر ما سكت الرواة عن التعرض له والله أعلم .

أما ابنها هند رضى الله عنه فقد كان غلاما لم يشب عن الطوق . ولا يتأتى سن الأربعين إلا إذا قلنا إنها تزوجت زوجها الأول وهى فى سن الخامسة والعشرين أو قريبا منها ، وتزوجت زوجها الثانى وهى فى حدود السابعة والعشرين ، وهذا ما لم يجرؤ أن يقول به أحد ، فتأخير الزواج إلى هذا السن أمر مستبعد .

وهذا ما نراه يتفق مع واقع الحياة العادية .

ولنا ما نستأنس به من القديم ، فقد رووا أن ابن عباس رضى الله عنه هو صاحب الرأى القائل بأن عمر السيدة لم يتجاوز الثامنة والعشرين وهو أعرف الناس بحقيقة عمر السيدة خديجة رضى الله عنها .

ولما أراد أصحاب الرأى القائل بأنها رضى الله عنها كانت فى سن الأربعين اثبات رأيهم — رووا عن ابن أخيها حكيم بن حزام قوله : « تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة وهى ابنة أربعين ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن خمس وعشرين ، وكانت خديجة أسن منى بسنتين ، ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة ، وولدت أنا بثلاث عشرة سنة .

وهذه الرواية داخلها الصنعة ، فلم يكن فى عهد الخلفاء الراشدين مجال لمثل هذا المقال ، ولم يتعرض الصحابة لمثل هذا القول حتى نرى حكيم بن حزام يعرض

رأيه ، ويؤكده ، ولو بحثنا عن الرواة لوجدنا فيهم من لا يؤخذ بروايته .

ولكن لنا رأى فى رواية ابن عباس ، ورواية حكيم بن حزام رضى الله عنهما ، فلا نقطع بصحة ما روياه ؛ لأن الصحابة لم يهتموا بمثل هذه الموضوعات التى لم تخطر على البال ، لاشتغالهم بكل ما هو مفيد للإسلام ، والدعوة ، ولخدمة الدين والشريعة ، ولم يتطرقوا لمثل هذه الموضوعات التى اهتم بها الكتاب فى عصر التدوين أو بعده ووضعت لها أحاديث تتفق مع ما ذهبوا إليه .

لذلك فإن من رأى أن سنها أقل من الأربعين ، وضع أحاديث نسبها إلى ابن عباس ، ومن ارتأى أن سنها كان فى الأربعين ، وضع أحاديث نسبها إلى ابن أخيها حكيم بن حزام .

فكلا الصحابيين ، مظلوم ؟ لذلك فقد أقمنا دليلنا على واقع الحياة ونواميسها .

ومن المحدثين الذين أولوا هِذا الموضوع عنايتهم ، وأدلوا بدلوهم فى بحثه عباس محمود العقاد .

قال رحمه الله :

« أما السيدة خديجة ــ رضى الله عنها ــ فمن كتاب السيرة من يقول إنها كانت فى الأربعين أو الخامسة والأربعين ومنهم ابن عباس يقول :

إنها كانت فى الثامنة والعشرين ، ولم تجاوزها ، وأحرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة ، لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة فى بلاد الجزيرة يبكر فيها النمو ، ويبكر فيها الكبر ، فلا تتصدى للزواج بعد الأربعين ولا يعهد فى الأغلب أن تلد بعدها سبعة أولاد .

لعل فى هذا ردا على أولئك الذين يغالون فى التمسك بسن الأربعين عند زواج السيدة خديجة رضى الله عنها من سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، وردا على الأستاذة الفاضلة ــ ولكل كاتب هفوة ــ التى تصف السيدة خديجة بأنها أرملة كهلة ، قد أدبر شبابها وأصبحت بالنسبة لمحمد خالة أو عمة ، بل إنها

جاوزت فى سنها السيدة أم الرسول صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب ، فلو عاشت ما جاوزت الأربعين فى وقت بلغت فيه السيدة خديجة الأربعين .

وننقل النص الذى كتب بعد أن نبين أن لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين مقاما ومنزلة ينبغى لنا نحن المسلمين مراعاتها فى كتاباتنا ، وأن نلتزم الأدب الجم فى الحديث عنهن ، ولا نترك الجماح لخيالنا لنقول كل ما يخطر ببالنا غير مراعين أى حرمة واحترام لهن .

تقول الأستاذة الكاتبة متخيلة موقف السيدة رضى الله عنها قبيل الخطبة والزواج سامحها الله :

« فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد — تقصد خفقان القلب بالحب — ترى هل مسه الحب فاستيقظ بعد ما طال به الهجوع ، وطاب له الرقاد ؟ وإذ تلقت جواب القلب ، انتفضت مذعورة لا تدرى كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة ، بعد أن نفضت يديها من الرجال ، أو خرجت فى حساب بيئتها من حياة الرجال ؟

وكيف تلقى بها قومها ، وقد رذت عن بابها الخطاب من سادة قريش وسراة مكة

ولكن ويحها !! لقد فكرت فى قومها دون أن تعرف رأى محمد فيها :

أتراه يستجيب لعاطفة أرملة كهلة فى الأربعين من عمرها ، وهو الذى انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة ، وزهرات بنى هاشم الناضرات ؟

وانتابها ما يشبه الخجل فما هى فى كهولتها بالقياس إلى « محمد » فى شبابه غير خالة أو أم ، ولو عاشت آمنة بنت وهب لما جاوزت يومئذ سن الأربعين .... وهى بعد ليست خلية من هموم الأمومة ، فقد ترك لها زوجها عتيق بن عائد المخزومى ابنة أدركت سن الزواج ، وخلف لها زوجها أبو هالة هند بن زرارة التميمى ولدها « هند » غلاما لم يشب عن الطوق » انتهى كلام الأستاذة الجليلة (١)

---

(١) نساء النبى — صلى الله عليه وسلم — السيدة خديجة بنت خويلد للدكتورة بنت الشاطىء — تراجم سيدات بيت النبوة ص ٢٢٢ .

نقول :

هذا التصوير الذى تدخلت فيه ذاتية الكاتبة ، تصوير مسرف جامح ...
لا يقال عن الطاهرة سيدة نساء قريش أم المؤمنين بل وسيدة نساء العالمين ، فلا أقل أن نكون مسلمين ملتزمين . ولقد التزم بعض المستشرقين من غير المسلمين ، فرعوا حق السيدة رضى الله عنها فيما فكروا وكتبوا ، ونحن بهذا الخيال غير المقبول ، وهذا التعبير غير اللائق نفتح طريقا للمغرضين ، ولقصار النظر ، ليقولوا ما شاءوا ، وليكتبوا حسب ما تمليه عليهم الأهواء . فمما قالوه قالوا :

إن محمداً تزوج خديجة العجوز من أجل مالها ، وهذا ــ لعمرى ــ تعبير أهون مما كتبته الأستاذة الكبيرة.

ثم إن النص المكتوب فيه أن زوجها الأول ترك لها ابنة أدركت سن الزواج وهو فى الغالب بين الثانية عشرة والسادسة عشرة فى مثل هذه البيئة ، عند زواجها من سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، وأيضا تقول فى النص :

إن هندا لم يشب على الطوق أى أنه لم يجاوز العاشرة وهو رضى الله عنه من زوجها الثانى

والسؤال الآن متى تزوجت زوجها الأول ؟ وفى أى سن كانت حتى تلد بنتا تكون عند زواجها من الرسول صلى الله عليه وسلم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة

وكذلك متى تزوجت زوجها الثانى حتى يكون « هند » فى الثامنة أو التاسعة ، إن أقل تفكير يؤيد ما ذهبنا إليه من أن عمرها عند الزواج سبع وعشرون أو ثمان وعشرون أو أقل من الأربعين بسنوات كثيرة .

إذا فلا داعى لما ذكر من كلمات العطفُ والشفقة والحنان ، ولا للتشبيهات غير المقبولة ولا للخيال غير السليم .

وممن دافع عن سن الأربعين من المحدثين شيخ الجيل الأستاذ محمد أبو زهرة قال رحمه الله ورضى الله عنه : ــ

« أما سنها رضى الله عنها فقد كان المشهور أربعين .... والتاريخ يعتمد

دائما على المشهور الذى له سند يعتمد عليه ، ولا خلاف بين كتاب السير فى أن سنها رضى الله عنها وجزاها عن الإسلام خيراً كانت فى الأربعين ، وغيرها أقوال منثورة لم يؤيدها كتاب السيرة والمحققون .

ولسنا من الذين يتجهون إلى الإغراب ؟ لأن الإغراب إن كان سائغا فى بعض العلوم فهو لا يسوغ قط فى التاريخ ؛ لأن تتبع الإغراب فى التاريخ إنكار لما اشتهر واستغناء بما لم يشتهر من غير سند ؛ إن الحقائق هى الأمور المشهورة ، ويرد ما عداها ، إلا إذا قام الدليل المكذوب للمشهور بما لا يقل عنه قوه والله أعلم [1]

ونرد فنقول :

إن سن « هند » بن السيدة خديجة عند زواجها رضى الله عنها من الرسول صلى الله عليه وسلم كان كما قال الرواة والمؤرخون دون العاشرة ، ونحن أمام أمرين إما أن نؤخر زواجها إلى ما بعد الخامسة والعشرين وما أظن أحدا يقول بهذا ، وإما أن نقول بزواجها هذا أنه كان فيما دون الأربعين بكثير

وإذا كان الرواة قد قالوا بالأربعين ، فلم يكن التحديد الحقيقى عندهم فى مثل هذه الحالة مما يثير الاهتمام ، وقد يكون القول بالاربعين لبيان اكتمال العقل ، وقد حَقَقْتُ ما وصل إليه التفكير ، والله أعلم .

لقد ضم البيت المبارك محمد بن عبد الله ، وخديجة بنت خويلد وآخرين وما كل ذلك إلا تمهيداً لأمر يريده الله .

---

(١) خاتم النبيين ﷺ ج ١ ص ٢٠٨ .

للشيخ محمد أبو زهرة مواقف خالدة فى الدفاع عن الإسلام والأحوال الشخصية للمسلمين التى حاول البعض أن ينال منها ويخرجها من أصل التشريع الإسلامى ، فقد وقف رحمه الله فى وجه كل من يحاول النيل من الإسلام مضحيا بكل شيء فى إظهار رأيه الذى يتفق تماما مع أصول الدين وقواعدة .

ولما صدر قانون الأحوال الشخصية الجديد وكان فيه بعض الذى لا يتفق والشريعة السمحة أقام سرادقا أمام بيته ودعا علماء المسلمين للتشاور والمناقشة والرد على من قاموا بهذا القانون محاولا وقفه إلا أن هذا السرادق كان لتقبل العزاء فقد توفى قبيل الاجتماع رحمه الله رحمة واسعة ورفع درجاته فى عليين وقد تُعرضنا لرأيه بالشرح والتفصيل فى كتابنا « تعدد الزوجات فى الإسلام » والرد على الشبهات التى أوردها المغرضون فى مصر.

قالت خولة بنت حكيم :
« إنى أراك قد دخلتك خَلَّة لفقد خديجة »
قال صلى الله عليه وسلم :
« أجل أم العيال ، وربة البيت »

البيت المبارك

ليس على جادة الصواب أولئك الذين ينعتون محمدا وقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره المبارك باليتم ، ويقولون : إنه كان فى حاجة إلى العطف والحنان والرعاية لفقده لأمه فى طفولته ، وأنه وجد فى السيدة خديجة كل ما حرمه من أمه .

إن الذين بالغوا فى هذا القول ، قد فتحوا لأعداء الإسلام أبوابا ، استطاعوا منها أن يلصقوا المزاعم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن يفتروا على الإسلام والمسلمين الكذب بعد أن ضموا إليها بعض ما قاله مؤرخونا بحسن نية .

ويكفى للرد على هؤلاء أن نقول لهم :

إن محمدا منذ أن سعدت الدنيا برؤيته ، خلق ليملأ النفوس والقلوب عطفا وحنانا ، وشفقة ورحمة .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾(١)

فهو رحيم بالناس منذ أن رأت الدنيا وجهه الكريم ، يقابل الحب بحب أكبر منه ، لا يمكن أن يجارى ، والإحسان بأضعاف أضعافه ؛ وهذا شأن من حرسته عناية المولى جل وعلا ، ومن قربه الله سبحانه وتعالى منه ، ولم يبغضه أبدا ، وهو الذى آواه وهداه .

﴿ والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى ﴾(٢)

---

(١) سورة التوبة ١٢٨ .

(٢) سورة الضحى ١ ــ ٨ .

فالله سبحانه وتعالى هو الذى آواه منذ الصغر وحفظه ، وهو الذى هداه وعلمه ، وهو الذى أغناه بفضله وكرمه ، فما دخل بيتا منذ أن ولد إلا ملأه الخير والغنى والبركة .

يشهد بذلك كل من عرفه وبخاصة حليمة السعدية مرضعته صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عمه أبو طالب .

ونحن نرد كل خيال باهت ينتقص من شخصية سيدنا محمد ، كالصورة التى تخيلتها إحدى الكاتبات ــ ولكل كاتب هفوة ــ وهو يتكلم مع صديقة السيدة خديجة نفيسة بنت منبة ؛ لتعرض عليه أمر الزواج من خديجة ، تقول الأستاذة الكاتبة :

« فامسك الشاب ــ تعنى سيدنا محمدا ــ دمعة كادت تخونه ، وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمه صبيا فى السادسة من عمره ، وتكلف الابتسامة ليرد على محدثته »(١)

نقول : إن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وقد بلغ الخامسة والعشرين أصبح رجلا يستطيع أن يدير الحديث ، ويرد على من يكلمه بذكاء وصراحة وشجاعة ، لا أن يدير الحديث بطريقة تستجلب العطف من امرأة غريبة عنه ، فيضعف أمامها حتى ليكاد أن يبكى ، وما كان سيدنا محمد بالمتكلف .

وتزوج سيدنا محمد ، وما أن تم عقد الزواج الذى حضره سادات مكة وكبراؤها حتى نودى :

اذبحوا الذبائح ، واضربوا الدفوف ، وامتلأ البيت فرحا وسرورا وسعادة ، إن السيدة خديجة تريد أن تظهر فرحتها بهذا الزواج المبارك ، وتعتبر زواجها من محمد تمهيدا من الله لحياة جديدة مملوءة بما لا يعلم إلا الله من خير وبركة ومستقبل كريم .

لقد ملأ سيدنا محمد عليها الدنيا ، وأحست بالسعادة تملأ جوانب البيت ،

---

(١) نساء النبى عليه الصلاة والسلام ، السيدة خديجة بنت خويلد للدكتورة بنت الشاطىء ــ تراجم سيدات بيت النبوة ص ٢٢١ .

ووجدت نفسها أمام شخصية فذة ، محت ما علق بذهنها من خيال وتفكير ، إن ذكرت الأخلاق ، وما يتحلى به الرجال من صفات فهو الكمال الإنسانى ، وإن ذكرت الرجولة والحكمة ، فليس فى الوجود من أملك لها من سيدنا محمد .

لقد وجدت فيه من آيات الرجال مالم تره فيمن عرفت ، بل لم تسمع أبدا بمثل محمد :

حقيقة إنه أمة وحده !!

لقد كان فى إحساسها وشعورها إيمان قاطع بأن محمدا هو نبى هذه الأمة ، ولكن متى سيكون ذلك ؟ وكيف يكمل الاتصال بينه وبين ربه ؟ وما هو الأمر غير العادى الذى سيكون على يديه ؟!

إنها لا تدرى عن ذلك شيئا !!

وهذا ما جعلها تعيش حياة روحية ليس لها حدود .

إذن فلا بد أن تغير كل حياتها لأجله ومن أجله ، إنه يحب الهدوء والصمت والتفكير ، والاستسلام لإرادة قوية تجذبه إليها ، فلتحقق له ما يريد .

لقد جعلت جناحا خاصا من البيت للزوج الحبيب ، لتأملاته ولعبادته ولتفكيره . كان لا يقترب أحد منه فى أثناء خلوته ، وإن اقترب فليلتزم بالسكينة وخفض الصوت ، وقلة الحركة ، فالبيت الذى كانت الحركة فيه لا تنقطع ليلا أو نهارا ، قد سكن وهدأ من أجل محمد .

كانت القوافل التى تأتى بالتجارة من خارج مكة للسيدة خديجة نصيب كبير منها وكانت تفتح لها أبواب المخازن ليوضع كل شىء فى مكانه ، ثم تفتح أبواب الضيافة ، وتذبح الذبائح ، وتقدم الأطعمة ، وبعدها يتم البيع والشراء بين المناقشات والأخذ والرد .

لقد استغنت عن كل هذا بتقليل البيع والشراء حتى انتهى الأمر بتركها لذلك كله .

كان سيدنا محمد تاجرا من أذكى التجار ، ولو سلمته قيادة التجارة والانتقال بها خارج مكة وداخلها ، والسفر والترحال من سوق إلى سوق آخر ؛ لأتى لها

بالمال الوفير ، ولو كان فى حياة سيدنا محمد موضع لهذا ، أو رأت منه استعـــدادا للإثراء والغنى لشجعته على ذلك ، ولكنها كانت توقن إيقانا عظيما بأن محمدا لم يخلق للمال والغنى الزائد .

وليس معنى ذلك أن سيدنا محمدا ركن إلى الراحة والنعيم الذى هيىء له فى البيت ... كلا ... لكنه كان يخرج إلى الاسواق يتجر ويبيع ويشترى ثم يرجع بما ربح إلى البيت ، وكثيرا ما كان يشارك السائب بن أبى السائب صيفى بن عبد الله بن عمر بن عابد فى التجارة .

كان يسرع إلى الغرفة التى هيئت لعزلته وعبادته وتفكيره لقد كان يشعر دائما أنه مع الله وأنه يقترب شيئا فشيئا من قوة تجذبه إليها ، فتتفتح أمامه آفاق جديدة ، وأن روحه تصعد شيئا فشيئا إلى عالم ينفتح له صدره ، وتشتاق إليه نفسه ، وأن عبادته وما يردده من ذكر وتأمل كان ملهما به من المولى سبحانه وتعالى .

كانت السيدة خديجة رضى الله عنها تهتم اهتماما غير عادى بطعامه وشرابه وملبسه ، فقد عرفت ما يحبه محمد ، ومالا يحب ، فكانت تعد له الطعام الذى يحبه ويستطيبه من الطيب الحلال ، وكانت تقلل فى طعامه من البصل والثوم وغيرهما مما يعافه محمد .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم ممن يعنى بنظافة ثيابه وتطييبه ، فهو يحب أن يظهر للناس نظيف الثياب حسن الهيئة طيب الرائحة عرفت السيدة خديجة ذلك فيمن أحبته وتفانت فى سبيله ، فحققت له كل ما أراد ، وأشار به .

لقد شعرت مكة كلها بالسعادة التى غمرت بيت محمد ، وغبطها القريب والبعيد ، ولم يكن هناك مجال لإنسان ليقول كلمة نقد ولا مقالة لقائل أو مغرض ، يعبر عما تكنه نفسه تحت غرض من الأغراض فالحياة فى هذا البيت المبارك تتسم بالجد والاحترام والتقدير ، وكل من يغشى هذا البيت ينال واجب الضيافة والكرم فلا يخرج إلا ولسانه يلهج بالشكر والثناء .

كان الزوجان السعيدان لا يخرجان من بيتهما إلا لزيارة قريب أو استجابة لدعوة من أقرب الأهل الذين يتمسكون بالخلق الكريم ، ومع ذلك فقلما يخلو

هذا البيت من الأهل والضيفان .

كان ممن قصد هذا البيت حليمة السعدية التى أرضعت الرسول صلى الله عليه وسلم فى صغره وكانت قد اشتكت من الجدب الذى أصاب البادية فى تلك الأيام ، وأصبحت فى حاجة إلى المساعدة فاتجهت إلى ابنها من الرضاع نادت حليمة

أمحمد .... أمحمد ....

وما أن سمع الأمين صوتها حتى أسرع إليها ملبيا ، وضمها إلى صدره وهو يقول :

أمى .... أمى ....

رحب بها كثيرا ، وفرش لها ثوبه احتراما وتقديرا للثدى الذى أرضعه صغيرا .

راحت حليمة تطيل النظر إلى محمد وترجع بذاكرتها إلى اليوم الذى لاقته فيه ، يوم أن خرجت مع زوجها وابنها الصغير على أتان هزيل ، وقد أجدبت الصحراء ، وبكاء الطفل لا ينقطع من شدة الجوع وليس فى ثديها ما يسد الرمق .

لقد انضمت إلى ركب المرضعات الذى يتجه إلى مكة للحصول على أطفال يرضعنهم ويبتغين الخير من ورائهم ، ولكن الأتان لم يكن فى استطاعتها متابعة سير الركب لضعفها وهزالها فتأخرت ووصل الجميع إلى مكة ، وفاز كل بما رغب من أطفال أهلهم أغنياء .

كان كلما عُرض محمد على مرضع وقيل إنه يتيم ، يرغبن عنه وما عسى ترجو مرضعة من فاقد الأب ، إنها تريد أبا غنيا يغدق عليها الخير ، وما تنتظر من طفل تحمله أمه ومعها جده .

لقد وجد المرضعات ما طلبن ، وأتت حليمة وقد خلا المكان من الرضع إلا ذلك الطفل اليتيم الذى تحمله أمه ، وقد وقف الجد عبد المطلب بجوارها .

وتتذكر حليمة ما قالته لزوجها حينذاك :

« والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ، ولم آخذ رضيعا ، والله لأهُبَّن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه »

ولقد قال لها زوجها الذى وفقه الله إلى الخير :

« لا عليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة »

تتذكر حليمة ما حصل لها حينما أخذته بيديها ، وضمته إلى صدرها ، وتذكر الحقيقة التى من أجلها أخذته وهى أنها لم تجد غيره ، إنها ما تزال تذكر ، ولن تنسى أبدا حينما وضعته فى حجرها ، وضعت الثدى فى فمه حتى روى ، واستلم بعده أخوه الثدى الآخر فشرب حتى روى ونام الطفلان نوما عميقا .

قال الزوج : لقد أخذت يا حليمة نسمة مباركة !!

فردت عليه : والله إنى لأرجو ذلك

ويمتد بحليمة الخيال ، وترجع بذاكرتها إلى الماضى البعيد ، ومازالت تعيها وكأنها واقعة الآن . إن أتانها قد جرى وسبق القوم فقال لها صواحبها :

« يا ابنة أبى ذؤيب ويحك اربعى علينا ! أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

فقالت لهن :

والله إنها لهى .

تذكرت حليمة الخير الكثير الذى كان على يديه ولن تنسى صورته الوديعة الجميلة ، صورة طفولته ،والآن لقد أصبح رجلا بل وسيد الرجال ، إن ابتسامته العذبة لم تفارقه . وإن إشراقة وجهه لا تزال كما هى منذ الطفولة .

كان كلما يناديها : يا أمى يستولى عليها الفخر والسعادة التى لا تدانيها سعادة .

وكانت السيدة خديجة ترحب بها من آن لآخر هاشة باشة لها ، مرحبة بها ، منصتة لها وبخاصة حينما تعيد ذكريات طفولة أحب الناس إليها تقبل عليها ، وتود أن تزيد من حديثها وذكرياتها .

جلست حليمة ما شاء لها الجلوس ، ولم يتركها محمد لتسترسل فى

الشكاية بل كان يلاطفها ويدعو لها بالفرج والخير ، أما السيدة خديجة فإنها أسرعت تعد لها الإبل والأغنام وما يساعدها على اجتياز الأزمة .

خرجت حليمة من البيت المبارك ولسانها يلهج بالدعاء وقلبها مفعم بالفرح والسرور والحب والتقدير .

ومن اللائى كن لهن مكانة فى هذا البيت ومكان « بركة الحبشية » ، التى كنيت فيما بعد « أم أيمن » وكانت السيدة خديجة تحبها كثيرا فتقربها إليها وتدعوها أن تكون واحدة من أفراد هذا البيت بعد أن تزوجت لأنها هى التى حضنت زوجها الحبيب بعد أن ماتت أمه ، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان يعدها من أهل بيته .

لقد ورثها عن أبيه هى وخمسة أجمال أوراك وقطيع من غنم ثم أعتقها سيدها محمد بعد أن تزوج من السيدة خديجة

كان سيدها دائما يداعبها ويلاطفها ويمزح معها ، لقد جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : احملنى .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أحملك على ولد الناقة .

قالت :

إنه لا يطيقنى ، ولا أريده .

فقال لها : لا أحملك إلا على ولد الناقة .

وهو صادق فيما يقول لأن كل الإبل ولد النوق .

ولما مات زوجها عبيد بن زيد وقد ولدت له أيمن ، وكانت تكنى به ، تزوجها زيد بن ثابت ، وولدت له أسامة بن زيد القائد المعروف .

ولعل من أبرز الشخصيات التى عاشت فى هذا البيت ، وكان له مكانة ، وكان أول مولى أسلم ، وآمن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم « زيد بن حارثة » أحد عبيد السيدة خديجة وواحد من خدامها ، ولكنها وجدت أن الزوج الأمين يخصه لشئونه ويناديه كلما أراد قضاء حاجة ، ثم رأت السيدة رضى الله عنها أن يتفرغ لخدمة رب البيت ، وقد كان معجبا بنشاطه وسرعة

تلبيته لما يطلب منه .

أثنى سيدنا محمد على زيد أمام الزوجة الحنون ، وما كاد يتم كلامه ، حتى أسرعت فقدمته هبة له ، وهى قريرة العين ، منشرحة الصدر ، وأصبح عبدا لمحمد بن عبد الله ، فصار يؤثره على غيره من الموالى ، وصار يعرف من ذلك الوقت باسم زيد بن حارثة مولى محمد بن عبد الله .

ولزيد هذا قصة عجيبة سطرتها المقادير لتفسح له طريقا ليكون له مكانة مرموقة فى تاريخ هذا الدين الحنيف .

لقد خرجت أمه أم سعدى بنت ثعلبة زوجة حارثة بن شرحبيل لتزور أهلها من بنى معن ، وفى أثناء وجودها فى بيت أبيها ، أغارت جماعة من بنى قين بن جسر على بنى معن ، وكانوا من القوة بحيث استطاعوا أن يسبوا الكثير من نساء بنى معن ، ومعهن الصبيان والبنات كما هى عادة القبائل القوية التى تستضعف القبائل المغلوبة على أمرها تؤسر الرجال وتؤخذ النساء ، وتسترق الصغار .

حاولت أم سعدى أن تهرب وأوصت ابنها زيداً أن يتبعها مسرعا ، ولم يكد الصبى يلحق بأمه حتى اختطف فى أقل من لمح البصر .

وتلفتت الأم التى نجت من الأسر بأعجوبة فلم تر أثراً لابنها ثم رجعت إلى زوجها ، وقد أصابها من الهم والغم ما جعلها لا تقوى على الكلام ، ولا تريد أن تكرر تلك الفاجعة المؤلمة .

وعلم حارثة بما انتهى إليه أمر ابنه زيد ، فراح يبحث عنه فى كل مكان ، وما علم أن بنى قين بن جسر فرقوا سباياهم على الأسواق للبيع والتجارة ، وأن ابنه نزل إلى مكان المساومة والمزايدة ، وأنه بيع فى أحد الأسواق القريبة من مكة ، وأن الذى اشتراه هو حكيم بن حزام ابن أخى السيدة خديجة .

لقد حرص حكيم على أن يشترى زيدا ، فزايد عليه حتى وصل ثمنه إلى ستمائة درهم ، وصار من ذلك الوقت عبدا لحكيم بعد أن كان فتى من فتيان بنى طىء بالرغم من صغر سنه ، فقد كان فى العاشرة من عمره .

كانت السيدة خديجة تذهب أحيانا إلى بيت ابن أخيها حكيم ذهبت إليه مرة وسلمت عليه ، ولمحت بجواره صبيا صغيرا ، فسألت عنه ابن أخيها .

فقال :

هذا غلام اشتريته من سوق عكاظ ، ووجد حكيم أن عمته راغبة فى أخذه منه ، فما أن انتهت العمة من الحديث واستأذنت لكى تذهب إلى بيتها حتى أمر حكيم زيدا أن يستعد للذهاب مع العمة ، فقد وهب حكيم عمته زيدا .

قبلت السيدة خديجة هبة ابن أخيها ، وكانت مسرورة به ، فانضم إلى عبيد بيتها ، وكان زيد نشيطا متفانيا فى عمله مقدرا ، حسن المعاملة والعطف عليه ، ثم إنه صار معجبا بأخلاق وطباع سيده محمد حتى أصبح يقوم بخدمته وحده .

وكان موسم الحج فى مكة ، وخرج زيد ليرى الناس الذين يفدون على مكة للحج ، فوقع نظره على جماعة من أهل قبيلته ، فتعرف عليهم وتعرفوا عليه ، وأخبروه أن القبيلة ظلت تبحث عنه زمنا طويلا ، وما يزال أبوه ينتقل من مكان إلى مكان عله يعثر عليه .

ثم رجع القوم إلى بلادهم ، وكان أول شيء فعلوه أن أخبروا حارثة بقصة ابنه فأسرع هو وأخوه إلى مكة ، وتعرفا على بيت محمد بن عبد الله ، فأكرمهما ، ثم تكلما فى أمر زيد ، وعرضا على محمد استعدادهما لدفع ما يطلب منهما فداء لزيد .

قال محمد انه لا يريد فداء ولا مالا ، ولكنه يقترح حلا يصون على قبيلتهما الكرامة ، ويضمن لزيد حياة كريمة يعيشها فى حرية وسعادة .

وسألاه عن هذا الحل .

فقال .

إنه سوف يستدعى زيدا أمامهما ويخيره بين أمرين : إما أن يذهب معكما أو يبقى معى ، فإن اختاركما فليذهب معكما بلا فداء وإن اختارنى فهو لى .

« ووالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا »

سر الأب والعم بهذا العرض الكريم واعترفا بحسن الجميل ، وجاء زيد وخيره محمد بين أن يعيش معه أو يذهب مع أبيه وعمه .

لم يتردد زيد ، فقد اختار البقاء مع سيده محمد .
وكانت مفاجأة ، قال الوالد على إثرها :
ويحك يا زيد أتختار العبودية ، وتترك أباك وعمك وأهلك !!

لم يستطيعا أن يثنياه عن قصده ، وظل متمسكا بالبقاء مع سيده وكان لهذا وقع نبيل على نفس محمد ، فقد أخذ زيدا ومعهما الأب والعم ، وذهب إلى الحرم ونادى من حضر قائلا :

« اشهدوا : أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه » .
طابت نفس الأب والعم ، وهدأت ثورة غضبهما ، وأصبح من تلك اللحظة يدعى « زيد بن محمد » إلى أن جاء الإسلام وحرم التبنى .

لقد كانت السيدة خديجة تحب زيدا ؛ لأن زوجها كان راغبا فى بقائه معه ، لذلك فقد فرحت فرحا شديدا حينما عاد معه ، وقد سافر الأب والعم واستمر زيد يعد واحدا من أهل هذا البيت المبارك .

كان يعيش فى هذا البيت أولاد السيدة خديجة من زوجيها السابقين وقد جعلوا من محمد أبا لما كانوا يرون فيه من حب وعطف ، وعلى رأسهم هند بن خديجة من أبى هالة ، فقد عاش فى كنف محمد الذى كان يحبه ويرعاه ، وظل يفتخر بأنه ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخو فاطمة الزهراء وكان بليغا فصيحا ، فهو الذى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكرنا سابقا حينما طلب منه ابن أخته فاطمة الحسن بن على بن أبى طالب أن يصف النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الحسن فخورا بخاله وفصاحته .

لعل من أعظم ما حدث وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى بيته المبارك مع زوجه رضى الله عنها ينعم بما أعطاه الله ، وقبل البعثة بما يقرب من خمس سنوات اشتراكه فى بناء الكعبة ، ثم تخصيص الله له ، بأن يضع الحجر الأسود فى مكانه ، فيمنع الله به حربا كادت تقع بين أهل مكة .

فقد كان من أمر الكعبة أن امرأة كانت تبخر الكعبة ، فانطلقت شرارة

من نار البخور فتعلقت بالستائر فأحرقتها وأثرت فى البناء ، وما كاد القوم يجمعون أمرهم على تجديدها حتى أتى سيل عارم فتعدى الردم وسال من فوقه ، فصدع جدرانها واجتمع أهل مكة على تجديد البناء ، فجمعوا الأموال ، وابتاعوا الأخشاب ، وما يلزم للبناء والتعمير ، إذ كان ارتفاعها نحوا من سبعة أمتار .

ولما كان بناء الكعبة فيه شيء من البركة والتشريف فقد قسموا العمل فيما بينهم لتشترك فيه كل القبائل ، فكان ما بين الحجر الأسود إلى ركن الحجر لبنى عبد مناف ، والحجْر كله لبنى أسد وعبد الدار ، وبر البيت لبنى مخزوم ، وما بين اليمانى إلى الركن الأسود لسائر قريش .

وقد اشترك معهم محمد فى البناء على عادته مشاركة لقومه فى السلم والحرب .

تم البناء وجاء وضع الحجر الأسود ، واختلفت القبائل من قريش فيمن يضع الحجر الأسود فى مكانه ، ومن سيكون له شرف هذا الوضع ، وأرادت كل قبيلة أن يكون لها هذا الشرف ، واختصموا وكادت أن تقوم حرب من جراء ذلك فقد استعدوا للحرب ومضت أيام وهم على هذا الحال من النزاع والتطاحن ، وكان أبو أمية بن المغيرة المخزومى — والد أم سلمة إحدى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم فيما بعد — رجلا مسنا ومن زعماء قريش وكانت قريش تحترمه لفطنته وحسن رأيه ، فقام خطيبا ، فأثنى على قريش وما قامت به من جهود ، وما قدمت من نفقات عظيمة حتى بنيت الكعبة ، ووعظهم بألا يفسدوا هذا العمل الكبير بالشجار والتخاصم والحرب ثم ختم كلمته بقوله :

« يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم »

كان هذا الباب يعرف بباب بنى شيبة ، وهو الباب الذى يعرف الآن بباب السلام فطابت نفوسهم جميعا لهذا الاقتراح الذى بناه على ما يأتى به القدر واختيار الله ، ومن يسعده الحظ فيكون صاحب فضل فى حسم الخلاف ، ثم يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه .

صمت القوم ، وراحوا يترقبون الداخل من هذا البيت وتعلقت أبصارهم وقلوبهم بهذا الباب ، والكل يتمنى أن يكون الداخل من قبيلته وأهله حتى ينالهم هذا الشرف ، وإذا بمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب يطل فجأة من باب بنى شيبة ، فيصيحون كلهم فى نفس واحد :

هذا الأمين ، هذا محمد بن عبد الله ، رضينا به حكما .

فكر محمد بعقله المتزن ، ورأيه الصائب ، وما وفقه الله له ، فلم يتعصب لقبيلته ، ولم يختر أناسا بعينهم ، ولم يشرّف قوما دون قوم ، وإنما هداه الله إلى فكرة يرضى عنها الجميع ويحفظ لكل قبيلة من قبائل قريش كرامتها وعزتها . لقد خلع رداءه وبسطه على الأرض ، وحمل الحجر الأسود ، ووضعه عليه ، ثم طلب من رؤساء كل قبيلة أن يتقدموا ، ويمسك كل واحد منهم لطرف من أطراف هذا الرداء ثم طلب إلى الجميع أن يحملوا أطراف الرداء ، ويرفعوه معا فى وقت واحد ، فإذا وصلوا به إلى مستوى المكان المخصص له أخذ الحجر بيده الشريفة وزالت الشدة التى عاشوها أياما ، وفرحت السيدة خديجة فرحا شديدا حيث منعت الحرب على يد زوجها الحبيب ، فقد وفقه الله إذ تم على يديه إيقاف الحرب ، وذهاب الفتنة ، ولا شك أنه جدير بكل خير وفضل .

فى هذه السنة وقد بلغ محمد الخامسة والثلاثين من عمره المبارك انضم إلى هذا البيت الطفل على بن أبى طالب ، وصار واحدا من أهل هذا البيت الذى كان له أكبر الأثر فى حياته ، ففيه تعلم وتربى ، ودرج على مدارج الإيمان والهدى ، مما كان له عظيم النفع للإسلام والمسلمين ، فقام بدوره الخالد فى نصرة هذا الدين .

لقد أراد محمد أن يقدم عونا ومساعدة إلى عمه أبى طالب ، وهو الذى كان أحب الناس إليه وأقربهم إلى قلبه ، فقد كفله بعد جده عبد المطلب ، وضمه إلى عياله وأصبح واحدا منهم ، بل كان أكثرهم مكانة عنده ، فقد كان عمه كثيرا ما يؤثره على أولاده ، وكانت زوج عمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ابن عبد المطلب والدة على تشاطر زوجها أبا طالب حب محمد والعطف عليه ، وتقدمه على أولادها ،

كانت الأم الحنون التى تبنت محمدا بعد موت أمه آمنة بنت وهب فغمرته

بعطفها وحنانها مما خفف عنه كثيرا من آلام الاحساس بفقد الأم فى صغره .

لقد حان الوقت الذى يستطيع محمد أن يرد بعض الجميل إلى عمه أبى طالب ، الذى ورث عن أبيه عبد المطلب سقاية الحاج ، وزعامة بنى هاشم ، زيادة على أنه يرعى أسرة كبيرة وبيته يموج بالزوار والضيفان .

لقد كان يتاجر ويكسب الكثير أما الآن فقد تقدمت به السنون فقل الدخل ، وكثر الصرف ، وأصبح لا يجد مخرجا مما هو فيه فضيق ذات اليد جعله عرضة للهموم والآلام .

جاءته فكرة هى أن يذهب إلى عمه العباس ، وكان من أغنياء قريش ويملك المال الكثير ليقول له :

« إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه عياله ، فآخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ أنت رجلا فنكفلهما عنه »

ونال اقتراح محمد من نفس عمه العباس موقفا طيبا ، وسر بابن أخيه سرورا عظيما ، وأخذ بيده واتجها إلى أبى طالب ، وتكلما معه فى موضوعهما هذا ، وراحا يرجوانه أن يعطيهما ابنين من أولاده ، فيقيم أحدهما مع محمد ، ويقيم الآخر مع العباس ومازالا به حتى رضى ، ثم قال :

« إذا تركتما لى عقيلا ، فاصنعا ما شئتما »

فأخذ محمد عليا فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه ، وكان على ما يزال طفلا حيث كان يبلغ السابعة من عمره .

لقد فرحت السيدة خديجة به فرحا عظيما وأصبح واحدا من أولادها يقاسمهم الحياة وصار محل عناية ابن عمه ، يشرف على تربيته وتنشئته على الخلق الكريم ، فجعل على من محمد مثله الأعلى ، فهو يريد أن يكون مثله فى كل شىء يقتدى به فى كل ما يعمل ، ويتمثله فى أفعاله ، ويتكلم مثلما يتكلم ، ويتمنى أن يكبر ، وأن ينهج على منواله ، ويرتشف من ينابيع أخلاقه الكريمة .

أما السيدة خديجة فهى لا تنسى أبدا ما قام به أبو طالب من رعاية وعناية لزوجها الكريم ، وإنها لتحس إحساسه وتشعر نفس الشعور تجاه هذا العم

العظيم الذى أحاطه بكل ما يملك من الحنان والحب حتى صار رجلا .

ومثل هذا الشعور الجميل تحس به السيدة خديجة تجاه زوجة أبى طالب التى أعطت محمدا كل ما تملك من العناية به ، وخدمته ، والعمل على راحته لا فرق بينه وبين أولادها فطالما تمنت السيدة خديجة أن يسعدها الوقت فتقدم إليها شيئا تكافئها به على ما قامت به،وها هو على قد أتى إليها فليكن فى منزلة زينب ورقية وأم كلثوم والصغيرة فاطمة .

كان يعيش فى هذا البيت زهرات أربع زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة هن من ثمرة هذا الزواج الإلهى ، وكن يملأن هذا البيت سرورا وحبورا ، وقد درجن فى العز والرفاهية ، على ما عرف من تقاليد البيوت القرشية العريقة ، فالتمس لهن الواحدة بعد الأخرى خير المراضع ، حتى إذا أدركن سن الفطام كانت الأم العظيمة خير مربية لهن .

لقد نفضت يديها من التجارة منذ تزوجت محمدا وتركت له حرية التصرف فى هذه التجارة ، بما يراه ، وبما لا يشغله عن عبادته وخلوته وتفكيره .

نعم إنها متفرغة لبنيها ولزوجها فكانت تشرف على بناتها وتنشئهن تنشئة عالية تعلمهن ما ينبغى تعلمه لكى يعتمدن على أنفسهن فى هذه الحياة ، وحتى تستطيع كل واحدة منهن أن تكون سيدة فى بيتها ، وأن تقوم بواجبها إذا استقلت بنفسها ، فلا تكون عالة على غيرها ، بل تستطيع أن تسعد من تقوم بشئونهم .

لقد كان من عادة بيئة السيدة خديجة وتقاليدهم التى توارثوها قبل الإسلام أن يقبلوا على تزويج البنات فى سن مبكرة ، فيزوجونهن فى التاسعة أو العاشرة كما تزوجت — فى الغالب — هى رضى الله عنها ، ثم يزفونهن إلى الأزواج بعد فترة وغالبا ما تكون وجيزة .

والعادة المتبعة أن يبحث كل من يريد الزواج عن بيت طيب الأصل كريم المحتد ، يختار منه من يريد الزواج منها ، فإذا كان بين الأقارب مودة ومحبة وتآلف فإنهم يتمسكون بالزواج من هؤلاء القريبات ، ولقد كان بين هذا

البيت المبارك وبين الأقارب صلة وثيقة ومحبة زائدة ، يجتمعون عند السيدة خديجة ، لذلك وجدنا أختهاهالة ، وهى أقرب الناس إليها تريد أن توثق صلتها بأختها أكثر وأكثر فتتمسك بألا يتزوج ابنها إلا زينب بنت محمد وبنت أختها خديجة .

كان محمد يعرف جيدا ابنها أبا العاص الذى رغم صغره أصبح من تجار مكة ، ماله كثير ، وتجارته رابحة ، وأمانته اشتهر بها بين قومه إلى جانب الأصل الرفيع ؛ فهو ابن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ، ومن جهة الأم هو ابن هالة بنت خويلد بن أسد أخت خديجة ، لذلك ما كادت خديجة تخبر زوجها برغبة أختها وابنها بالزواج من زينب حتى أثنى عليه ووافق على هذا الزواج .

ونقلت السيدة زينب إلى بيت زوجها وابن خالتها وقد مرت بنا بعض الأخبار المثيرة التى كان بطلها أبا العاص وزينب .

عز على بنى هاشم أن تتزوج زينب من غير هاشمى ، وكانوا يرون أن لهم حقا فى أن يتزوج باقى بنات محمد من هاشميين ، لقد جمع بنو هاشم جمعهم وعلى رأسهم أبو طالب واتجهوا إلى بيت محمد ، ومعهم عبد العزى بن عبد المطلب عم محمد وزوجته أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس .

لقد جاءوا لخطبة رقية وأم كلثوم ابنتى محمد فلقد كان بنو هاشم يرون أنهم أحق ببنات محمد ــ وهو واحد من بنى هاشم ــ من غيرهم لذلك فقد طلب أبو طالب نيابة عن أخيه عبد العزى أن يتزوج ابناه عتبة وعتيبة ابنتى محمد رقية وأم كلثوم .

وما كان لمحمد وخديجة إلا أن يوافقا على هذه الخطبة ، فقد تزوجت رقية عتبة بن عبد العزى بن عبد المطلب ، وتزوجت أختها أم كلثوم عتيبة أخاه ، وبارك والدهما هذا الزواج ثم تركهما فى رعاية الله وانصرف إلى ما كان يشغله من عبادة وتأمل .

لقد تركتا البيت المبارك ، إلا أنهما سيعودان إليه فى أحداث عظيمة ستأتى بعد .

أما فاطمة وكانت صغرى البنات فقد ولدت وقريش تبنى الكعبة وذلك

قبل البعثة بخمس سنوات وقد استبشر بها أبواها ، واحتفلا بمولدها احتفالا عظيما ، وكانت تشبه الوالد شبها كبيرا .

كانت محل حب وتدليل من أخواتها ، فكن يلاعبنها ، ويشاركنها الحديث والمطعم والمشرب ، ولعل من حسن حظها أنها شبت وفتحت عينيها على الدعوة وهى تأخذ طريقها فى الحياة وتسير بالناس إلى خير الحياتين الدنيا والآخرة ، كانت أنس الرسول عليه الصلاة والسلام وسلواه بعد أن فقد ابنه عبد الله ، حتى إذا كبرت ورأت أعداء الدعوة وما يفعلونه بالنبى صلى الله عليه وسلم ، كان إذا خرج خرجت وراءه ، وكانت أحيانا ترد على أولئك الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول ، وكانت تزيل بيدها الشريفة ما يلقيه الأعداء على جسده الشريف ، وكانت أحيانا تبكى شفقة ومحبة للأب الرحيم فكان النبى صلى الله عليه وسلم يضمها إلى صدره ويقول :

« .... إن الله مانع أباك »

لقد قامت بدورها فى مكة ووقفت بجانب أبيها ، وكانت مكانتها عالية عنده فاستحقت أن تدعى (سيدة نساء العالمين)

كانت دائما بادية النحول والحزن الخفى وكان هذا مصدر الحب الكبير من والدها العظيم صلى الله عليه وسلم .

تقدم لخطبتها أبو بكر وعمر فردهما النبى صلى الله عليه وسلم ردا حسنا ، حتى إذا تقدم لخطبتها على بن أبى طالب فرح فرحا شديدا .

تمت الخِطبة ، وعقد النكاح فى رجب من العام الأول للهجرة وأصدقها أربعمائة مثقال فضة

احتفل بزواج على وفاطمة احتفالا كبيرا وأولم عمه حمزة بن عبد المطلب بجملين نحرهما فأكل كل من كان يومها بالمدينة ، وفى بيت فاطمة الجديد وبعد العشاء فى يومها الأول قصدها صلى الله عليه وسلم وتلا آيات من القرآن الكريم على كأس من الماء وأسقاهما إياه ... ثم دعا لهما فكان مما قاله : « اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى نسلهما »

ظلت موضوع عناية ورعاية والدها صلى الله عليه وسلم حتى إذا أراد على

ابن أبى طالب أن يتزوج عليها من ابنة عمرو بن هشام ، غضب النبى صلى الله عليه وسلم فصعد المنبر فى مسجده وكان الغضب باديا على وجهه الشريف ، ثم قال لأصحابه :

« إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإن ابنتى بضعة منى يريبنى ما أرابها ، ويؤذينى ما آذاها ، وإنى اتخوف أن تفتن فى دينها »

ولدت السيدة فاطمة رضى الله عنها ولدين وبنتين : الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ... كما أسماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا محل رعاية وحب جدهم صلى الله عليه وسلم .

كان يأخذ الحسن والحسين معه إلى السوق وإلى مجالس أصحابه .

كان يخطب صلى الله عليه وسلم مرة وهو على المنبر بالمسجد ، وأقبل الحسن والحسين وكانا طفلين ، فنزل من على المنبر يحملهما ويعود ليقول للناس :

صدق الله العظيم : (﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما) .

لم يترك الرسول صلى الله عليه وسلم الحياة حتى بشر ابنته فاطمة بأنها أول أهله لحوقا به فقد توفيت رضى الله عنها بعده صلى الله عليه وسلم بحوالى ستة شهور .

لقد كان يشغل صميم حياة ربة البيت رضى الله عنها أمر محمد ، وكانت تشعر شعورا عميقا أن أمرا عظيما سيحدث ، إنها تراقب رب البيت صلى الله عليه وسلم فتجد أحواله تتغير يوما بعد يوم ، وأنه سيقبل يوم ما قرب أو بعد على أمر كبير ، إنها لا تتدخل فى شئونه ، ولا تشير عليه بفعل شيء ما دام لم يعرض عليها حالا من أحواله ، إلا أنها المطيعة له فى كل ما يطلب ، لقد سهلت له الحياة التى لا يخالطها أدنى تعب ، وذللت له ما يجد من صعوبة أو مشاكل حتى لا يشغله شيء عما خلق من أجله .

كان يخلو للعبادة والتفكير والتأمل فى غرفته الخاصة به ، لاينازعه فيها آخرون ، بل ربما يُبْعَد كل من يحاول أن يقترب منها ، يحيط بها سياج من الهدوء والسكون ولا يدخل عليه أحد إلا إذا طلبه هو صلى الله عليه وسلم ، لم يشغل باله بأمور الدنيا كثيرا ، لقد كفته ــ رفع الله درجاتها فى عليين ــ كل هذا .

كان كثيرا ما يذهب إلى البيت الحرام فيطوف به ، وربما كان يطوف عدة مرات فى اليوم والليلة بعيدا عن الأصنام ، محتقرا لها ، وكان أحيانا يجلس قريبا من الكعبة يفكر ويناجى ربه ويدعو الله ما شاء له الدعاء .

وما أظنه فى فترة ما قبل الوحى اتخذ له فى عبادته مذهبا خاصا أو طريقا معينا ، وإنما هى هداية وتوفيق من المولى عز وجل .

كان كلما تقدمت به السن ازداد نسكا واختلاء وانصرف عن كل ما يعوق الروح عن التدرج فى الصعود والارتقاء نحو الهدف الذى كون له ، ولقد جعل لنفسه زمنا يترك البيت فيه ، بل ويترك مكة كلها ليتفرغ تفرغا كاملا للعبادة والتفكير .

لقد اتخذ لنفسه مكانا عاليا فوق جبل حراء بل أعلى مكان فيه لا يصل إليه المرء إلا بعد مشقة وتعب شديدين ذلك المكان هو « غار حراء »

كان يتخذ دائما شهر رمضان من أشهر العام لهذا الغرض النبيل فكان يبدأ هذا الشهر بالذهاب إلى البيت الحرام فيطوف سبعا ، ثم يتصدق بالصدقات الكثيرة ، ويطعم الطعام ، ثم يتجه إلى المكان الذى اختاره فى أعلى الجبل « غار حراء » وكان بالأمين قدرة فائقة وقوة زائدة ورغبة صادقة فى العبادة لا يقوى عليها إلا من أعطاه الله قوة أولى العزم من الرسل .

كانت السيدة خديجة تعد له الأكل والطعام الذى يصلح للبقاء مدة وكانت لا تتركه يذهب وحده ، فربما أرسلت معه من يحمل له الزاد ويعاونه على الصعود فإذا وصل إلى مكانه المقصود تركه فى رعاية الله .

كانت السيدة رضى الله عنها أحيانا تذهب معه إلى الغار ، وهذه المرافقة كانت لكى تعلم مكانه ، ولأنها تود ألا تفارقه ، فشدة الحب والحرص عليه

تجعلها تطلب اطمئنانا أكثر ، فتوصله متحملة المشاق والمتاعب الجسدية ، وما كان لها أن تذكر رأيا أو تنازعه مصلحة ، بل كل شيء تحت تصرفه تنفيذا لرغبته ، ونزولا على إرادته لأنها كانت مؤمنة إيمانا عميقا بكل ما يفعل .

رأت هذه الدار المباركة مولد طفلين عزيزين ، ولحكمة أرادها الله قد اختطفهما الموت وهما فى طفولتهما الأولى .

كان أول من بشر بمولده طفل سمى (القاسم) وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم ثم توفى بعد عام تقريبا من ولادته

وكان آخر من أنجبتهم السيدة خديجة رضى الله عنها مولودا أسموه (عبد الله) فقد ولد بعد البعثة بإحدى عشرة سنة ولذلك كنى بالطيب والطاهر تبركا بالعهد الجديد .

توفى عبد الله ولم يستكمل بعد عامين ، وقد حزنت رضى الله عنها لفقده حزنا شديدا ، ولكنها مشيئة الله الحكيم الخبير .

* * *

« أبشر يا ابن عم ، واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمـة »

خديجة بنت خويلد

السيدة خديجة والوحى

قارب سيدنا محمد بن عبد الله الأربعين من عمره المبارك ، وهو على حاله من التجارة لنفسه أو لزوجه ، أحيانا وحده ، أو يشترك مع بعض تجار قريش المعروفين بالصدق والأمانة .

لم يشغل باله بصنعة من الصناعات المعروفة عن قومه ، أو فن من الفنون ، ولم يتعلق بذيل رجل معروف من رجالات مكة ؛ ليصل عن طريقه إلى منصب أو مكانة مرموقة فى قريش ، ولم يتجه بتفكيره إلى أن ينضم إلى دار « الندوة » التى كانت أمل كل قرشى ؛ وقد كان الرجال ينتظرون بلوغهم سن الأربعين حتى يصبحوا أعضاء فى هذه الدار المرموقة .

أيضا لم يتول عملاً فى قريش ، ولم يحضر سامرا يسمر القوم فيه ، بل ولم يحاول أن يرى الرجال وهم مجتمعون فى دار الندوة كذلك لم يحضر اجتماعا ليلقى خطبة ، أو يحاول أن يلقى على أسماع أهل مكة قصيدة شعر فى غرض من أغراض الشعر ، أو مناسبة يتبارى فيها الشعراء بقول الشعر ، بل لقد عرف عنه أنه لم يقل بيتا واحدا من الشعر .

لم يظهر عليه رغبة أو محبة فى الرئاسة أو الشهرة أو البحث فى شئون السياسة العامة فى داخل البلاد أو خارجها ، ولا سعى لأمر يكسب به فخرا ، أو اشترك فى حرب يبتغى من ورائها كسب بطولة .

كذلك لم يتصل بكاتب من أولئك الذين يعلمون الخط ، أو بعالم من العلماء الذين لهم دراية وخبرة بعلم الجاهلية أو واحد من الذين قرأوا الكتب السابقة يهودية أو مسيحية أو غيرهما حتى أقرب الناس إليه وإلى السيدة خديجة من أمثال ورقة بن نوفل ، فلو اتصل به ، أو استمع إليه أو ناقشه فى أمر من الأمور لعُرِف ذلك ، واشتهر ، وتحدث به ، لكن ذلك لم يحدث لامع ورقة ولا مع غيره .

ظل صلى الله عليه وسلم فى فتوته وشبابه إلى بلوغ هذه السن يعيش فى داخليته مع عقيدة تنبع من وجدانه ، ومن إيمان خالص بالتوحيد لله وإفراد بالعبادة ، مبتعدا عن الشريك والمثيل والند مع الاحتقار الزائد لتلك الأصنام المحيطة بالكعبة والمنتشرة فى البيوت والتى يكاد يجمع أهل مكة على تأليهها .

كان دائم التفكير فى الأدلة التى تدل على وجود الله سبحانه وتعالى ، يجول ببصره فى ملكوته ، وينطلق بروحه الفياضة ، يحاول أن يصعد بها إلى عالم أسمى وأرفع ، يساعده على ذلك تكوين خاص ، أعده له الخالق سبحانه وتعالى ، وكلما أطال التفكير رقت له الحجب الكثيفة التى تحول بين عالم الأرض وعالم السماء .

كان فى ظاهره كما يقولون « أليف وحدة ، وسمير عزلة ، معروفا فى مجتمعه بالصدق والأمانة ، والأدب النادر الذى لم يسم إليه الشباب فى زمانه »

لم يعرف له طريق من طرقات مكة المتشعبة إلا طريق عمل متجها إلى البيت الحرام ليطوف بالكعبة ، وأحيانا يجلس بجوارها يناجى ربه ، ويتقرب إليه بالدعاء لينير له طريق المعرفة التى تشرح صدره وتيسر له الأمر وتكشف له عن كنه هذا الوجود ، وأحيانا كان يرى فى الطريق يسرع الخطوات إلى الجبل ليأخذ مكانه فى أعلى مكان فيه ، مكان لم يصل إليه عابد ، يشرف منه من بعيد على مكة وعلى البيت الحرام ، وهو بين التأمل والتفكير ، والعبادة والذكر ، ترعاه عين الله ثم عين خديجة التى ما غفلت عنه ، فلم تمض لحظة إلا وهو يمر على خاطرها ، وفى قلبها ، وفى عينيها ، وهى المحبة التى لا تعرف لهذا الحب حدودا ، يتربع فى قلبها الكبير ، فإذا كان معها فطرفها دائم التطلع إليه ، وإذا فارقها لوقت قد يذهب فيه إلى الغار ، فإما أن تذهب لتوصله ، وتجلس معه قليلا ، وتتمنى لو تبقى معه لا تفارقه ، لكنها تتركه وقلبها معلق به ، وصورته لا تغيب عنها ، وهى بين الحين والحين ترسل له الطعام أو ترسل إليه من يطمئنها عليه ويكر عليها الحديث عنه .

والزوج الحبيب مقدر للسيدة خديجة ما تقدمه ، تاركا نفسه وقلبه يرقيان بسرعة نحو الصفاء الروحى ، الذى يشعر به فى داخليته ، حتى أصبح لا يرى رؤيا فى المنام ، إلا رآها جلية كأنها تتم على الحقيقة فى اليقظة واضحة مثل فلق

الصبح ، وكان منشرح الصدر كلما تحققت له رؤيا ، ولقد استمرت الرؤيا الصادقة ستة أشهر قبل نزول الوحى .

أصبحت الخلوة جزءا مهما من حياته صلى الله عليه وسلم ، ففى البيت كان أكثر وقته معتكفا فى حجرته ، وقد يدفعه الشوق إلى الجبل فيرقى إلى الغار المحبب إليه وهو على حالة الصفاء الذى لا يعرف له نهاية ، فالاتصال بالعالم المحبب إليه يحتاج إلى مران روحى قوى ، وصبر وشدة احتمال فليس من السهل على آدمى أن يصعد مرة واحدة ، بل عليه أن يتحمل المشقة الكبيرة التى تحدث من جراء ذلك ، إلا أن فيما يعيش فيه من السعادة الأبدية ما يعوضه عما يلقاه من متاعب وآلام ، كل هذا مع إرادة الله وتوفيقه .

روى عن البيهقى قوله :

« مما لا شك فيه أن عبء النبوة ثقيل ، وشأنها عظيم ، والله سبحانه وتعالى لطيف بعباده ، خبير بضعف خلقه ، لذلك هيأ الله سبحانه وتعالى نبيه لتحمل تبعتها « بالتدريج »[1]

قال ابن عباس رضى الله عنهما :

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئا ، وثمانى سنين يوحى إليه وأقام بالمدينة عشرا[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ ، وانى لأعرفه إذا مررت عليه »[3]

وورد عن عروة مما نسب إلى السيدة عائشة رضى الله عنها :

أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كان أول شأنه يرى فى المنام ، فكان أول ما رأى جبريل بأجياد ، أنه خرج لبعض حاجته فصُرخ به يا محمد ...

---

(١) انظر هامش مغازى رسول الله ﷺ ص ١٠٠ .

(٢) انظر المرجع السابق .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٦ ومراجع أخرى .

يا محمد ... فنظر يمينا وشمالا ، فلم ير شيئا ثم نظر فلم ير شيئا ، ورفع بصره ، فإذا هو يراه ثانيا إحدى رجليه على الأخرى على أفق السماء

فقال : يا محمد جبريل جبريل يسكنه .

فهرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل فى الناس فنظر فلم ير شيئا ، ثم خرج من الناس ، ثم نظر مرة فذلك قوله عز وجل :

﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾(١)

وقالوا أيضا :

أول ما رأى أن الله عز وجل أراه رؤيا فى المنام فشق ذلك عليه فذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأته خديجة بنت خويلد فعصمها الله من التكذيب ، وشرح صدرها بالتصديق فقالت :

« أبشر فإن الله عز وجل لن يصنع بك إلا خيراً !! »

ثم أنه خرج من عندها ، ثم رجع إليها رأى بطنه شق ثم طهر وغسل ثم أعيد كما كان .

قالت : « هذا والله خير فأبشر(٢) » .

كل ما روى من هذا القبيل منه الثابت الصحيح المعروف ومنه ما روى بروايات مختلفة ، من طرق متعددة فيها شيء من الضعف ، أو من طرق متعددة يقوى بعضها بعضا ما هو إلا مقدمة وتمهيد لما سيأتى بعد .

فعندما بلغ صلى الله عليه وسلم تمام الأربعين ، وكان فى مكان وحدته وتعبده فى غار حراء وذلك فى يوم الإثنين السابع عشر من شهر رمضان الموافق لشهر يوليو من عام ٦١٠ للميلاد كما حققه أكثر المؤرخين وأكد كون هذه البداية فى شهر رمضان ... قوله تعالى :

﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾(٣)

---

(١) النجم ١ ــ ٢ مغازى رسول الله لعروة بن الزبير ص ١٠٠ وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة ٢ ــ ١١٩ .

(٢) مغازى رسول الله ص ١٠١ .

(٣) سورة البقرة ١٨٥ .

﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾[1]

﴿ حم والكتاب المبين . إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين ﴾[2]

جاءه الملك وقال له :

« اقرأ » قال عليه الصلاة والسلام :

ما أنا بقارئ

قال صلى الله عليه وسلم :

فأخذنى ، فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى .

فقال الملك :

اقرأ : قال صلى الله عليه وسلم :

ما أنا بقارىء :

قال : فأخذنى فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال الملك :

اقرأ فقال صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارئ

قال : فأخذنى الثالثة ثم أرسلنى

فقال الملك :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[3]

قال صلى الله عليه وسلم : فقرأتها .

قالوا : الغط : هو الضم والعصر ، وكأنه بهذا الضم والعصر يوصل إليه قوة تجعل الروحانية فيه أقوى من البشرية ليستعد لتلقى الآيات الإلهية .

ثم انتهى ، فانصرف عن النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة القدر ١ ــ ٣ .

(٢) سورة الدخان ١ ــ ٥ .

(٣) سورة العلق ١ ــ ٥ .

خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من الغار ، حتى إذا كان وسط الجبل سمع صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم إلى السماء ينظر .

فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول :
يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل .

قال صلى الله عليه وسلم : فوقفت أنظر إليه ، وما أتقدم ، وما أتأخر ، وجعلت أصرف عنه وجهى فى آفاق السماء ، فلا أنظر ناحية فيها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى فبلغوا أعلى مكان ، ورجعوا إليها ، وأنا فى مكانى ذلك ثم انصرف عنى .

لقد كانت السيدة خديجة ترى ما يعانيه زوجها الحبيب ، وتشعر أن أمراً مهما سيحدث فهى ترقب محمدا ، وتود لو كانت بقربه فى كل وقت ، فقد يحتاج إليها لحظة من اللحظات ، ولكنها لم تكن من الأنانية بحيث تريد أن تطلع على كل أحواله ، وليست محبة للاستطلاع ، أفتذهب إليه فى الغار ؟ لكنها لم تفعل وقد غاب عنها وقلقت عليه ، لكنها أرسلت رسلها للاطمئنان ، وربما قالت لهم : إن وجدتموه فلا تكلموه ، بل أسرعوا إلىّ لتخبرونى أنه موجود فى مكانه بالجبل .

وبينما كان بألها مشغولا ، وقد بدا عليها الاضطراب والقلق ، أقبل عليها محمد على غير عادة ، وقد تغير لونه ، يرجف فؤاده ، فأسرعت للقائه ، مرحبة به ثم قالت :

يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ، ورجعوا إلىّ .

أقبل محمد على خديجة يحدثها بما رأى وما شاهد ، وفؤاده يرجف ، وهى مقبلة عليه ، منصتة له تشجعه ، وتقوى من عزيمته ، وهو يرتجف ويقول :

زملونى .... زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال : لقد خشيت على نفسى .

ونظرت إليه السيدة التى وهبها الله الذكاء ، وكمال العقل وقوة الإيمان والفهم العميق للحياة ، وقانون الثواب والعقاب الأبدى الذى خلقه الله لهذه الحياة لتطمئنه ، وتبعده عن كل فكرة قد يظنها ضارة به ، تريد أن تقول له :

إن ما أنت فيه ما هو إلا سعادة أبدية ليس بعدها سعادة لقد أجملت كل هذا فى قولها :

« كلا ... والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتقرى الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر »

أى ليس هناك قوة تستطيع أن تضرك وأن تسيء إليك ، لأنك لا تفعل إلا الخير ، فأنت تصل الأقارب ولا تقول إلا صدقا وإنك لتطعم الضيفان ، وتساعد الكليل الضعيف والمحتاج ، وأنت سند للجميع على مصائب الأيام فمثلك لا يضام أبدا .

ثم أكملت حديثها قائلة :

« ابشر يا ابن عم ، واثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة »

رأت خديجة أن محمدا فى حاجة إلى النوم ، وأن النوم لا شك سيهدئ من روعه ، ويجعله أكثر راحة ، فيخفف عنه ما نزل به من الرعب والخوف الذى أصابه من جراء ما رأى وعلم .

فلما رأته قد استسلم لنوم عميق ، تركت العنان لنفسها لتراجع ذاكرتها ، وما كانت تشاهده عليه صلى الله عليه وسلم من صفات لم ترها ولم تسمع أن إنسانا قد أعطى مثل ما أعطاه الله وأن هذا ليس أمرا عاديا بل إنه يحمل سرا كبيرا ، لا تستطيع له تفسيرا أو بيانا

لقد امتلأ قلبها بالفرحة التى لا تدانيها فرحة ، ولم تكن خديجة امرأة محدودة التفكير ، ضيقة الأفق ، قاصرة العقل ، بل لقد بلغ بها الفهم الواعى والدراسة العميقة لكل ما سمعته من ابن عمها ورقة بن نوفل ومن غيره بل ومما نقله بعض عامة قريش من الذين سمعوا ما قاله علماء اليهود والنصارى من أن

الله سيرسل نبيا من قريش يهدى الناس إلى الدين الحق ، لقد كان إلهامها الصادق ، ونفسها الشفافة الصافية ، تؤكد لها أن محمدا سيكون نبى هذه الأمة ، ولكنها لا تريد أن تسبق بالقول ، وإنما تنتظر الواقع الآتى ، وإن موعده الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟

كانت تردد اسم « جبريل » الذى نطق به محمد وتسمعه لأول مرة ، فهى لم تسمعه إلا من محمد ، فلا بد أن تسأل عنه ، ومن ستسأله ؟

إنها تريد أن تعرف من كل من له صلة بالكتب السماوية عن هذا الاسم ، إنها لا تشك أبدا فيما قاله محمد ، ولكنها تريد علما أكثر ومعرفة .

يذكر ابن دحية أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبرها بجبريل ، ولم تكن قد سمعت به قط ، كتبت إلى بحيرى الراهب ، فسألته عن جبريل .

قال لها :

قدوس ... قدوس ... يا سيدة نساء قريش ، أنى لك بهذا الاسم ؟

فقالت : بعلى وابن عمى أخبرنى بأنه يأتيه

فقال : إنه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وإن الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ، ولا أن يتسمى باسمه .

وقيل أيضا : إن خديجة أسرعت إلى عداس ، وكان نصرانيا من أهل نينوى قرية سيدنا يونس عليه السلام .

قالت له :

يا عداس أذكرك بالله إلا ما أخبرتنى . هل عندكم علم عن جبريل ؟

فقال عداس :

قدوس قدوس ما شأن جبريل بهذه الأرض التى أهلها أهل أوثان .

فقالت : أخبرنى بعلمك فيه .

قال :

هو أمين الله بينه وبين النبيين ، وهو صاحب موسى وعيسى عليهما السلام .(١)

---

(١) مغازى رسول الله ﷺ ص ١٠٢ .

وكان عداس هذا شيخا راهبا كبير السن ، قد وقع حاجباه على عينيه من الكبر ، وأن خديجة قالت له : عم صباحا يا عداس

فقال :

كأن هذا الكلام كلام خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش والقصتان وردتا فى بعض كتب السيرة ، وهما إن دلتا على شيء فإنما تدلان على ما نقله الرواة من اهتمام السيدة خديجة بما قاله محمد .

والرواية التى أجمعت عليها كتب السنة والسيرة تقول :

إن خديجة حينما سمعت ما سمعت من زوجها جمعت ثيابها ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، فأخبرته بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما رأى وسمع .

« قال ورقة بن نوفل :

قدوس قدوس[1] والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاء الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة »

قولى له : فليثبت .

رجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة بن نوفل .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل ، وهو يطوف بالكعبة فقال :

يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ورقة :

والذى نفسى بيده إنك نبى هذه الأمة ، ولقد جاء الناموس[2] الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذَّبَنَّه ولتؤذَيَنَّه ولتُخرجَنَّه ولتقاتَلَنَّه

---

(١) قدوس ، قدوس أى طاهر وأصله من التقديس وهو التطهير .

(٢) الناموس فى الأصل ، صاحب سر الرجل من خيره وشره ، فعبر عن الملك الذى جاءه بالوحى .

ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا تعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

كانت السيدة خديجة واثقة كل الثقة من نبوة زوجها صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يدانيها شك بعد أن عاشرته وعرفت عنه الكثير ، إلا أنه أحيانا كان يقول لها :

أخشى أن يكون ما بى شيء آخر وأن الذى يأتينى هو ممن يتعوذ بهم الكهان .

لقد شغله هذا الأمر وأهمه فأرادت السيدة رضى الله عنها أن تمحو من تفكيره ما يمر بخاطره ، وأن تبعد عنه هذه الأوهام ،وأن تؤكد له أن الذى يأتيه ما هو إلا ملك كريم من عند الله سبحانه وتعالى

قالت خديجة :

أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك قال : نعم .

قالت : فإذا جاء ، فأخبرنى به

فجاءه جبريل كما كان يصنع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة يا خديجة هذا جبريل قد جاء لى .

قالت : قم يا بن عم فاجلس على فخذى اليسرى فقام صلى الله عليه وسلم وجلس عليها

قالت هل تراه ؟

قال : نعم

قالت : فتحول فاجلس على فخذى اليمنى فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذها اليمنى

قالت له : هل تراه ؟

قال : نعم

قالت : فتحول فاجلس فى حجرى

فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس فى حجرها

قالت : هل تراه ؟

قال : نعم

فتحسرت وألقت خمارها ، ثم قالت :

هل تراه ؟ قال : لا

ولقد قالوا : إن المَلك يختفى إذا كشفت المرأة رأسها بخلاف الشيطان فإنه يبقى فى مكانه ، ولما كانت خديجة تعرف ذلك فقد قالت فى فرح وسرور .

يا ابن عم اثبت وأبشر فوالله إنه لملك ، وما هو بشيطان .

قال ابن إسحاق :

وقد حدثت عبد الله بن حسن هذا الحديث فقال :

سمعت أمى فاطمة بنت حسين تحدث بهذا الحديث عن خديجة إلا أنى سمعتها تقول :

أدخلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وبين درعها فذهب عند ذلك الملاك .

فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا لملك وما هو بشيطان .

لقد شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسعادة التى لا تدانيها سعادة ، عندما اتصل بالعالم الإلهى ، رغم ما يكابده من شدائد ، وإنها لمواقف روحية ، تهون فى سبيلها جميع الصعاب مهما بلغت شدتها ، ويتحمل من أجلها كل مالا يطيقه البشر عادة لقد أصبح يجد فى نفسه القوة والشجاعة ليقابل الملك فيستمع إليه ، وينفذ كل ما يطلب منه .

لقد رجع إلى الغار ، وكله أمل أن يرى جبريل عليه السلام ، وأن يكلمه ، ويستمع إليه ، إنه يريد أن يشعر بالسعادة التى عاشها معه ، وأن يستمع إلى صوته ، لكنه لم يأت ، ومضت مدة ، فأخذ الحزن منه مأخذه ، وظن فى نفسه الظنون ، إلا أنه ظل يعيش مع التجربة وفى نفسه ذكرى طيبة منها ، وينتظر من وقت لآخر أن يأتيه الملك .

وطالت المدة ، لكنه كان يعاود الذهاب إلى المكان الذى قابله الملك فيه وهو « غار حراء » وينتظر أوبة الملك ، حتى بلغ به الحزن مبلغه ، وكان كلما

وصل إلى القمة لكى يرمى نفسه ، ظهر له جبريل وقال :

يا محمد ، إنك رسول الله حقا ، فيسكن جأشه ، وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحى ، عاود التفكير فى التردى من فوق الجبل فيظهر له المَلَك ، فيرجع عما يفكر فيه .

كان يرجع إلى الزوجة الحنون ويحكى لها كل ما حصل له ، وما تحدثه به نفسه ، كان يكرر عليها ما يجول بخاطره من أفكار ، ثم يستسلم للحزن العميق .

لكن السيدة خديجة رضى الله عنها تهون عليه الأمر ، وتشجعه على أن يتحمل عبء ما يقوم به ، وما يتدرب عليه وتدعوه إلى الصبر والتروى ، ولقد ثبت بالدليل القاطع أنه ملك ، وأنه جبريل ، وأن الشيطان لا يتمثل به أبدا وأن ربه لن يقليه أبدا ، وإنما تأخر مجىء الملك إنما هو لحكمة يعلمها الله .

روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

جاورت بحراء شهرا ، فلما قضيت ، هبطت ، فاستبطنت الوادى ، فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا ، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ، ونظرت أمامى فلم أر شيئا ، ونظرت خلفى . فلم أر شيئا ، ثم نوديت ، فرفعت بصرى إلى السماء فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى ، فجثيت فرقا حتى هويت إلى الأرض فرجعت حتى أتيت خديجة فقلت :

دثرونى ..... دثرونى ، وصبوا علىّ ماء بارداً(١)

ويقال إن السيدة خديجة رضى الله عنها بعد أن قامت بما طلبه منها ، بأن لفته فى الثوب ، وصبت عليه الماء الذى أراده ، طلبت إليه أن ينام حتى يستريح ويذهب ما به ، فأغمض عينيه ، ونام ، وكانت رضى الله عنها تتردد على غرفته لتطمئن عليه .

وبينما هو فى هدأة النوم ، إذ به اهتز ، وثقل تنفسه ، وبلل العرق جبينه ،

---

(١) سبيل الهدى والرشاد ح ٢ ص ٣٦٣ .

يقوم ليستمع إلى الملك يوحى إليه :

﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر ، ولا تَمْنُن تستكثر . ولربك فاصبر ﴾(١)

« يا أيهاالمتلفف بثيابه عند نزول الوحى عليه ، قم وحذر الناس من عذاب الله ، إن لم يرجعوا عن غيهم ، وما كان يعبد آباؤهم ، وخص الله بالتعظيم ، ولا تشرك معه فى ذلك غيره ، وطهر ثيابك من النجاسة أو قصر خلاف جر العرب ثيابهم للخيلاء ، فربما أصابتها النجاسة، لتكون مستعدا للوقوف بين يدى الله إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذرا نجسا ، وداوم على ترك عبادة الأوثان ، واعمل الخير والمعروف لا تنتظر عليه جزاء من أحد ، فهذا ليس شأن الكرام ، واصبر من أجل الله على إيذاء قومك لك حينما تدعوهم إلى الله »(٢)

ولقد علل الاسماعيلى فتور الوحى وغيبته فكان مما قال :

« كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحى ليتدرج فيه ، ويتمرَّن عليه ، فشق عليه فُتُورُه إذ لم يكن خُوطب عن الله تعالى بعدُ : إنك رسول الله ومبعوث إلى العباد ، فأشفق أن يكون ذلك أمراً بدىء به ، ثم لم يُرد استتمامه ، فحزن لذلك ، حتى إذا انْدرج على احتمال أعباء النبوة والصبر على ثِقل ما يَرِد عليه فتح الله له من أمره بما فتح »(٣)

ورأته خديجة كذلك ، فازداد إشفاقها ، وتقدمت إليه فى رقة وضراعة أن يعود إلى فراشه ، وأن ينام ليستريح ، فكان جوابه — أو كما قال — انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس ، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته .

فمن ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب لى ؟

تتابع الوحى ، فيقال إنه نزل بعد هذه السورة قوله تعالى :

(١) سورة المدثر ١ —٧ .
(٢) انظر سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣٦٢ .
(٣) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣٦٨ .

﴿ والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث ﴾

قالوا فى تفسير السورة :

يقسم له ربه وهو الذى أكرمه بما أكرمه بأول النهار أو النهار كله ، وبالليل إذا سكن ما تركك يا محمد ربك ، وما بغضك وأن الآخرة خير لك من الدنيا لما فيها من الكرامات ، ولسوف يعطيك ربك فى الآخرة من الخيرات عطاء جزيلا فترضى به .

لقد وجدك يتيما بفقد الأبوين ، فضمك إلى جدك عبد المطلب ثم إلى عمك أبى طالب ، ووجدك ضالا عما أنت عليه من الشريعة فهداك إليها ووجدك فقيرا فأغناك غنى حقيقيا وهو غنى النفس فليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس .

ويوصيه ربه باليتيم الذى فقد أباه فلا يستولى على ماله ، وما سيملكه وكذلك بالسائل فلا يزجره ، ولتتحدث دائما بنعم الله عليك ، وفى مقدمة النعم نعمة النبوة ، وخطاب الله سبحانه وتعالى هو خطاب لأمته فليأتمروا بما أمر به نبيهم صلى الله عليه وسلم .

* * *

« وآمنت به خديجة بنت خويلد ، وصدقت بما
جاء به من الله ، وآزرته على أمره ، فكانت
أول من آمن بالله ورسوله »

ابن اسحاق

السّيدة خديجة أول من آمن بالإسلام

حينما قص الرسول صلى الله عليه وسلم على السيدة خديجة رضى الله عنها ما رأى وسمع فى غار حراء لم تنزعج لهذا الحديث ، ولم تضطرب لغرابة ما يحدث به زوجها ، فلم تسمع من قبل بمثل ما تسمع به الآن ، وبالتالى لم يخالجها أدنى شك فى صدق ما يقوله محمد ، ولم تظهر على وجهها علامة استفهام تعبر بها عن حيرة فى النفس ، ولم يخامرها شك فى أن الذى جاءه ملك من عند الله سبحانه وتعالى .

لقد سارعت إلى التصديق بإيمان الواثق المؤمن المتبصر بنور الهداية المطلع على بواطن الأمور ، الموقن بنتيجة ما يقوم به محمد من عمل وتفكير وقيام وصلاة ، وكأنها درست هذا الأمر مسبقا ، فقد بدت عليها السعادة والفرح العظيم ، فقالت ما قالت من منطلق الواثق المتأكد .

ولما أمره ربه بالإنذار ، فكر فيما يطلبه منه ربه ، ولكن بمن سيبتدئ ؟ ومن سيطيعه فيما يدعو إليه ؟ وهل سيتخلى الناس عن معتقداتهم وآلهتهم ؟

وبينما هو يفكر وقد ألم به شيء من الهم والحزن ، استمع إلى صوت السيدة أم المؤمنين وهى تقول :

اسمع يا ابن عم فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إليها فقالت :

« أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله »

فما إن أتمتها حتى ابتسم صلى الله عليه وسلم ، ونظر إلى أعظم زوجة فى هذه الدنيا ، فرحل عنه كل ما كان يساوره من هم ، وذهب ما به من حزن ، وتفتح الأمل أمامه ، وأشرقت الدنيا فى وجهه الشريف .

وهكذا كانت السيدة خديجة عظيمة فى الجاهلية ، وكانت أعظم فى الإسلام وكان إسلامها من أهم الحوادث فى تاريخ الدعوة إلى الله .

قال ابن الأثير :

« خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين ، لم يتقدمها رجل أو امرأة »

وقال ابن إسحاق :

« وآمنت به خديجة بنت خويلد ، وصدقت بما جاء به من الله ، وآزرته على أمره ، فكانت أول من آمن بالله ورسوله ، وصدقت بما جاء به فخفف الله بذلك عن رسوله ، لا يسمع بشيء يكرهه من رد عليه ، وتكذيب له فيحزنه ذلك إلافرّج الله عنه بها ، إذا رجع إليها تثبته ، وتخفف عنه وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس يرحمها الله تعالى »(١)

إنه إيمان السيدة خديجة التى عرفت الله سبحانه وتعالى ، وعرفت فضله وكرمه عليها وعلى زوجها ، فاطمأن وهدأ ، واستراحت نفسه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج إلى أعالى مكة ، فأتاه جبريل عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ليريه كيفية الطهور للصلاة ، ثم توضأ الرسول كما رأى جبريل يتوضأ ، ثم أقام به جبريل فصلى به ، وصلى الرسول بصلاته ، ثم انصرف جبريل وأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن تكون زوجته الحنون أول أهل الأرض تعلما للوضوء والصلاة فأقبل عليها وهى فى بيتها تنتظر رجوعه صلى الله عليه وسلم .

قال لها عليه الصلاة والسلام :

سأعلمك شيئا علمه لى جبريل ، فسرت سرورا عظيما ، وأسرعت تعد الماء الذى يتوضأ به ، فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامها ليريها كيف يكون الطهور للصلاة ، كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ رسول الله ثم صلى كما صلى به جبريل فصلت بصلاته(٢) .

كانت الصلاة قبل الإسراء وقبل فرض الصلاة بأوقاتها الخمسة ، صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢٤٤ .

قالوا : ويشهد لهذا القول ، قوله سبحانه وتعالى :

﴿ **وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار** ﴾(١)

أقبلت السيدة خديجة على صلاتها فرحة مسرورة تشكر الله أن هداها إلى الطريق المستقيم ، وإلى عبادته سبحانه وتعالى

ثم أرادت السيدة خديجة ألا تحرم بناتها نعمة الإيمان بالله ، وتصديق ما جاء به الرسول ، وأن يكن فى أوائل المؤمنين بالدعوة ، ولا أستبعد أنها جمعت بناتها وشرحت لهن ما جاء به والدهن من عند الله سبحانه وتعالى ، من إفراد الله بالعبادة ، ومن الشهادة بأنه واحد لا شريك له ، وأن محمدا رسول الله أرسله ربه بالهدى ودين الحق .

ولقد استجابت لها السيدة زينب ورقية وأم كلثوم ، وما أراها إلا قد أوصتهن أن يكتمن ذلك عن البيتين اللذين يعيشان فيهما حتى يظللن فى أمن وهدوء ، وحتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

أما الصغيرة فاطمة فما أشك فى أن أمها قد لقنتها الشهادتين وكانت ترددهما فرحة فى كل وقت وفى كل مكان بالبيت .

كانت السيدة خديجة لا تترك الرسول صلى الله عليه وسلم يصلى وحده ، بل كانت دائما تترقبه وهى على وضوئها فإذا أراد الصلاة فإنها تصلى خلفه ، وترى فى ذلك فضلا من الله ونعمة ، وكانت أحيانا تخرج معه إلى المسجد الحرام فإذا صلى صلت خلفه ، وقد امتلأ قلبها بالإيمان بالله ، وكانت هده الصلاة فى سرية ما أمكن

رأى على بن أبى طالب ابن عمه والسيدة خديجة وهما يصليان ، فقال علىّ رضى الله عنه : ما هذا يا محمد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : دين الله الذى اصطفى لنفسه ، بعث به رسله ، وأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته ، وكفر باللات والعزى (٢) .

---

(١) سورة غافر ٥٥ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣١٤ .

فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمراً حتى أحدث به أبا طالب .

كره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له : يا على إذا لم تسلم فأكتم هذا .

مكث عليٌّ على تلك الحال ليلة ثم إن الله تبارك وتعالى ، أوقع فى قلب علىّ الإسلام فأصبح غاديا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :
ماذا عرضت علىّ يا محمد ؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد
ففعل علىّ رضى الله عنه وأسلم .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج علىّ معه مستخفيا من عمه أبى طالب ، ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه ، فيصليان الصلاة فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا .

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن أخى ما هذا الدِّين الذى تدين به ؟

قال صلى الله عليه وسلم :
أى عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ورسله ودين أبينا ابراهيم ، فلو آمنت به قال أبو طالب :

أى ابن أخى ، إنى لا استطيع أن أفارق دين آبائى ، وما كانوا عليه .

أما زيد بن حارثة ، فقد رأى أمورا لم تكن موجودة من قبل ، ورأى أن السيدة خديجة تشارك زوجها فى بعض التسبيحات ، وفى السجود ، وأن عليًّا أحيانا يشاركهما ، لكنه لم يسأل ، ولم يتدخل فى أمور قد لا تعنيه .

رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأن علامة استفهام على وجهه ، فعرض عليه أمر الدين ، والدعوة لله وحده لا شريك له ، والإيمان بأنه رسول

من عند الله ، وأن يطهر نفسه وعمله من كل شريك ، وأن يفرد الله بالعبادة ، فاستجاب زيد ونطق بالشهادة ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك فقد فرحت السيدة خديجة رضى الله عنها بأن هدى الله ريدا إلى الإيمان به وبرسوله .

سرت سيرة هذا الدين على الألسن وعرف الناس أن محمدا يدعو إلى أمر جديد ، وكثر تردد النبى صلى الله عليه وسلم على البيت الحرام والصلاة فيه ، وكانت السيدة خديجة كثيرا ما تلحق به لتكون معه فى الصلاة وأحيانا كان على ينضم إليهما .

وما يحكيه لنا عفيف الكندى يعطينا صورة لمعرفة الناس بأمر هذا الدين فقد قابله الذين عرفوه فى أول الأمر بانطباعة تختلف من شخص لآخر ، فمنهم من يعلم فيسرع لمعرفة ما عليه هذا الدين ، وقد يؤمن بما جاء به سرا ، وقد لا يؤمن فمثلا العباس بن عبد المطلب يعلم جيدا ما عليه ابن أخيه ، لكنه لا يقبل على الإيمان به ، بالرغم من أن زوجته مؤمنة بما جاء به الرسول ، إلا أنه يظل صامتا ، فلا يسلم إلا بعد سنوات طويلة ، يوم أن أتى رسول الله من المدينة لفتح مكة .

أما عفيف هذا فقد أسلم عن إيمان وعقيدة راسخة بما رأى وسمع من العباس

قال عفيف : كنت تاجرا قدمت الحج ، وزرت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة ، وكان صديقى عرفته ، يختلف إلى اليمن يشترى العطر ويبيعه أيام الموسم[1] ، فبينا أنا عند العباس بمكة فى المسجد إذا رجل بلغ أشده خرج من خباء يصلى ، ثم قام يصلى إلى الكعبة ثم خرج غلام وقام إلى جنبه يصلى ، ثم جاءت امرأة فقامت خلفهما ، ثم ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة ... فقلت ما هذا يا عباس ؟

قال العباس : هذا محمد بن عبد الله أخى ، يزعم أن الله بعثه رسولا وهذا ابن أخى على بن أبى طالب وهذه امرأة محمد خديجة بنت خويلد ، ولم يتبعه إلا

---

(١) موسم الحج .

امرأته وابن عمه ، والله ما على الأرض كلها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة » (١)

ثم أسلم أول صديق للرسول صلى الله عليه وسلم وهو أبو بكر الصديق وهو من هو عند أهل مكة ، فهو على سعة من المال ، وكرم الأخلاق ومن رؤساء قريش ، وله مكانة عظيمة عند قومه . يأخذون رأيه فى أمورهم ، ويستعينون به فيما يصادفهم من مشاكل وملمات ، وهو الوفى الصادق المخلص ، من أعلم القوم بأنساب العرب ، معروف بتفسير الرؤى مفطور على الصدق والإخلاص والشرف والأمانة وعلى حبه واحترامه لمحمد قبل أن يبعث .

كان قد سمع همساً من ورقة بن نوفل مفاده أن محمدا قد أرسل كما أرسل موسى عليه السلام ، وبينما هو يفكر فى اجتلاء هذا الأمر من مصدره مر على حكيم بن حزام ابن أخى السيدة خديجة فى بيته لأمر ما وجلس ليتحدث معه وبينما هما فى حديثهما إذ دخلت فتاة أتت من بيت خديجة تقول له :

إن سيدتى تقول لك : إن زوجها مرسل مثل موسى ، ولم يصبر أبو بكر حتى يسمع الإجابة ، ولكنه أسرع إلى بيت محمد ليقابله ويعلم منه الخبر .

سأل أبو بكر الرسول صلى الله عليه وسلم عما وصل إلى علمه ، فقص عليه أمر الوحى ومجيئه بالرسالة والتبليغ .

فقال أبو بكر : صدقت بأبى أنت وأمى وأهل الصدق ، فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

قيل لابن عباس من أول الناس إسلاما ؟
فقال أما سمعت قول حسان بن ثابت :

إذا تذكرت شجوا من أخى ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها بعد النبى وأوفاها بما حملا

---

(١) تاريخ الطبرى ح ٢ ص ٣١١ وكذلك فقد ورد فى كتب السيرة ذكر صلاة الثلاثة الرسول ﷺ وكذلك السيدة خديجة وعلى رضى الله عنهما .

الثانى التالى المحمود مشهده   وأول الناس منهم صدق الرسلا

وقال صلى الله عليه وسلم :
« ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر »

ولقد فرحت السيدة خديجة بإسلامه فرحا عظيما ، فهى تعلم مكانته من قومه ، وتعلم ثراءه ، وخلقه وفصاحته وعلمه وأدبه ، وصداقته وحبه لزوجها ، ثم هى تعلم أيضا أن إسلامه سيكون له وزن ثقيل ، وأثر كبير فى نشر الإسلام ودخول الكثير بسببه فى الدعوة إلى الله .

لقد سمع أبو بكر من الرسول صلى الله عليه وسلم حديث الوحى وسمع منه ما أنزل من آيات وسور القرآن الكريم ثم انصرف وهو أكثر إيمانا واستعدادا للتضحية فى سبيل الله .

قال ابن إسحاق :
« فلما أسلم أبو بكر رضى الله عنه ، أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله سبحانه وتعالى ، وكان رجلا مؤلفا لقومه محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق حسن ومعروف ، وكان قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ، ويجلس إليه »

ولقد كان لعثمان صداقة بأبى بكر الصديق ، وكان محبا للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان معجبا بأخلاقه ، ومعاملته للناس ، وكم تمنى أن يتزوج إحدى بناته ، وقد قالوا :

عندما أنكح النبى صلى الله عليه وسلم ابنتيه لابنى أبى لهب عتبة وعتيبة أصابته حسرة ، وقد عبر عثمان عن ذلك فى إحدى مقولاته فقال :
« كنت بفناء الكعبة فقيل إن محمدا زوج عتبة رقية ، فدخلتنى حسرة ألا أكون قد سبقته إليها ، فانصرفت إلى منزلى لأجد خالتى سعدى بنت كريز الصحابية العبشمية ، فأخبرتنى أن الله أرسل محمدا ... وقال إنها حثته على اتباعه ، وإن لم تكن قد ذكرت لمحمد إسلامها »

ثم قال :

« وكان لى مجلس من الصديق فأصبته فيه وحده فحثنى الصديق على الإيمان »

وقال : ومر النبى صلى الله عليه وسلم ومعه علىّ فقام أبو بكر فسار فقعد النبى صلى الله عليه وسلم ثم أقبل علىّ ، فقال :

أجب الله تعالى إلى جنته ، فإنى رسول الله إليك ، وإلى جميع خلقه فوالله ما تمالكت حين سمعته أن أسلمت ثم لم ألبث أن تزوجت رقية »

وأسلم بعد ذلك الزبير بن العوام وهو ابن آخر لأم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، فهو ابن العوام بن خويلد ، وأمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبى صلى الله عليه وسلم ولعل السيدة خديجة رضى الله عنها قد سبقت فدعت ابن أخيها إلى الإسلام فاستجاب لها .

وكذلك أسلم مع السابقين سعد بن أبى وقاص الزهرى ، وجده يدعى وهيب وهو عم السيدة آمنة بنت وهب أم النبى صلى الله عليه وسلم .

لقيه أبو بكر رضى الله عنه فدعاه إلى الإسلام ورغبه فيه وحثه عليه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأله عن أمره ، فأخبره ، فأسلم وكان عمره ١٩ سنة ، وهو من بنى زهرة ، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقبل عليه سعد :

هذا خالى فليرنى امرؤ خاله

ولقد كرهت أم سعد إسلامه وهى حمنة بنت أبى سفيان بن أمية فقالت له :

يا سعد بلغنى أنك قد صبأت ، وكان باراً بها ، فقالت :

ألست تزعم أن الله يأمرك بصلة الرحم ، وبر الوالدين .

قال نعم .

فقالت : والله لا أكلت طعاما ، ولا شربت شرابا حتى تكفر بما جاء به محمد وتمس أسافا ونائلة .

كانوا يفتحون فاها فى مدة حلفها ثم يلقون فيه الطعام والشراب لكن

سعداً أبى أن يمتثل لقولها ، وهى مصرة على عدم الأكل والشرب فأصبحت وقد خمدت ، ثم مكثت يوما وليلة لا تأكل ولا تشرب .

قال سعد : « فلما رأيت ذلك قلت لها : تعلمين والله يا أمه لو كان لك مائة نفس تخرج نفسا نفسا ما تركت دين محمد فكلى إن شئت أو لا تأكلى فلما رأت ذلك أكلت »

جاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه أمر أمه فنزل فى ذلك قول الله تعالى :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما . وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾[1]

ولم تهدأ ثائرة أم سعد ، فكانت تقف على باب بيتها وتصيح قائلة : « ألا أعوان يعينوننى عليه من عشيرتى أو عشيرته فأحبسه فى بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث »

كانت تلقاه بالبشر مرة وتلقاه بالشر مرة أخرى وتعيره بأخيه عامر حتى إذا أسلم عامر لقى من أمه ما لقى أخوه ، حتى ترك مكة وهاجر إلى الحبشة .

ومن السابقين طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمى القرشى ، وكان قد عرف من الرهبان ذكر الرسول وصفته ، فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به ، ورأى الدين متينا بعيدا عما عليه العرب من المثالب بادر إلى الإسلام .

وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه من السابقين ، كان إسلامه مع سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر ، كان يرعى الغنم فى مطلع شبابه ، وكان محبا لحفظ القرآن ، وكان كلما نزلت آية ، أسرع إلى تلقيها وحفظها حتى كان من أكثر الصحابة حفظا .

---

(١) سورة لقمان ١٤ ـــ ١٥ .

كان شديد اللحوق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يلج عليه بابه ، ويلبسه نعليه ، ويمشى معه أو أمامه ، ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام وكان يعرف بصاحب السواد والسواك ، وكان الغرباء الوافدون على بيت الرسول يحسبونه من أهل بيت النبى مما يرون من دخوله على النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن الأولين السابقين فى الدخول إلى الإسلام خالد بن سعيد بن العاص ابن أمية بن عبد شمس الأموى القرشى . كان أبوه سيد قريش إذا اعتم لم يعتم قرشى إجلالا له ، وكان خالد بن سعيد قد رأى فى منامه أنه سيقع فى هاوية ، فأدركه رسول الله وخلصه منها ، فجاء إليه وقال إلام تدعو يا محمد ؟

قال : أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع .... فأسلم رضى الله عنه ، وأرسل إليه أبوه فانتهره وضربه بمقرعة كانت فى يده حتى كسرها على رأسه وقال له :

اتبعت محمدا وأنت ترى خلافه لقومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم . اذهب يالكع أنى شئت والله لأمنعك القوت ، فطرده ، وقاطعه وأمر إخوته بمقاطعته ، ومازال غاضبا عليه فآواه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى هاجر إلى الحبشة

وكذلك أسلم جمع من سادة مكة نذكر منهم أم الفضل لبانة بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب ، وأسماء بنت أبى بكر ، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى القرشى ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله وعثمان بن مظعون الجمحى القرشى وأخواه قدامة وعبد الله ، والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى القرشى صاحب الدار المشهورة التى لعبت دورا كبيرا فى بدء الرسالة حينما كانت الدعوة سرية حيث كان المسلمون يجتمعون بها ويتناقشون ويقرأون القرآن .

كان هناك جماعة يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يسلمون خفية وينصرفون نذكر منهم :

عمرو بن عتبة بن عامر ، روى عنه أنه قال : ألقى فى روعى أن عبادة الأوثان باطل ، فسمعنى رجل وأنا أتكلم بذلك فقال : يا عمرو إن بمكة رجلا يقول كما تقول !

قال ابن عتبة : فأقبلت إلى مكة أول ما بعث النبى صلى ﷺ عليه وسلم وهو مستخف ، فقيل لى : إنك لا تقدر عليه إلا بالليل حين يطوف ، فقمت بين يدى الكعبة فما شعرت إلا بصوته يهلل فخرجت إليه ، فقلت :

من أنت ؟ ، قال صلى الله عليه وسلم : نبى الله . فقلت : وما نبى الله ؟ قال : رسول الله ، قلت وبم أرسلك ؟ ، قال صلى الله عليه وسلم :

بأن يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيء وتكسر الأصنام ، وتحقن الدماء وتوصل الأرحام . قلت.: ومن معك على هذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم حر وعبد يعنى أبا بكر وبلالا .

فقلت : ابسط يدك أبايعك فبايعته على الإسلام . قال : فلقد رأيتنى ، وأنا ربع الإسلام ، قال : قلت أقيم معك يا رسول الله ؟

قال : لا ولكن الحق بقومك ، فإذا سمعت أنى قد خرجت فاتبعنى قال : فلحقت بقومى فمكثت دهرا منتظرا خبره حتى أتت رفقة من يثرب ، فسألتهم الخبر فقالوا : خرج محمد من مكة إلى المدينة ، قال : فارتحلت فأتيته فقلت أتعرفنى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم أنت الرجل الذى أتيتنا بمكة(١) .

وأيضا عتبة بن غزوان بن جابر وكان إسلامه بعد ستة رجال فهو سابع سبعة قال فى خطبته بالبصرة . لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابع سبعة مالنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا(٢) .

ولم تكن أولية الإسلام والإيمان بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم خاصة بالأفراد وحدهم وإنما هناك بعض القبائل التى سرى إليها خبر البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ومن تلك القبائل قبيلة

---

(١) نهاية الأرب ج ١٦ ص ١٩٣ .
(٢) نهاية الأرب ج ١٦ ص ١٩٥ .

« غفار » وكان أبو ذر الغفارى رضى الله عنه وهو واحد من أبنائها قد ترك قبيلته وذهب إلى مكة لكى يستقصى أخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أخبره أخوه أنيس أن نبيا ظهر فى قريش ، يدعو إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده وإلى ترك الأصنام وإلى مكارم الأخلاق والعطف على الأرحام والأقارب ، وأن أهل مكة يعادونه عداء شديدا ، ويؤذونه هو وأصحابه .

فرح أبو ذر بما قال له أخوه واستعد للذهاب إلى مكة ، وما إن وصل إليها حتى بحث عن المكان الذى فيه رسول الله وتمكن من الوصول إليه واجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم عن إيمان وعقيدة ثم قال له رسول الله : « ياأبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى قومك فأخبرهم بأمرى فإذا بلغك ظهورنا فأقبل علينا »

قال له أبو ذر ، وقد نسى نفسه من الفرحة التى استولت عليه : « والذى بعثك بالحق لأصرخن بها بين ظهرانيهم »

فقام إلى المسجد ، وراح يردد الشهادتين بصوت مرتفع حتى أهاج الجمع فاجتمعوا عليه ، وأشبعوه ركلا بالأرجل ، وضربا بالأيدى ، ولم ينجه منهم إلا العباس بن عبد المطلب فقد قال لهم : « ويلكم !! ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأن طريق تجارتكم عليهم » ؟!! فأقلعوا عنه وتركوه .

ثم رحل إلى قومه فأسلمت بسببه قبيلته(١) .

وإذا كانت السيدة خديجة أول من آمنت بالله وبرسوله . وكان أبو بكر فى مقدمة الرجال الذين آمنوا بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن بعض الذين أسلموا ، وكانوا فى مقدمة المسلمين لم يجرلهم ذكر على لسان المؤرخين من أمثال بناته صلى الله عليه وسلم ، بل وإن هناك من أسلم ولم يعلم النبى صلى الله عليه وسلم إسلامه من أمثال سعدى بنت كريز خالة عثمان بن عفان وكذلك كان من الأوائل الذين أسلموا ولم يتحدث عنهم إلا القليل من الرواة كثيرون من أمثال عمر بن عنبسة وعتبة بن غزوان . رضى الله عنهم أجمعين

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٢٣ .

« يا عباس عم رسول الله انقذ نفسك من النار فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة محمد ويا فاطمة بنت محمد انقذا أنفسكما من النار فإنى لا أملك لكما من الله شيئا »

من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم

السّيدة خديجة والجهر بالدعوة

كم تمنت السيدة خديجة رضى الله عنها أن يرى الناس دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنظار الذى تراها به ، تلك الدعوة الإلهية التى تفرد الله سبحانه وتعالى بالربوبية ، فهو وحده المتصرف فى الكون لا شريك له ، فلا اللات ولا العزى ، ولا مناة ولا هبل بشركاء لله ، لامن قريب ولا من بعيد ، ولا هم يملكون لأنفسهم ضرا أو نفعا .

لا هذه الأصنام الموضوعة حول الكعبة ، ولا تلك التى وضعت فى البيوت وصورت بصور شتى ، منها ما صنع من الحجارة ، أو من معادن مختلفة ليس لها قيمة ولا فائدة ، ومنها ما صنع من الحلوى تعبد بالليل وتؤكل بالنهار .

كانت رضى الله عنها تريد أن يعم هذا الفيض قريشا فتراهم يلتفون حول رب واحد ، ورسول واحد ، ومبدأ يسعدون به فى الدنيا والآخرة .

لقد كانت أعظم متحمسة لهذا الدين ، وكانت أول المستجيبين للنداء ، وإنها تقوم بكل ما تملك ، وما تستطيع تقديمه لله وللرسول ، وإن لها حدودا لا تتعداها ، وهى البصيرة بأحوال القوم ، وبتعصبهم فتخاف إن هى توسعت فى الدعوة ، وغشيت بيوت الأعمام والعمات والأخوال والخالات ، الممثلين فى الأصول والفروع من قومها من قريش ، فقد تسمع ما تكره ، وقد يؤذى ما يقال سمع النبى صلى الله عليه وسلم .

نعم لقد دعت الأدنين من أهلها إلى الدخول فى هذه الدعوة ، فلم يستجب لها إلا القليل ، وها هى تعيد الدعوة على حكيم بن حزام ابن أخيها الذى ما كان ليعصى لها أمرا ، ولا يخالف لها رأيا ، وتذكر له أسماء الذين اهتدوا إلى الطريق المستقيم ، وفى مقدمتهم اصدقاؤه أبو بكر وعثمان والزبير بن العوام ابن عمته ولكنه خالفها ولم يطع لها فى ذلك أمرا .

لقد قررت أن توجه كل اهتمامها بصاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، وأن تزيد من شد أزره ، وتقوى من عزمه وتساعده على تحمل الشدائد والأهوال ، وأن تذكره بحب الله له ، وعونه إياه وأن تبين له أن الطريق الذى يراه صعبا الآن سيذلل فيصير سهلا ، واضح العلامات إن شاء الله .

لقد مضت ثلاث سنوات والدعوة ما تزال فى تلك المدة سرية لا تظهر فى مجامع قريش العامة خوفا من تعصب قريش ، فمن أراد العبادة والصلاة ذهب إلى شعاب مكة يعبد الله ويصلى مستخفيا ، ومع هذا الاستخفاء لم يسلم المسلمون من إيذاء المشركين ، ولا من تنكرهم لهم ، والعيب عليهم ، وكان المسلمون أحيانا يقابلون الشدة بالشدة ، فقد ضرب سعد بن أبى وقاص رجلا من المشركين يسخر منه ويستهزئ به ضربة بلحى بعير فشجه ، وكان أول دم أهريق فى الإسلام(١)

ولم يكن أهل مكة يعبأون بالرسول صلى الله عليه وسلم وما يدعو إليه وظنوا أن حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء أمثال قس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل وغيرهما ، وأن الناس عائدون لا محالة إلى دين آبائهم وأجدادهم ، وستكون أصنامهم آخر الأمر صاحبة الغلبة(٢)

مكث المسلمون على هذه السرية حتى نزلت الأوامر الإلهية تترى تأمره صلى الله عليه وسلم أن يظهر الرسالة ، وأن يبلّغ القوم بما يجب عليهم تجاه هذه الرسالة ، ولا يخاف منهم ، ولا يكتم عنهم شيئا ، فالمولى سبحانه وتعالى معه ، ولن ينالوا منه شيئا فى واقع الأمر وحقيقته ، وأن ما يصيبه من أذى ما هو إلا رفع لمكانته ومنزلته عند رب العالمين .

﴿ ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾(٣)

وقد أمره سبحانه وتعالى بالجهر بالدعوة ، ولا يلتفت إلى ما يفعله

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٦٣ . واللحى العظم الذى على الفخذ من الحيوان ، والشج الجرح .

(٢) حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ١٤١ .

(٣) سورة المائدة ٦٧ .

المشركون ولا يعبأ بما يقولون :

﴿ **وقل إنى أنا النذير المبين . كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين . فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون . فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون . ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾(١)

ولقد قابل القوم ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسخرية والاستهزاء فى مجالسهم ، فكان إذا مرَّ عليهم يقولون :

« هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء » وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، لايزيدون على ذلك .

ثم تلا الأمر بالاعلان ، إنذار الأهل والأقارب ، وتخويفهم من عذاب الله الشديد ، وما عليه إلا أن يقول لهم ذلك ، ويبرأ من قولهم وعملهم فهو ناصره ومؤيده ، لقد نزل عليه صلى الله عليه وسلم قول المولى سبحانه وتعالى :
﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين إنه هو السميع العليم** ﴾(٢)

لقد أصبحت مكة كلها تعرف أمر هذا الدين ، وتعرف جيدا ما يدعو له محمد بن عبد الله وتعرف أصحابه الذين اتبعوه ، وآمنوا به فليس فى مكة بيت لا يتحدث أهله عن الدعوة الجديدة .

ولكن كيف يجابه به أهله ؟ وبمن يبتدىء ؟ وأين يكون اجتماعهم ؟ وهل سيستجيب القوم له ؟ وكيف يتحمل مكايدهم وأعمالهم ؟

لقد مر على باله كل هذا ، وأكثر من هذا مر بخاطره واستمع إلى صوت

---

(١) سورة الحجر ٨٩ — ٩٩ .
(٢) سورة الشعراء ٢١٤ — ٢٢٠ .

السيدة خديجة رضى الله عنها وهى تشجعه ، وتدعوه إلى أن يجتمع بهم وليقولوا ما يقولونه ، وألا يحزنه هذا الأمر ، ومادام الله معه ، فما عليه إلا أن يبلغ أمره .

وجلس فى البيت وكأنه مريض فأتته عماته يعدنه وسألنه ما تشتكى ؟ فأجابهم : إنه لم يشتك شيئا ، وإنما هو أمر آخر جعله يعيش معه يفكر ماذا يفعل ؟

وسألنه : ما هو هذا الأمر ؟ فأجاب :

أن الله سبحانه وتعالى أمره أن يبلغ أهله وعشيرته الدعوة وأن يدعوهم إلى الدخول فى الإسلام ، لكنه فى حيرة فكيف يبدأ معهم ؟ فقلن له : ادعهم واترك عمك عبد العزى ، فإنه غير مجيبك لكن الرسول صلى الله عليه وسلم اعتمد على الله ودعاهم ، ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين :

« وبادرهم عبد العزى أبو لهب فقال : هؤلاء عمومتك ، وبنو عمك ، فتكلم ، ودع الصبأة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك فحبسك ، إن أقمت على ما أنت عليه ، فهو أيسر عليهم من أن يثبت بك بطون قريش ، وتمدهم العرب ، فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به »

ربما كانت السيدة خديجة رضى الله عنها تسمع كل ما قيل ، لكنها لم تنبس ببنت شفة ، وربما أدارت موضوعا آخر مع من كن يجالسنها من العمات ، بل وربما حضرت أم جميل بنت حرب زوج عبد العزى ، إذهى دائما تحرص على حضور مثل هذه المؤتمرات ، لتدلى بدلوها فى مثل هذه الأمور .

وانتظر الجمع كلمة من الرسول صلى الله عليه وسلم لكنه لم يتكلم ، وماذا يقول بعد ما سمع من العم عبد العزى ما سمع فقد أوجد جوا عنيفا فيه الإنذار والوعيد وشجع بما قال المخالفين ، من غير الأقربين على النيل منه صلى الله عليه وسلم إن هو تمادى فى دعوته ، وما كلفه الله به .

تفرق القوم وكان فى نية الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم مرة ثانية ، لكنه مكث أياما ، وكثر عليه كلام أبى لهب ، فنزل جبريل عليه السلام فأمره بإمضاء ما أمره الله به ، وشجعه عليه ، فجمعهم رسول الله ثانية فقال :

الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها للجنة أبدا ، أو النار أبدا ، وإنكم لأول من أنذر ومثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله ، فخشى أن يسبقوه فجعل يهتف : يا صباحاه .

فقال أبو طالب : ماأحب إلينا معاونتك ومرافدتك ، وأقبلنا لنصحك وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنى والله أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت به ، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أنى لا أجد نفسى تطوع إلى فراق دين عبد المطلب حتى أموت على ما مات عليه .

وقد أراد أبو طالب بسداد رأيه وحكمته ، أن يمتص غضب الغاضبين ، ونقد الناقدين ، وأن يسد الباب على من عنده رأى يرى فى إظهاره إساءة إلى ابن أخيه ، وإلى الحاضرين ، وأن يظهر عطفه على ابن أخيه وحبه له ، واستعداده لأن يقف بجانبه ، يدفع عنه الأعداء ، ويساعده على أن يقوم بما يقوم به .

سكت القوم ، ولم يتكلم واحد منهم احتراما وتقديرا لكبير القوم أبى طالب ، غير أن عبد العزى أخاه لم يسكت ، فقد تكلم فقال : يا بنى عبد المطلب هذه والله السوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم ، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قتلتم .

فقال أبو طالب : « والله لنمنعنه ما بقينا »

وقالت صفية بنت أبي طالب عمة الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد العزى أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك وإسلامه ؟ والله مازال العلماء يخبرون أن يخرج من ضئضىء عبد المطلب نبى فهو هو .

فقال عبد العزى فى ضيق : « هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى الحجال ، إذا قامت بطون قريش كلها ، وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ؟ والله ما نحن إلا إكلة رأس[1]

وروى الشيخان البلاذرىّ عـن ابن عباس والشيخان عن أبى هريرة ، ومسلم عن قبيصة بن المخارق رضى الله عنهم :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أُنْزِل عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين» قام على الصفا فعلا أعلاها حجراً ثم نادى : يا صباحاه . فقالوا : من هذا ؟

وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش فاجتمعوا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرأيتم إن أخبرتكم أن لخيلاً تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟»

قالوا : ما جربنا عليك كذباً . فقال : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس عم رسول الله أنقذ نفسك من النار فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا بنى عبد شمس انقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا صفية عمة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد انقذا أنفسكما من النار فإنى لا أملك لكما من الله شيئا ، غير أن لكما رحما سأبلها ببلاها ، إنى لكم نذير بين يدى عذاب شديد » .

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟[2]

---

(١) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٣٣ ، وأنساب الأشراب للبلاذرى ١ / ١١٨ ، ١ / ١١٩ .

(٢) صحيح البخارى كتاب التفسير (سورة المسد) وصحيح مسلم كتاب الفتن رقم ٩١ ، ومسند أحمد ٣ / ٤٣ ، ٩٧ ، وأنساب الأشراف للبلاذرى ١ / ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، وسبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٣٣ .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بنى عبد المطلب إنى والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة . ثم انصرف عبد العزى ومعه رجال من قريش .

مارزئت هذه الدعوة بإنسان ملأه الشر والحقد أشد من عبد العزى بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم الذى سمى « أبا لهب » وبإنسان آخر هى زوجة عبد العزى (أم جميل) أخت أبى سفيان بن حرب فالحقد والحسد اللذان ملأ صدرهما على السيدة خديجة وزوجها صلى الله عليه وسلم لم يكن وليد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا دعوته إلى الله وحدها ، ولم يكن ذلك مستحدثا وإنما هما قديمان مدفونان فى قلبيهما ، فكان الكره والبغض الشديدان قائمين منذ زمن بعيد ، وحتى قبل أن تتزوج السيدة الطاهرة من ابن العم محمد .

لقد كان بيت « أم جميل » مجاورا لبيت السيدة خديجة ، وكانت أم جميل تنتظر من زمن بعيد أن تشاركها السيدة خديجة طربها ولهوها وسهرها الذى كان يستمر إلى الصباح لكنها رضى الله عنها لم تفعل ، ولم تحاول أن تجاريها فى حديثها العام أو الخاص ، وليس هناك ما يقال إلا إذا حضرت أم جميل إلى البيت فتقابلها السيدة خديجة بالترحاب ، وتقوم لها بواجب الضيافة الذى ينم عن الاحترام الزائد ثم تودع بمثل ما استقبلت به .

ولما تزوجت بمحمد بن عبد الله كان إذا أتى العم عبد العزى كان يرحب به للقرابة القريبة منه ، ولم يكن هناك مجال للكلمة الزائدة التى يستطيع عبد العزى وزوجه أن يقولاها أو يبنيا عليها ما تحدث به نفساهما الشريرة كى ينتقصا من مكانة السيدة خديجة وزوجها .

فلا غرابة والحالة هذه أن تنال السيدة خديجة وزوجها مكانة ممتازة فى الصميم الذى يعترف به واقع الحياة ، وإن كان العم عبد العزى وزوجه ينتظران أى هفوة ليظهر الغث الدفين .

ثم حدثهما العقل الباطن أن يختارا لابنيهما أحسن بنتين فى قريش فلم يجدا خيرا من بنتى محمد وخديجة ، رقية وأم كلثوم ثم انتقلت البنتان إلى بيت ولديهما عتبة وعتيبة اللذين يعيشان مع والديهما .

لقد كان المفروض وقد دعا محمد إلى توحيد الله ــ أن يكون بيت عبد العزى على الحياد إن لم يكن من المجيبين لما يدعو إليه ابن أخيه وصهره فإن كان يعز عليه ترك الأصنام وعبادتها وتأليهها فما عليه إلا أن يفعل مثل ما فعله إخوته من البقاء على دينهم أو مناصرة ابن أخيهم ، والالتزام بالصمت وعدم التعرض له .

وهذا ما لم يحدث من العم عبد العزى ، فقد نسى أو تناسى أن ابنتى محمد تعيشان معه ، وأن ما يقوله هو وزوجه لاشك يغضب البنتين ويسىء إليهما .

ولم يقتصر عبد العزى وأم جميل على مجابهة الرسول صلى الله عليه وسلم فى وجهه ، والإساءة إليه بالكلمات النابية ، عندما أعلن النبى المرسل من الله عن دعوته ، بل سلكا طريقا لم يسلكه أحد من قريش ، فلم نر رجلا وزوجته يتفقان على النيل من رسول الله حتى أبو جهل ، فلم نسمع أن زوجة أبى جهل مثلا اشتركت معه اشتراكا فعليا لتنال من محمد ، أو لتسىء إليه فى الطريق .

فعبد العزى يروى لامرأته ما يحصل منه لمحمد ، ويؤكد لها موقفه العدائى منه ، ويذكر لها ساخرا ردوده اللاذعة عليه ، وتسفيه كل ما يقوله للناس ، وهى بدورها تشاركه سخريته واستهزاءه ، بل لقد كانت تدور فى بيوت قريش ، تنال من محمد وتود أن تمسك بطرف خيط لتنال من السيدة خديجة ، ولكنها لا تدرى ما تقول عنها ، لأنها لم تشترك معها فى أى حديث ، أو ترد عليها إساءتها بإساءة ، أو تعتب عليها فتعيد عليها ما قالته أو فعلته فى ابن أخى زوجها محمد باعتبارها أما لعتبة وعتيبة زوجى بنتيها ، ولم تعرها أدنى التفاتة ، وما نشك فى أن أم جميل كانت إذا أجرت حديثا معه فى موضوع مثير ، انتقلت بها الطاهرة رضى الله عنها إلى حديث بعيد بلباقتها وذكائها .

ولكن الله لم يترك عبد العزى ولا أم جميل زوجه ليقولا ما يريدان قوله من غير أن يكونا لهما وازع من نفسيهما ، فقد رد على عبد العزى فى الوقت المناسب بما يقطع لسانه هو وأم جميل ، ويجعلهما أضحوكة بين رجال ونساء وصبية وعبيد قريش بل لقد انتقل ما نزل بشأنهما من قرآن يتلى فى أنحاء الجزيرة لينذر به الناس فيرددونه على الأسماع .

فحينما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإيمان بالله وجمعهم ليستمعوا إليه لم يتكلم واحد منهم بكلمة سوء ، بل لقد سمعوا ثم أرادوا الانصراف ولكن صوتا يخرج من بين الجمع ليقول متطاولا على رسول الله وعلى ابن أخيه « تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا » !! لقد رد عليه المولى سبحانه وتعالى فنزل قوله تعالى :

﴿ تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد ﴾[1]

لم تكد السورة تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى حفظها المسلمون وراحوا يرددونها ووصلت إلى أسماع المشركين فرددوها وأوصلها غير واحد إلى أم جميل حمالة الحطب ، وإلى زوجها أبى لهب ، وكان كلما قابل واحد آخر قال له : هل سمعت ما قاله محمد فى عبد العزى وأم جميل ؟ وتلا عليه السورة حتى لقد جن جنون أبى لهب وحمالة الحطب ، فقد صارا مثلة فى المجتمع وفى البيوت وأصبحت هذه السورة حديث الناس ، وهم بين المشفق واللائم عليه لتجاوزه الحد مع ابن أخيه ، والشامت فيه لما يعرفون عنه من سوء خلقه ، ولقد فرح المسلمون فرحا شديدا وكان كلما قابل أحدهم أخاه المسلم بدأه بالسلام ثم تلا عليه سورة المسد بين السرور وشكر الله الذى رد عن نبيه كيد أبى لهب وأم جميل حمالة الحطب .

لقد أراد المولى سبحانه وتعالى أن ينهى كل صلة للرسول صلى الله عليه وسلم ، بهذا السفيه الذى أقحم نفسه فيما لا يعنيه ، فماذا عليه لو جعل للقرابة والنسب منزلة ؟ فكف لسانه عن الإيذاء .

وماذا على « حمالة الحطب » لو كفت عن شتائمها ، ولزمت دارها وراعت حرمة اللتين تعيشان معها ولكنها بما فعلت استحقت غضب الله ولعنته .

لقد أخذ الحزن والغضب مأخذه من أبى لهب وهددت حمالة الحطب بالانتقام من محمد . أما السيدة خديجة . فلم تتكلم إلا أنها كانت دائمة التلاوة

---

(١) سورة المسد رقم ١١١ من القرآن الكريم .

لسورة المسد ، وقد تركت الأمر لله سبحانه وتعالى ليفعل ما يريد .

حقيقة أنها رضى الله عنها لم تكن راضية كل الرضا عن هذا الصهر فهى تعرف أم جميل حق المعرفة وتعرف ما تنطوى عليها نفسها المريضة ، ولكن ما كان لها أن تقول شيئا ما دام الرجال قد تكلموا .

نادى أبو لهب ابنه عتبة وهو هائج كالثور المطعون ، يرغى ويزبد ويسب ويشتم ، ثم نادى عتيبة وأسمعهما ما قاله محمد فيه وفى أمهما ، ثم قال لهما : رأسى ورأسيكما حرام إن لم تفارقا ابنتى محمد .

فقال الشقى عتبة لآتين محمدا فلأوذِيَنَّه فى ربه . وانطلق الشقى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عند عمه أبى طالب فأتاه ، وسب إلهه ، ورد عليه ابنته وطلقها فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم ابعث عليه كلبا من كلابك !!

فوجم لها أبو طالب وقال : ما كان أغناك يا ابن أخى عن هذه الدعوة : وكذلك طلق عتيبة أم كلثوم .

وهكذا رجعت رقية وأم كلثوم إلى بيت أبويهما ، واستطاعت السيدة خديجة أن تسرى عن ابنتيها وأن تعيد إليهما الهدوء والطمأنينة والرضى بما يريده الله سبحانه وتعالى لهما ، والله لا يريد بهما إلا كل خير .

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند عمه أبى طالب وذهب إلى الحرم ، وهناك التقى بأبى بكر رضى الله عنه ، فراحا يتحدثان ، وبينما هما فى حديثهما ، وإذا بحمالة الحطب ، أقبلت على أبى بكر ، وجعلت تناديه ، وكان فى يدها حجر عزمت على أن تضرب به رأس الرسول صلى الله عليه وسلم

قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله إنها امرأة مؤذية ، فلو قمت فوالله لتؤذينك قال صلى الله عليه وسلم : إنها لن ترانى . فدنت قريبا من أبى بكر وقالت : يا أبا بكر صاحبك هجانى

قال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك

قالت : أنشد فىّ شعرا ، والثواقب إنى شاعرة .

مذمما أبينا   ودينه قلينا
وأمره عصينا

لقد صرف الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شتم قريش ، وصرف عنه شتم حمالة الحطب ، فهى تشتم مذمما ولم تشتم محمدا

ولت حمالة الحطب ، ولم تؤذ الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد جعل الله بينها وبينه حجابا ، فلم تره وهو أمامها ، وقد جاءت لتضربه بما فى يدها ، لتخفف عن نفسها ما تحمله له من الحقد والبغض والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

لقد أحزن السيدة خديجة رضى الله عنها ما بدر من أبى لهب وزوجته أم جميل وزاد من آلامها ما قاله عتبة بن أبى لهب ولكن حينما أخبرها النبى صلى الله عليه وسلم بدعائه عليه أيقنت أن الله سينتقم سريعا من هذا المتطاول .

لقد خرج عتبة مع والده بتجارة إلى الشام فى جماعة من قريش ، فنزلوا منزلا أشرف عليهم راهب من دير وقال لهم :

إن هذه الأرض مسبعة

تذكر عتبة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذكر أباه بذلك ، فقال أبو لهب لأصحابه : « أعينونا يا معشر قريش هذه الليلة ، فإنى أخاف على ابنى دعوة محمد فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، ثم افرشوا لابنى ثم افرشوا حوله » وجعل لمن معه ألف دينار إن أصبح حيا . ففعل القوم ، وجمعوا جمالهم وأناخوا . وجعلوا عتبة وسط الرقعة ، وأحدقوا ، فلما ناموا جاء الأسد يتشمم وجوه القوم فلما خلص إلى عتبة افترسه من بين الناس ، وقطع رأسه . فلما انتبهوا قال أبو لهب : (قد علمت ـــ والله ـــ ما كان لينفلت من دعوة محمد)

أخذ النبى صلى الله عليه وسلم فى ذكر آلهة القوم وبيان منزلتها وأنها لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا فكيف تنفع الآخرين ، وجن جنونهم حينما قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : « والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم » فأخذتهم حمية الجاهلية غيرة على دينهم وعلى الأصنام

وبدأت العدواة تأخذ صورة واضحة ، وشكلا متميزا ، وتتابع الوحى يوضح ما عليه القوم من تمسكهم بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون** ﴾[1]

﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** ﴾[2]

وتعصبت قريش لما هم عليه وظهر العناد فى قولهم وفعلهم وردوا على الرسول بالجحود والنكران لكل ما يقول :

﴿ **قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾[3]

فاجتمع نفر من أشراف قريش هم : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب وأبو البخترى بن هشام والأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ونبيه ابن الحجاج .

قال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبى طالب فنكلمه فيه فلينصفنا منه ، فيأمره بالكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه ، الذى يعبده ، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون هنا شيء فتعيرنا العرب ويقولون تركوه حتى مات عمه فتناولوه .

فبعثوا رجلا منهم يدعى المطلب ، فاستأذن لهم على أبى طالب فأذن لهم فلما دخلوا قالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا و بينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه.

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه .

---

(١) المائدة ١٠٤ .
(٢) البقرة ١٧٠.
(٣) الزخرف ٢٤ .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه يظهر دين الله ، ويدعـو إليه لا يرده عن ذلك شيء ، ثم استشرى الأمر بين الرسول والمشركين حتى تباعد الرجال وتضاغتوا

وأكثرت قريش ذكر الرسول بينها وتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضا عليه ، ثم مشى القوم إلى أبى طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب ... إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، ولم تفعل ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه .

لقد أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أمر ربه فمضى ينشر الدعوة لا يترك مجتمعا إلا وينادى فيه بالتوحيد الخالص لله لقد قام بسوق عكاظ وكان عليه جبة حمراء وقال : « أيها الناس .... قولوا لا إله الله تفلحوا وتنجحوا » فإذا رجل عليه غديرتان يرميه بالحجارة حتى أدمى عقبيه ويقول : « أيها الناس .... إن هذا ابن أخى كذاب فاحذروه » فقيل : من هذا ؟ قيل : هذا محمد بن عبد الله ، وهذا عمه أبو لهب بن عبد المطلب .

وهكذا فقد أغرت قريش سفاءها بالرسول فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون

يقول ابن هشام : إن أشد ما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج يوما فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه ..... لا حر ولا عبد فرجع إلى بيته فتدثر من شدة ما أصابه .

ولكن ذلك لم يفت فى عضد رسول الله ، وما نظن أن السيدة خديجة رضى الله عنها تركته مع حزنه وآلامه بل لقد تعود منها صلى الله عليه وسلم إذا حزب الأمر واشتد أن تكون دائما بجواره تشد أزره وتشجعه على مواصلة الدعوة لله ، وكان من نتيجة الصبر ومواصلة الكفاح والجهاد فى سبيل الله أن انتشر ذكر الدعوة وصاحبها عليه الصلاة والسلام فى بلاذ العرب كلها ، وبلغ البلدان أمرها ، وبدأ الناس يفكرون فيما يدعو إليه محمد بن عبد الله ، وكان من أحرص الناس على اللقاء بصاحب الدعوة أهل يثرب فلم تمض سنوات قليلة حتى اتصلوا به فى مكة وبايعوه صلى الله عليه وسلم .

« إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع
الله إلها آخر فسوف يعلمون . ولقد نعلم أنك
يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك
وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك
اليقين »

قرآن كريم

السيدة وإيذاء المشركين للنبى ﷺ

تفرغت السيدة خديجة رضى الله عنها للرسول صلى الله عليه وسلم للعناية به، وللتهوين عليه بما ينزل به المشركون من إيذاء وعنت ، فتستمع إليه فيما يستجد من أحداث ، فتهون عليه الأمر ، وتدعوه إلى أن لا يقيم وَزْنا لأولئك الذين لم يهدهم الله للإيمان .

وقد ترسل إلى مجتمعات مكة من يأتى بالأخبار ، تريد أن تطمئن على أحواله صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش ، وقد ترسل فاطمة الصغيرة فتكون خلفه ، فقد تدفع عنه أذى ، وقد ترد على القوم حينما تسمعهم ينالون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزاد الاهتمام بعد أن جهر بالدعوة ، وتعرض صلى الله عليه وسلم لآلهة القوم ، ورأت عناد المشركين حينما دعاهم إلى الحق ، فقد كان هذا الجهر واحتقار آلهتهم مفاجأة لهم ، بعد أن حسبوا أن أمر محمد لا يتعدى إيمانه بإلهه .

حقيقة كان محمد يعبد ربه ، ويدعو إلى الإيمان به ، ولم يعب آلهتهم فى أول الأمر ، أما وقد فعل ذلك ، فلابد أن يواجهوه ، ويلاحظوا أولئك الذين آمنوا به ، ويقطعوا عليهم ، وعلى من يريد الإيمان بمحمد السبيل ، فقد حسبوا أن أمر محمد لن يتعدى الفئة القليلة التى آمنت به ، ولكن العدد يزيد ويطرد والخوف يشتد من أن يطغى على سلطانهم ، ومكانتهم بين العرب .

وكان الأمر أكبر مما يتصورون فها هو الرسول الأعظم ينشر دعوته عليهم ، ويدعوهم إلى ترك عبادة الآلهة ، وإلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ويعلن ذلك فى مجتمعاتهم ، وفى البيت الحرام ، وفى الأسواق العامة ، وفى كل مكان ، على الأفراد والجماعات ، لا يمل ولايسأم ، وإن أتباعه يزيدون حتى بدأ بعض الأقوياء من قريش يؤمنون به .

ماذا يصنعون ؟ ومحمد سيقلب مفاهيم الحياة ، ويغير الأخلاق والطباع والعادات والتقاليد ، ودينهم الذى يدينون به ، وقد توارثوه عن الآباء والأجداد .

لقد أصابتهم هستريا غريبة ففقدوا أعصابهم ، ولم يستطيعوا أن يَبْنُوا أساسا ثابتا كى ينطلقوا منه لإقامة الأدلة على صدق عقيدتهم ، وأن آلهتهم تضر وتنفع ، وحاروا ماذا يفعلون ، واعتبروا ما يدعو إليه محمد محنة وفتنة ورجوا أن يتخلصوا من هذه الدعوة فكانوا يقفون فى فناء البيت سكارى وما هم بسكارى ، يدعون بالأدعية المختلفة يناجون بها أصنامهم ، ويطلبون إليها أن تنتقم من محمد .

ولكن ذلك لم يجد نفعا ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعو لربه ليلا ونهارا ويبين تفاهة آلهتهم وعقول الذين يعبدون الحجارة والطين ، ويقيمون وزنا لها ، ولم يستطيعوا وقف التيار القوى ، فلجأوا إلى الوعيد والتهديد ، وساروا إلى عمه أبى طالب يطالبونه أن يمنع ابن أخيه عنهم ، ولكن محمدا لم يخضع للتهديد ، ولم يكف عن الدعوة إلى الله مبينا لهم جزاء من يشرك بالله فى الدنيا والآخرة ، وأن هذه الأصنام لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، فكيف تنفع الآخرين ؟ !!

وثارت ثائرتهم عندما مست آلهتهم وتكرر من الرسول صلى الله وسلم ذلك فراحوا يفكرون فى الإيذاء ويتفننون فى هذا الإيذاء .

فهذا أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أول من وقف فى وجه رسول الله ، وتعرض له بالإيذاء هو وزوجه ، ولم يتعظ بما حل به وبولده فى رحلته إلى الشام ، فقد استمر فى الإيذاء ، فكان يرمى القاذورات على باب بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جارا له ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يطرحه ويقول : « يا بنى عبد مناف أى جوار هذا ؟! »

وكانت أم جميل تشارك أبا لهب فى قبيح عمله ، وكثيرا ما سبت رسول الله وقد زاد حقدها وحسدها للرسول صلى الله عليه وسلم ، وخاصة بعد أن

نزلت فيها وزوجها سورة المسد(١)

ولقد حمت السيدة خديجة رضى الله عنها نفسها من حماقة أم جميل ، فلم تتكلم معها فيما تقوم به من عمل عدوانى محاولة عتابا أو لوما ، لأنها تخاف أن يصدر منها ما قد يغضب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبذلك فوتت عليها ما يفرج عنها مما تحمله من حقد وحسد .

ومن الذين آذوا الرسول صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبى معيط ، وقد كان جارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يسيء للرسول ، ولقد صنع مرة وليمة ودعا إليها كبراء قريش ، ودعا إليها رسول الله ، وقبل صلى الله عليه وسلم الدعوة ولعل الرسول أراد أن ينتهز هذه الفرصة ، ووجود كبار القوم ليدعوهم إلى الإسلام ، وبدأها صلى الله عليه وسلم بعقبة . فقال له الرسول : « والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد أنه إله واحد لا شريك له ، وأنى رسول الله . فتشهد عقبة ، وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحسب أن عقبة صادق فيما قال .

وبلغ ما قاله عقبة أبىّ بن خلف الجمحى القرشى ، وكان صديقا له فقال لعقبة : ما شيء ، بلغنى عنك ؟ قال : لا شيء دخل منزلى رجل شريف ، فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتى ، ولم يطعم ، فشهدت له . قال أبىّ : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ عنقه وتلطم عينه .

فلما رأى عقبة رسول الله فعل ذلك ، وغضب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وترك أمره لله سبحانه وتعالى ، فنزل على الرسول ما خفف عنه من ألم وحزن نزل قوله تعالى :

﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾(٢)

---

(١) سورة المسد رقم ١١١ من القرآن الكريم .

(٢) سورة الفرقان ٢٧ ــ ٢٩ .

وما نشك فى أن السيدة خديجة قد أحزنها كثيرا وأدمع عينيها ما حصل للرسول ولكنها رضى الله عنها حينما كانت تلقاه صلى الله عليه وسلم كانت المواسية والمشجعة ، والمهونة عليه ما نزل به مذكرة له اهتمام ربه سبحانه وتعالى به ، وانفراده بالرد عنه ، وقد كان سبحانه يتولى تهديد الكفار ويوعدهم — إن لم يؤمنوا — بالعذاب الشديد فى الدنيا والآخرة .

وكان من الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن المغيرة عم أبى جهل ، وهو من عظماء قريش ، وكان فى سعة من العيش سمع القرآن ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ بعضا من آياته الكريمة فأعجب بما سمع وقال لقومه من بنى مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه .

فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، لتصبأن قريش كلها .

فقال أبو جهل : « أنا أكفيكموه ، فتوجه وقعد إليه حزينا ، وكلمه بما أحماه ، فقام الوليد فأتى القوم وقال :

تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يهوس ؟ وتقولون : إنه كاهن ، فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر : فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذاب : فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا !! ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر قليلا ، ثم قال : ما هو إلا ساحر ؟ أما رأيتموه يفرق بن الرجل وأهله وولده ومواليه !! فارتج النادى فرحا[1] .

فأنزل الله فى شأن الوليد مخاطبا لرسوله :

﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٧٥ .

قول البشر سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر .[1]

فقال المشركون هازئين بما نزل من الحق وكان مما قالوه : يزعم محمد أن جند الله الذين يعذبونكم فى النار ، ويحبسونكم فيها تسعة عشر وأنتم الناس كثرة وعددا ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟!!

وقال : واحد منهم : أنا أكفيكم سبعة عشر واكفونى اثنين . فنزل قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا . كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر ﴾[2]

وهكذا فقد كان القرآن الكريم يرد على المشركين داحضا ما يتفوهون به ومقويا عزيمة الرسول صلى الله عليه وسلم على تحمل الأذى والفتن .

ولقد اجتمع أشراف مكة من المشركين يوما فى الحِجْر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثلما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ؛ سَفّه أحلامنا وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ؛ لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا .

فبينما هم فى ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الحجر ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فتألم النبى لذلك وظهر فى وجهه الشريف آثار الغضب ، ثم مضى .

فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فغضب صلى الله عليه وسلم، ثم مر الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : « أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح » .

---

(١)،(٢) سورة المدثر ١١ — ٣٠ — ٣١ .

فأخذت كلمته القوم حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك لَيَرْفَؤُهُ(١) بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا .

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا دنا منكم وباداًكم بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم فى ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول صلى الله عليه وسلم : « نعم أنا الذى أقول ذلك » فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ويقول : « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » .... ثم انصرفوا عنه(٢)

ولقد كان إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمجاهرة به ، والمفاخرة بما يفعلونه بالنبى سببا فى نشر الدعوة بتناقل ما كان يفعله المشركون مع الرسول جعل الناس يسألون عن سبب هذا فإذا قيل لهم إن محمدا يدعو إلى دين جديد ، يأمر بالمعروف وكل عمل صالح ، وينهى الناس عن الظلم والخبيث من الأفعال فكر الناس فى اتباعه وأتى العاقلون إليه وآمنوا به .

وأحيانا قد يكون الإيذاء والتطاول على محمد ، وهو من أشرافهم وأعزهم جاها ومكانة عند جميع العرب ، سببا فى إسلام كبير من كبرائهم وذلك ما حدث لحمزة بن عبد المطلب ، وكان على دين قومه ، إلا أنه لم يؤذ الرسول ، بل كان يدافع عنه ، ولم يكن الإيمان قد وصل إلى قلبه ، لكن أعمال أبى جهل مع الرسول وإيذائه له ، جعلت حمزة يؤمن فى ساعة غضب هداه فيها الله سبحانه وتعالى فمكن للإسلام منه ، فغمر نور الإيمان كل قلبه .

فقد حدث أن أبا جهل مر برسول اللهصلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ، ونال منه ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم

---

(١) ليرفؤه : يهدئه .

(٢) نهاية الأرب ج ١٦ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

يكلمه رسول الله ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن تسمع ما يقوله أبو جهل ، وتألمت لما سمعت من أبى جهل ، وتصادف مرور حمزة متوشحا قوسه ، راجعا من صيده وقنصه ، وكان من عادته أن يصل إلى البيت ويطوف به قبل أن يذهب إلى أهله ، وكان من عادته إذا رجع من رحلة أن يمر على أندية القوم ويقف عليهم ويتحدث معهم ، وكان من أعز فتيان قريش وأشدهم بأسا .

ولما مر بمولاة عبد الله قالت له يا أبا عمارة لو سمعت ما قاله أبو الحكم لابن أخيك من السب والشتم لهالك الأمر فقد وجده جالسا ها هنا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

غضب حمزة غضبا شديدا ، وراح يبحث عن أبى جهل لينتقم منه من جراء ما فعله مع ابن أخيه حتى وجده داخل المسجد مع القوم ، فقرب منه ورفع قوسه فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرد ذلك علىّ إن استطعت فقام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل . فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا(١) .

ثم ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : أشهد أنك الصادق ، فأظهر يا بن أخى دينك ، والله ما أحب أن لى ما أظلته السماء وأنى على دينى الأول ، فكان حمزة ممن أعز الله به الدين(٢) .

كان للحراسة الإلهية دورها ووقتها الذى تتدخل فيه لتلزم المتجبرين عند حدودهم ، فإذا تأزمت الأمور وطغى المشركون ، وكان لابد لهم من أن ينفذوا رغباتهم ، ويلحقوا الأذى بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصبحوا قاب قوسيَن أو أدنى من إيقاع ما أقدموا عليه ، تدخلت المقادير لتوقفهم عند حدودهم ، حتى ينفذ قضاء الله ، بعد أن يتوهوا فى دروب الحياة مشتتى الفكر ، واهيى العزيمة ، ثم ينتقم منهم المولى سبحانه وتعالى أبشع انتقام من جراء ما قاموا به وأُقدموا عليه من إيذاء صاحب الرسالة ومبلغها ﷺ .

---

(١) نهاية الأرب ج ١٦ ص ٢٠٨ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٣ .

كانت السيدة خديجة رضى الله عنها حينما تعلم بتدخل القدر لحماية الرسول تفرح فرحا عظيما ، وتشكر الله الذى صدق وعده بنصره رسوله وظهرت آيات ذلك ، ورأى القوم تلك الآيات وحينما كان يدخل عليها الرسول ، وقد تحقق وعد الله تقابله بالترحاب والبشاشة وتذكره بما كانت تقوله له دائما فالله لن يتركه ، ولن يتخلى عنه ، وهو ــ لابد ــ ناشر دعوته ، وسيؤمن بها الجميع إن آجلا أو عاجلا .

حدث أن اجتمعت قريش فى المسجد الحرام ، وكان معهم أبو جهل فقال : يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وإهانة آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلس له غدا بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته ، فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نسلمك لشىء أبدا ، فامض لما تريد ، وبهت القوم لما يقول هذا الملعون المغامر .

ولكن أبا جهل أراد أن يحقق ما جال بفكره ، وشجعه على ذلك شيطانه فهو يريد أن يقتل محمدا ، وليفعل بنو هاشم ما يفعلون ، وإن نهاية قتل محمد أن يقتلوه فليكن ذلك حتى يتخلص هو أيضا مما يحمله من البغض والكره الشديدين لما يدعو إليه .

أعد حجرا كبيرا ، وتربص به ، وهو يعلم أن محمدا لابد أن يأتى كعادته ليطوف بالكعبة ويصلى لله سبحانه وتعالى ويعتكف وقتا بالبيت الحرام ، وتواعد القوم على أن يبكروا إلى المسجد ليروا تلك الفعلة الشنيعة التى لا يقدم عليها إلا من فقد عقله ، وهوى بنفسه إلى مدارج الهلاك .

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل المسجد ، وطاف بالكعبة ، ثم ذهب إلى مكانه بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، وراح يدعو ربه ما شاء له الدعاء وأبو جهل ينتظر حتى يدخل الرسول فى صلاته ، ويتفرغ لله ، فيقوم بفعلته ، ولقد دخل رسول الله فى صلاته وسجد . فحمل أبو جهل الحجر واقترب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما كاد يرفع الحجر ليلقى به على

الساجد لله حتى قذف الله فى قلبه الرعب وجمدت يداه على الحجر ، وقد ملأ الخوف داخليته ثم رمى بالحجر بعيدا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاد شاحب اللون يرتعش مما رأى ، ولا يكاد يقوى على الكلام ، ولم تحمله رجلاه فجلس صامتا مضطربا ، وأحاط به قومه وسألوه : ما بك يا أبا الحكم ؟ لقد أجابهم فقال : إنه ما كاد يقترب من « محمد » حتى أقبل نحوه فحل ضخم من فحول الإبل لم ير مثله من قبل فى ضخامة جسمه ، وعظم حجم رأسه ، وأخذ يدنو منه وقد فتح فاه فبرزت له أنياب كبيرة ضخمة ، لم ير مثلها ، فلما اقترب منه هم أن يفترسه[1] فذعر منه ، ولم ينج من شره إلا بعد أن القى الحجر بعيدا عن « محمد » .

ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد للرسول أن أبا جهل تافه لا قيمة له ، وأنه سبحانه جل وعلا قادر على أن يذهب بعقله ويجعله يتوه فى طرقات مكة يتخبط ويهذى بالكلام ، وأيضا فالله قادر على أن يضع فى قلبه المهابة والخوف من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا المعنى كثير ما كانت تؤكده خديجة للنبى صلى الله عليه وسلم .

حدث أن جاء رجل إلى مكة من قبيلة خثعم ومعه قطيع من الإبل ، فاشتراه منه أبو جهل ، ثم أخذ يماطل فى دفع الثمن ، وطال الوقت ولم يف أبو جهل بدفع الثمن .

استعان الرجل بأصحاب أبى جهل من أكابر القوم ، وبمن له صلة به ، ولما زاد إلحاح الرجل فى طلب المساعدة ومل القوم من الكلام مع أبى جهل ، ورأوا عدم وفائه للرجل ، وأنه ممتنع عن دفع الثمن ، ولكن الرجل يزيد فى طلب المساعدة لاسترداد الحق . أراد المشركون أن يقلبوا جدية الرجل فى طلبه إلى سخرية واستهزاء بإشراك الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه اللعبة فأشاروا للرجل وهم مجتمعون فى ناديهم والرسول يصلى فى المسجد ، أشاروا عليه أن يذهب إلى الرسول ويعرض عليه أمره وأكدوا له أن محمدا هو الذى يستطيع أن يرد عليه حقه .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٩٩ .

واستجاب الرجل لما طلبوا ، واتجه إلى الرسول قائلا : يا عبد الله إن أبا الحكم قد غلبنى على حق لى قبله ، وأنا غريب ،وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤدينى عليه ، فأشاروا إليك فخذ لى حقى منه يرحمك الله .

نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « انطلق إليه . وقصد الرسول الكريم بيت أبى جهل ومعه الخثعمى ، وضرب الرسول باب أبى جهل ، فأجاب أبو جهل من داخل البيت : من هذا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : محمد .... فاخرج إلىّ فخرج ، وقد امتقع لونه ، فقال صلى الله عليه وسلم : اعط هذاالرجل حقه فقال وقد استولى عليه الذعر نعم لا يبرح حتى أعطيه الذى له ، ودخل المنزل وأتى بما للرجل من مال ودفعه إليه .

وقد يعجل المولى سبحانه وتعالى بعقاب من يتعدى على رسوله فيصيبه بالعلة والمرض ويستجيب دعاء الرسول ، وهو فى غضبه وألمه مما يفعله قومه .

حدث هند بن أبى هالة ابن السيدة خديجة رضى الله عنهما قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم مر بالحكم أبى مروان فجعل « الحكم » يغمزه ويعيبه ويذمه مشيرا إليه بأصبعه حتى التفت إليه رسول الله وتطلع إلى السماء ودعا عليه قائلا : « اللهم اجعل له وزغا » فاستجاب المولى جل وعلا ، فرجف « الحكم » وارتعش على الفور واهتزت يداه ، وصار لا يستطيع أن يتحكم فى جسمه .

وكان الأسود بن المطلب بن عبد العزى وجماعته يتغامزون بالنبى صلى الله عليه وسلم وفى يوم سمعه الرسول فدعا عليه قال ابن عباس رضى الله عنه :

إن جبريل رماه بورقة خضراء فى عينه فعمى[1] بصره فصار يضرب رأسه بالجدار ويقول : « قتلنى رب محمد » . وخرجت عيناه ... ثم هلك .

وهناك روايات أخرى قيلت فى نهايته ، وكلها تتفق على أنه عمى ثم مات[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٤١٠ ، والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٨٥ .
(٢) حياة الرسول المصطفى ج ٢٠٩ .

وكان الأسود بن عبد يغوث إذا رأى المسلمين يقول لأصحابه مستهزئا بصحابة رسول الله : (قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر) وكان يقول للرسول صلى الله عليه وسلم إذا رآه : « أما كُلِّمْتَ اليوم من السماء يا محمد » .

وعندما مر الأسود برسول الله وهو يطوف ، قال جبريل عليه السلام : « كيف تجد هذا يا محمد » قال صلى الله عليه وسلم : « عبد سَوْء » فأومأ جبريل عليه السلام إلى رأسه وقال : كفيته فقيل : إنه خرج من عند أهله فأصابته السموم فاسود وجهه حتى صار حبشيا ، فأتى أهله فلم يعرفوه ، وأغلقوا دونه الباب فرجع وصار يطوف بشعاب مكة وهو ينطح الشجر برأسه ويضرب بالشوك وجهه .... حتى مات عطشا(١)

أما العاص بن وائل السهمى فكان إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة ولديه القاسم ثم عبد الله يقول : « دعوه فإنه رجل مبتور لا عقب له ... لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه »

فنزل قوله تعالى : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر . فصلِّ لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر** ﴾(٢)

وكان صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة مرة فاعترضه العاص بن وائل ومعه آخرون ، وقالوا : « هلم يا محمد فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت فى الأمر . فإذا كان الذى تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه . وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه »

فأنزل الله تعالى :

﴿ **قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين** ﴾(٣)

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ٢. ص ٤٥ وحياة الرسول المصطفى ج ١ ص ٢٠٩ .
(٢) سورة الكوثر ١ — ٣ .
(٣) سورة الكافرون ١ — ٦ .

وعندما مر العاص برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد آذاه ، قال جبريل عليه السلام « كيف تجد هذا يا محمد قال صلى الله عليه وسلم : « عبد سَوْء » فأوما جبريل عليه السلام إلى أخمص رجله وقال ..... كفيته[١] فخرج العاص على حمار له يريد الطائف فنزل شعبا فدخلت فى أخمص رجله شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى أو كعنق البعير فمات[٢] .

روى ابن اسحاق قال : وكان عظماء المستهزئين خمسة نفر ذوى أسنان وشرف فى قومهم ، زادوا فى إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم الأسود ابن المطلب أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث ، والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل ، والحارث بن الطلاطلة[٣] ، شكاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جبريل وقد دعا عليهم فاستجاب الله دعاءه وانتقم منهم شر انتقام

ونزل فيهم وفى غيرهم من الذين تمادوا فى الشر قوله تعالى : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون** ﴾[٤] .

وليس كل هذا بمستبعد على الخالق سبحانه وتعالى ، فينتقم من الظالمين ، المناهضين لدينه سبحانه ولدعوته ، وكان هذا جزاءهم لأنهم بالغوا فى الإيذاء . فنالوا عقابهم .

* * *

---

(١) حياة الرسول المصطفى ح ٢٠٩ .
(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٨٤ ــ ٨٩ والسيرة النبوية لابن هشام ح ١ ص ٤١٠ .
(٣) السيرة النبوية لابن كثير ح ٢ ص ٨٧ .
(٤) سورة الحجر ٩٤ ــ ٩٦ .

« صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة اللهم
اغفر لآل ياسر »
من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم

السيدة خديجة وإيذاء المسلمين

كانت السيدة خديجة رضى الله عنها بقلبها الكبير ، وتفكيرها الدائم مع الرعيل الأول الذى أسلم ، وتمسك بإيمانه لم يصرفه عنه صارف ، وعض عليه بالنواجذ ، وتحمل الأذى بصنوفه وألوانه ابتغاء مرضاة الله فكان يشغل بالها ما يلاقى المسلمون ، كانت حينما تسمع عن مسلم أوذى أو عذب ، يستولى عليها الأسى والحزن ، ولا تملك إلا الدموع تنهمر من عينيها رحمة وشفقة بالفئة المؤمنة ، وأسى من أولئك العتاة الذين خلت قلوبهم من كل رحمة ، وعقولهم من كل تفكير سليم ، يقربهم من الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وكانت دائما تتجه إلى الله بالدعاء أن يمنع أذى المشركين عن عباده المؤمنين ، وأن يهديهم إلى التفكير فيما يعود عليهم بالنفع فيؤمنوا بما جاء به الرسول الأمين ، وكانت حينما تتذكر أن الله مع المؤمنين وبخاصة الضعفاء منهم يرعاهم ويحرسهم ويثبتهم يسرى عنها ، ويخفف عنها لواعج الألم والتعب .

كانت إذا قابلت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو امرأة من المسلمات ، وقصوا عليها جديدا من أذى أو عذاب مما يفعله المشركون بالمسلمين ، قابلت ذلك ــ وقد تغلبت على ما تعانيه فى داخليتها ــ بابتسامة التشجيع والمواساة ، مذكرة من يحدثها بما أعده الله لتلك الفئة المجاهدة الصابرة من الثواب ، وحتمية النصر فى هذه الدنيا ، وما أعده الله للمسلمين فى الدار الآخرة .

كانت تنتهز هذه الفرصة لتطيل الحديث عن وعد الله وما أعده للمؤمنين لتجدد الحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأنها تقول انظر إلى المؤمنين الذين اتبعوك وهم الصابرون لكل أنواع العذاب ، لتشد من أزره ، وتقوى من عزيمته رضى الله عنها .

كانت تتبع أخبار المسلمين ، وتختلط بالمسلمات وتجالسهن ، وتحثهن على التمسك بالصبر ، والاعتصام بحب الله ، وتذكرهن بما أعد الله لهن .

كانت تسأل ماذا فعل فلان وفلان — وهى أم المؤمنين — وماذا فعل فلان حينما لاقاه الأعداء بما لا قبل له به من التعذيب والتنكيل ، فضربوه وأهانوه حتى قارب الموت ، فإذا ذكر لها أن إيمانه كان أقوى من كل شيء وأنه تحمل ما لاقاه بعزيمة الصابر المحتسب ، حمدت الله أن وهبه الإيمان القوى ، وثبت قلبه على محبته والاخلاص له ، ويزداد حمدها وشكرها لله حينما ترى أن العذاب الشديد لم يرد واحدا عن الإيمان ، بل يزداد إيمانهم واعتصامهم بحبل الله .

إن تعذيب الكفار للمسلمين لم يترك واحدا منهم سواء أكانت له منزلة ومكانة عند القرشيين فى الجاهلية أم لم تكن له منزلة ، وسواء أكان حرا أم غير حر ، حتى إن الذين نسوا ولم يعذبوا فى غمار فوضى التعذيب ، حزنوا لأنهم لم يعذبوا مثل إخوانهم .

فهذا هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشاكل القوم ، ليستفزهم ليتضارب معهم بعد ما أسلم ، وينتظر أن يتجمع القوم عليه ، ثم ينهالوا عليه بالضرب المبرح ، حتى يشعر أنه لاقى ما لاقاه المسلمون .

يحدث عمر رضى الله عنه فيقول : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أى أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة ؟ حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت . فقلت « أبو جهل » وكان ابن عم لحنتمة بنت هاشم بن المغيرة أم عمر .

قال : فأقبلت حين أصبحت ، حتى ضربت عليه بابه ، فخرج إلىّ أبو جهل فقال : مرحبا وأهلا يا ابن اختى . ما جاء بك ؟

قال : قلت : جئت أخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وصدقت بما جاء به . قال : فضرب الباب فى وجهى وقال : « قبحك الله ، وقبح ما جئت به »(١)

وجاء عمر إلى رجل من كبار قريش فأخبره فمازاد على ما فعله أبو جهل . قال عمر بن الخطاب : فقلت فى نفسى ما هذا بشيء ، الناس

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٠ .

يضربون ، وأنا لا يضربنى أحد . كان عمر يبحث عن أسرع الطرق لإعلان إسلامه على أهل مكة جميعا ، ولو أعلنه بنفسه فقد يتعرض لما يؤخر الخبر عن أهل مكة .

وأخيرا اهتدى إلى الطريق السريع الذى يبغيه فخرج يطلب جميل بن معمر الجمحى ، وكان أفشى أهل مكة للحديث ، فأتاه فقال له : يا جميل إنى قد أسلمت ، فمارد جميل عليه بكلمة ، بل عمد إلى المسجد وتبعه عمر . فلما بلغه نادى فى أندية المشركين : يا معشر قريش إن ابن الخطاب قد صبأ » فقال عمر : كذبت ولكنى أسلمت وآمنت بالله ، وصدقت رسوله فساوروه فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رؤوسهم حتى فتر عمر وجلس ، فقاموا على رأسه فقال عمر : افعلوا ما بدا لكم . فو الله لو كنا ثلاثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم » فبينما هم كذلك قيام إذا رجل عليه حلة حرير وقميص فقال : ما بالكم ؟ قالوا : إن ابن الخطاب قد صبأ قال : فمَهْ امرؤ اختار دينا لنفسه . أتظنون أن بنى عدى يسلمون إليكم صاحبهم ؟ قال : فكأنما كانوا ثوبا انكشف عنه[1] .

وهكذا فقد ضرب عمر رضى الله عنه ، واستراحت نفسه حينما لاقى ما كان يلاقيه إخوانه المسلمون ، فالكل تعرض للإهانة بأنواعها المتعددة

وهذا هو أبو بكر لم ينج من عذاب القوم وإيذائهم رغم عظم منزلته عند القرشيين ، لقد بلغ من شدة الإيذاء درجة الموت ، وهو بين أيديهم وقد انهالوا عليه بالضرب وأشبعوا وجهه بالكدمات حتى غاب عن الحياة فلم يهن ، ولم يضعف بل ازداد إيمانا على إيمانه وحبا فوق حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد قام خطيبا متحمسا فى المسجد يدعو إلى الله وإلى الرسول ، وثار المشركون على أبى بكر ومن وجد من المسلمين فى نواحى المسجد وضربوهم ضربا شديدا ، وكان أبو بكر من أشدهم تعرضا للإهانة والضرب فقد دنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين على جسمه ووجهه وبطنه ، حتى

---

(١) سبيل الهدى ج ٢ ص ٤٩٩ .

أدمى كل وجهه ، وأصبح لا يعرف وجهه من أنفه ، وجاءت بنو تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبي بكر رضى الله عنه ، وحملت بنوتيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه على أمه ، ولا يشكون فى موته ، ثم رجعوا إلى المسجد ، فدخلوه وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة .

ثم تكلم أبو بكر آخر النهار ، وكان أول كلمة نطق بها قوله : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ولكن المحيطين به من الكفار عنفوه ، ونالوا منه بألسنتهم ، وقالوا لأمه : انظرى .... احذرى أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه .

فلما خلت به ، ألحت عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله مالى علم بصاحبك .

فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه .

خرجت الأم ، وكانت تدعى « أم الخير » حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله . فقالت : ما أعرف أبا بكر ، ولا محمد بن عبد الله .... وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك قالت : نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا لا يستطيع الكلام فدنت « أم جميل » وأعلنت بصوت مرتفع قائلة : إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم . قال رضى الله عنه : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت « أم جميل رضى الله عنها » هذه أمك تسمع . قال : فلا شيء عليك منها . قالت : سالم صالح . قال : فأين هو ؟ قالت : فى دار الأرقم قال : فإن لله علىّ أن لا أذوق طعاما ، ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ظلت « أم جميل » عنده حتى هدأت الرِّجْلُ ، وسكن الناس فخرج يتكىء حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأكب عليه يقبله وأكب المسلمون عليه ، ورق له رسول الله صلى الله عليه وسلم رقة شديدة فقال أبو بكر — رضى الله عنه — بأبى أنت وأمى — يارسول الله — ليس بى بأس إلا ما نال الناس من وجهى ، وهذه أمى بَرَّة بولدها ، وأنت مبارك ،

فعسى الله أن يستنقذها بك من النار ، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت رضى الله عنها(١) .

وليست هذه أول مرة يعذب فيها أبو بكر ، ولكنها واحدة من مرات عديدة نذكر منها أنه حينما أظهر إسلامه ، وكان معه طلحة بن عبيد الله التيمى أخذهما نوفل بن العدوية ، وكان يدعى أسد قريش فشدهما فى حبل يريد أن يفتنهما ويرجعهما إلى دين قريش ، ولم يمنعهما بنوتيم ، ولم يستطع ابن العدوية بما أولاهما من تعذيب أن يردهما عن دينهما ، ولذلك سمى أبو بكر وطلحة القرينان ، ولشدة ابن العدوية وقوة شكيمته كان صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اكفنا شر ابن العدوية »(٢)

ولقد لاقى عثمان بن عفان حظه من التعذيب يوم أسلم ، فما أن علم عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية بإسلامه ، حتى حاول أن يثنى ابن أخيه بشتى الوسائل ، فلما رأى إصراره ، وذهاب كل طرق المسالمة معه ، أوثق كتافه ، وأنزل به أشد العذاب ، ولما لم يُجْدِ ذلك ، ورأى عزمه وإصراره على الموت فى سبيل الدعوة إلى الله أطلق سراحه .

أما الزبير بن العوام ، وقد مات أبوه وهو صغير ، فإن عمه لم يرض عن الزبير ابن أخيه أن يكفر بآلهة قومه ، وأن يعبد إلها واحدا فقد غضب عليه وهدده بالضرب حتى يعود إلى دين آبائه وأجداده ، ولكن الزبير لم يأبه بقول عمه وأجابه بكل شجاعة : لن أفارق دينى : وشد عمه وثاقه ، وجاء بدخان يعذبه به فملأ عينيه ، وأرسل منهما الدموع وراح يخز مقلتيه وخزا شديدا ، وتسرب إلى رئتيه فراح يسعل وقد ضاق نفسه حتى خيل إليه أنه الموت ، وأن روحه تكاد أن تفر من بين جنبيه ، ولكنه صبر واثقا بما عندالله من الأجر والثواب ولم يجد معه أنواع العذاب التى تفنن فيها عمه ، ولم يكن بد من تركه على ما هو عليه .

أما عبد الله بن مسعود ، فقد اجتمع يوما مع إخوانه من المسلمين فقالوا والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟

---

(١) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٢٨ .
(٢) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٠٩ .

فقال عبد الله بن مسعود : أنا . قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إذا أرادوه ، قال : دَعونى فإن الله تعالى سيمنعنى .

فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها حتى قام عند المقام ثم قال : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان** ﴾ واستمر فى القراءة ، وتنبه القوم ، وسألوا : ماذا قال ابن أم عبد الله ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثّروا بوجهه. قال إخوانه حينما رجع إليهم هذا الذى خشينا عليك . قال : ما كان أعداء الله تعالى أهون علىّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا .

قالوا : لا حسبك : قد أسمعتهم ما يكرهون[1] .

ولقد تعصب سفهاء المشركين من بنى مخزوم ، فهموا بقتل بعض من أسلم من قبيلتهم ، وأرادوا قتل « سلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة ومعهما الوليد بن الوليد بن المغيرة » وقبل أن يقدموا على فعلتهم الشنيعة مشوا إلى هشام بن الوليد أخى الوليد بن الوليد بن المغيرة ، يستأذنونه فى ذلك قائلين : إنا قد أردنا أن نعاقب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذى أحدثوا ، فإنا لا نأمن بذلك من غيرهم ، وإن أخاك فى مقدمتهم . قال هشام : هذا فعليكم به فعاتبوه وإياكم ونفسه ، وإلا تبقى بيننا العداوة أبد الدهر ، احذروا على نفسه ، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلا فعدلوا عن قتله ونجا معه من كان يزمعون قتلهم من بنى مخزوم .

كان أبو جهل هو الذى يغرى بالمسلمين فى رجال قريش فإذا سمع برجل قد أسلم ، فإن كان له شرف ومنعة أنبه وخزاه فيقول : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن رأيك ، ولنضعن شرفك وإن كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفا ضربه ، وأغرى به .

وروى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضى الله عنهم : أكان

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٤ .

المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟ قال : نعم ، والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالسا من شدة الضرب الذى به حتى يعطيهم ما سألوا من الفتنة حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهان من دون الله فيقول : نعم . افتداء منهم مما يبلغون من جهده[1] .

ولقد تحمل الأحابيش والعبيد والضعفاء أشد العذاب وأقواه ، واستخدم العتاة من قريش كل صنوف التعذيب وأنواعه المختلفة ، وما كان ذلك ليضعف من عقيدتهم ، أو يميل بهم إلى الكفر ثانية .

من هؤلاء بلال بن رباح الحبشى مولى أمية بن خلف الجمحى كان رضى الله عنه صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان أمية يعذبه أشد العذاب ، يريد أن يفتنه فى دينه ، فكان يخرج به إذا حميت الظهيرة بعد أن يجيعه ويعطشه يوما وليلة ، حتى إذا حميت الشمس ، واشتدت حرارتها ، طرح بلالا على ظهره فى بطحاء مكة فى الرمضاء التى تذيب الحصى ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيأبى بلال .... ويقول رضى الله عنه وهو فى ذلك البلاء أحد ... أحد ... أنا كافر باللات والعزى .

قال عمرو بن العاص : مررت ببلال وهو يعذب فى الرمضاء ، ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت وكان يقول : أنا كافر باللات والعزى وأمية مغتاظ عليه ، فيزيده عذابا ، فيقبل عليه فيدغت فى حلقه ، فيغشى عليه ثم يفيق .

وكان أحيانا يجعل فى عنق بلال حبلا من ليف النخل الخشن ، ويدفع به إلى الصبيان يلعبون به ، ويطوفون به شعاب مكة ، وهم يجرونه يمينا وشمالا وهم يلهون به ويتضاحكون . وكان يقول رضى الله عنه أحد ... أحد ... أنا أكفر باللات والعزى وهبل ونائلة وبوانه ، ثم يأخذه أمية منهم ويضعه فى الرمضاء . ولقد مر به أبو بكر يوما وهم يصنعون به ذلك ، وكانت دار أبى

---

(١) نهاية الأرب ج ١٦ ص ٢٣١ .

بكر فى بنى جمح ، فقال أبو بكر لأمية : ألا تتقى الله فى هذا المسكين حتى متى تعذبه ؟ قال أمية بن خلف : أنت أفسدته ، فأنقذه مما ترى . قال أبو بكر : أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك فبادلنى به . قال : قد قبلت .... هو لك . فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك ، وأخذ بلالا فأعتقه .

ومن الذين عذبوا خباب بن الأرت ، وكان من أهل سواد العراق ، فأغار قوم من ربيعة على الناحية التى كان فيها فسبوه ، وأتوابه الحجاز ، فباعوه ، فوقع إلى سباع بن عبد العزى الخزاعى ، حليف بنى زهرة .

وقيل : هو ابن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة كان أخا سباع لأمه ، وأنه وقع عليه سَبْى ، فصار إلى أم أغار مولاته فأعتقته .

وروى أن خبابا هذا كان حدادا ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يألفه ، أسلم قديما ، وقيل : إنه كان سادس ستة قبل دخول النبى صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن الأرقم ، عذبه الكفار عذابا شديدا فكانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ، ثم بالرضف ، ولووا رأسه ، فلم يجبهم إلى شىء مما أرادوا منه .

وعلمت مولاته بإسلامه ، فكانت تأتيه بالحديدة وقد أحمتها ، فتضعها على رأسه وعلى ظهره وهو مكتوف إلى سارى الدار ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ألا تدعو الله لنا فيخفف من عذابنا ويريحنا من موالينا . فمسح رسول الله بيده ظهره وصدره فبرأ مما فيه من جراح ثم قال : اللهم انصر خبابا . فابتلى الله مولاته ، فقد شكت علة فى رأسها فقيل لها : اكتوى فى موضع العلة وهو الرأس ، فلم تجد غير خباب ليكويها فى رأسها فكانت تأمره بذلك وكانت تصرخ من شدة اللهب ، وهذه مشيئة الله أن يكون خباب هو الذى يكويها والجزاء من جنس العمل .

كان المشركون يكلفونه بصناعة السيوف ، ولا يعطونه أجرا ، فجاء إلى العاص بن وائل يطالبه ببعض ما عليه ، فقال له : يا خباب : أليس يزعم صاحبكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم فقال خباب :

بلى . قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هناك حقك فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله منى ، ولا أعظم حظا فى ذلك .

وروى عن خباب قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متوسد برده فى ظل الكعبة ، ولقد لقينا من المشركين شدة شديدة فقلت : يارسول الله ألا تدعولنا ؟

فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلكم عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأس أحدهم فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

وأيضا من العبيد أبو فكيهة ، كان عبدا لصفوان بن أمية بن خلف الجمحى ، أسلم مع بلال وكان سيده يربطه فى حبل ويجره فى الرمضاء ويلقيه فيها ، ويخنقه خنقا شديدا حتى تكاد روحه تزهق ، وكان رضى الله عنه يرميه صفوان بن أمية على ظهره ويضع على بطنه صخرة حتى يخرج لسانه ، وأبى بن خلف خلف صفوان يقول له : زده عذابا حتى يأتى محمد فيخلصه بسحره ، وكان يشير إلى صنم من الأصنام فيقول له : أليس هذا ربك ؟ فيقول : الله ربى وربك ورب هذا اشتراه أبو بكر رضى الله عنه من صفوان ، وهاجر مع المهاجرين إلى المدينة وقاتل يوم بدر حتى استشهد .

ومن الذين عذبوا العذاب الأليم ومات بعضهم تحت وطأة العذاب وشدته ، فأحزن أمرهم المسلمين ودمعت عيونهم ، وكمدت قلوبهم وأصابهم الألم ، وسارت الركبان بسيرتهم ، وأبكت السيدة خديجة طويلا ، واتجهت إلى الله بالدعاء وطلب الرحمة لهم ورفع مكانتهم عنده سبحانه وتعالى عمار بن ياسر وأبوه وأمه رضى الله عنهم .

كان عمار ملازما للرسول صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام ، وقبل زواجه من السيدة خديجة رضى الله عنها ، وربما كان له دور فى إتمام الخطبة

الميمونة ــ وقد مر طرف من ذلك ــ ولقد كان يزور النبى صلى الله عليه وسلم فى بيته ويجلس معه طويلا ولعل هذا مما لفت نظر المشركين فزادوا فى تعذيبه .

كان ياسر بن عامر العنسى حليفا لأبى حذيفة بن المغيرة بن عبد الله المخزومى ، وكان لأبى حذيفة مولاة تدعى سمية بنت خياط ، فزوجها لياسر فولدت عمارا .

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم آل ياسر فى مقدمة من أسلم وتولى المشركون تعذيبهم حتى استشهد ياسر فى أثناء تعذيبه .

كان أبو جهل يتولى تعذيب عمار وأمه ، فيجعل لعمار درعا من حديد ، ويوقفه فى حمارة القيظ حتى يتهرى لحمه ، ويندلع لسانه من شدة العطش ثم يشرع هو وجماعة فى كيه بالنار ، حتى يفقد وعيه من شدة الألم ، وكان أثر النار فى جسمه أبيض كأنه البرص .

لقد أسرف المشركون فى تعذيبه ذات يوم ، وقالوا لن نتركك حتى تذكر آلهتنا بخير ، وتنال من محمد ، وجعلوا يضعون على صدره الحجارة المحماة تارة ويطمسون رأسه فى الماء تارة أخرى .

أجابهم إلى ما طلبوا منه ، وعندئذ تركوه ، فنهض عمار : يتحامل على نفسه وقد أظلمت الدنيا فى وجهه ، وهو يعتقد أنه قد جاء أمرا عظيما ، ومشى متثاقلا حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال رسول الله لعمار : ماوراءك يا عمار ؟ قال عمار شر يا رسول الله ما تُركت حتى نلت منك ، وذكرت آلهتهم بخير . قال صلى الله عليه وسلم : فكيف تجد قلبك ؟

قال عمار : أجد قلبى مطمئنا بالإيمان .

قال صلى الله عليه وسلم : فإن عادوا فعد . وجاء بعض الصحابة ، وقد بلغهم ما قاله عمار ، وقالوا إنه كفر . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلا .... إن عمارا ملىء بالإيمان من مفرقه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه .

ولقد بين الله سبحانه وتعالى حالة الذين أكرهوا ، ولم تتأثر قلوبهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم** ﴾[1]

أما سمية رضى الله عنها فقد عذبت عذابا أليما ولكنها لم تضعف ولم تلن ، وجاء الملعون أبو جهل فأغلظ لها القول ، ولكنها لم تصمت ، فقد ردت عليه وهى قوية الإيمان بالله معتزة بإسلامها فطعنها الملعون طعنة خرت من بعدها صريعة ، وكانت أول شهيدة فى الإسلام .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يمر بهم ويدعو لهم ويقول : « صبرا آل ياسر ... صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة ، اللهم اغفر لآل ياسر »

وهذه زنيرة الرومية تؤمن بالله ، وبرسوله فيحاول أبو جهل أن يردها عن إيمانها إلى عبادة الأصنام ، فتأبى إلا الله ورسوله . قال أبو جهل وهو يتعجب من تمسك زنيرة بعقيدتها : لو كان ما أتى به محمد خيرا ما سبقتنا زنيرة ، وكان الملعون قد عذب زنيرة حتى فقدت بصرها . فقال لها أبو جهل : إن اللات والعزى فعلتا بك ما ترين . فقالت وهى لا تبصر : وما تدرى اللات والعزى من يعبدهما ، ولكن هذا أمر من السماء ، وربى قادر على أن يرد بصرى .

فرد الله إليها بصرها فى تلك الليلة . فقالت قريش : هذا سحر محمد ، فاشتراها أبو بكر وأعتقها .

وكذلك من الصابرات المؤمنات النهدية وابنتها ، كانت النهدية مولاة لبنى نهد بن زيد ، فصارت لامرأة من بنى عبد الدار ، فكانت تعذبها هى وابنتها وتقول : والله لا أقلعت عنكما أو يعتقكما بعض من صبأ مثلكما فمر بهما أبو بكر رضى الله عنه ، وقد بعثتهما مولاتهما فى طحين لها وهى تقول : والله لا أعتقكما أبدا . فقال رضى الله عنه : حل يا أم فلان فقالت : حل أنت ، والله أفسدتهما فاعتقهما قال : فبكم هما ؟ قالت : بكذا ... وكذا ... قال : قد

---

(١) سورة النحل ١٠٦ .

أخذتهما به ، هما حرتان . أرجعا إليها طحينها قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ، ثم نرده إليها قال : أو ذاكما إن شئتما .

هذه صورة من أنواع التعذيب الذى لاقاه المسلمون الأوائل وقد كانت السيدة خديجة رضى الله عنها تسمع بهم ، وترى الفئة المؤمنة تصبر وتكافح العذاب والاضطهاد ، وتدعو الله أن يمن على هؤلاء الصابرين بالفرج فينقذهم مما هم فيه من الظلم والطغيان .

* * *

« يا لكره ما أرى منك يا خديجة وقد يجعل الله لى فى الكره خيرا كثيرا »

من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم

★★★

« أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإلىّ لكم هاتان الهجرتان جميعا »

من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم

السّيدة والهجرة إلى الحبشة

اشتد الإيذاء بالمسلمين جميعا ، لا فرق بين السادة الذين أسلموا من قريش وبين الأحابيش والعبيد . كل له إيذاء على قدر منزلته ، وقد يتجاوز الحد فى الإيذاء ، فيصل إلى ذروته ، وقد يصل إلى الموت ، كما حصل لياسر وزوجته . أما السادة وإن كان قد غضب عليهم أقاربهم ، فلا يسمحون لأحد بقتلهم بل إنهم لينكرون على من يخاطبهم فى هذا الأمر كما مر .

ولكن الإيذاء جاوز الحد ، وكاد أن ينفذ صبر من ليسوا فى جوار ، وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : « ليس لنا من أمرنا صبر . فأذن لنا فى الدفاع عن أنفسنا » قال صلى الله عليه وسلم : « انتظروا أمر الله » فلما كانت الليلة التالية نزل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم** ﴾(1) فامتلأت نفس الرسول الكريم حزنا أمام المآسى التى كان يتحملها ضعاف المسلمين الذين لا يجدون من يحميهم .

ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله تعالى ثم من عمه أبى طالب وأنه لا يستطيع أن يمنعهم مما هم فيه ، فأذن لهم بالهجرة .

ولكن إلى أين تكون هذه الهجرة ؟ وما المكان الذى يطمئن إليه الرسول حتى يأمن على المسلمين فيه ؟ إن الجزيرة العربية كلها ليس فيها مكان يصلح لأن يهاجر إليه المسلمون فالقبائل العربية كلها ما تزال تحترم قريشا ، وتسلم إليها القيادات ، وبخاصة القيادة الدينية ، لأن البيت الحرام الذى يدين له العرب موجود فى مكة ، والقرشيون هم سدنة البيت ، وهم الذين يقومون على الأصنام التى تعبدها القبائل المنتشرة فى أنحاء الجزيرة ، ولن تستطيع قبيلة مهما

---

(1) الأحقاف ٣٥ .

أوتيت من قوة أن تحمى المسلمين المهاجرين إليها ، و تضع نفسها موضع المدافع عنهم فتتحمل المسئولية .

فهل يذهب المسلمون إلى بلاد فارس ؟ إن ملوك فارس يدعون الألوهية ، وإن رعاياهم يسجدون لهم من دون الله ، وإن بعضهم ما يزالون يعبدون النار ويسجدون لها من دون الله ، والآخرون يعبدون النجوم والكواكب ، فهم أشد خطرا على المسلمين من قريش نفسها ، ولا يمكن أن يكون لهم عيش معهم .

فهل يذهبون إلى بلاد الشام ؟ لقد كان قياصرة الروم يملكون الشام ، وهم أصحاب كتاب إلا أن تمسكهم بدينهم أصبح واهيا ، وإن مجتمعا انصرف أهله عن الدين ، الحياة معهم واهية غير مأمونة .

لقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بالذهاب إلى الحبشة ، ولكن لماذا ؟ ألأن العداء القديم بين الحبشة وقريش والحروب التى كانت بينهم ما تزال آثاره مدفونة فى النفوس ، وأنهم لن يخضعوا لأمر قريش إذا طلبوا منهم تسليم المسلمين أو مضايقتهم .

أو لأنهم أهل كتاب ، متمسكون بدينهم ، وأنهم يعتقدون بنزول نبى بعد عيسى عليه السلام ، وأن الملوك المسيحيين يعرفون هذه الحقيقة ، ولا يهمهم إخفاؤها فليس لهم غرض كبير فى ذلك ، ولقد رأينا المقوقس وهو من أهل الكتاب يتقبل بسرور كبير كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ويرسل له هدايا عظيمة منها السيدة مارية رضى الله عنها .

لقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « تفرقوا فى الأرض فإن الله سيجمعكم » قالوا : أين نذهب ؟ قال : ها هنا وأشار إلى أرض الحبشة ، وكانت أحب الأرض إليه أن يهاجر قِبَلَهَا

وجاء فى الأثر قوله صلى الله عليه وسلم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا صالحا لا يَظْلِم ولا يُظْلَم عنده أحد . وهى أرض صدق فاخرجوا إليه حتى يجعل الله لكم فرجا ممّا أنتم فيه »[1]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ح ١ ص ٣٢١ .

إن أهل مكة لم يتعودوا على ترك بلدهم مهما كانت الدوافع إلى هذا الترك ، وهم لا يرضون بها بديلا ، ولكن الإيمان والحفاظ عليه ، وعبادة الله فى أى مكان مخلصة له وحده ، هى الغرض من هذه الحياة ، فالمكان ليس له قيمة ما دام تحارب فيه العقيدة ، ومادام يُصد فيه عن سبيل الله لذلك فقد هاجر المسلمون ؛ ليجدوا الأمان والطمأنينة ، حتى يعطوا الله حقه من الإخلاص والتضحية .

إن الإيمان بالله غَيَّرَ المفاهيم والأحوال وجعل المسلمين يستهينون بكل شيء فى سبيل ذلك .

لقد أراد أبو بكر نفسه الهجرة لكثرة إيذاء المشركين له ، فخرج مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ بَرْك الغِماد (١) لقيه ابن الدُّغُنَّة (٢) ، وهو كما يقولون : سيد القارة (٣) فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟

قال أبو بكر : أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض ، فأعبد الله عز وجل . قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج .... فأنا لك جار ، فارجع واعبد ربك ببلدك . وكان مع أبى بكر الحارث بن خالد ، فقال أبو بكر إن معى رجلا من عشيرتى . فقال ابن الدغنة : دعه فليمض لوجهه ، وارجع أنت إلى عيالك فقال له أبو بكر : فأين حق المرافقة قال الحارث : أنت فى حل فامض ، فإنى ماض لوجهى مع أصحابى ، فمضى حتى صار إلى الحبشة . فرجع أبو بكر ، وارتحل مع ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغّنة فى أشراف كفار قريش ، فقال : إن أبا بكر لا يخرج مثله ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وأنفذت جواره ، وأمنوا أبا بكر ، وقالوا لابن الدغنة : مُرْ أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، وليصل فيها ، وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر : فلبث أبو بكر كذلك

---

(١) موضع على خمس ليال من مكة .

(٢) واسمه الحارث بن زيد .

(٣) من قبيلة مشهورة يضرب بها المثل فى قوة الرمى قال الشاعر « قد أنصف القارة من راماها » .

يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ فى غير داره ثم بدا لأبى بكر رضى الله عنه ، فابتنى مسجدا بفناء داره ، فكان يصلى فيه ، فيجتمع عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه ، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، وأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم إليهم ، فقالوا : إنا كنا أجرْنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فأته فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك ، فسله أن يرد عليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان .

فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتى فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له .

فقال أبو بكر : فإنى أردُّ إليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى .(١) .

هذه صورة من صور المجتمع المعذب ، حتى فى أعظم رجاله من أمثال أبى بكر .

كان النبى صلى الله عليه وسلم يتألم وهو يرى الفئة المؤمنة تتسلل سرا خارجة من مكة ، وكانت تشاركه حزنه وألمه أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها ، ولقد حز فى قلبها أن ترى المسلمين يهاجرون إلى بلد بعيد ، يركبون له البحر ، وهذا ما لم يتعوده القرشى وليس لهم معرفة بأهله ، ولا يعرفون هل سيستريحون فيه ، أم لا ، وإنما كان لهم أمل كبير فيما أمرهم به رسولهم صلى الله عليه وسلم .

كانت تدعو لهم رضى الله عنها من كل قلبها أن يعيدهم الله سالمين إلى بلدهم وأهليهم .

---

(١) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٤٠ .

لقد كان فى مقدمة الركب رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وابنة السيدة خديجة ولم تحاول السيدة أن تمنعها وتقف حائلا دون ذهابها مع زوجها مهاجرة إلى ربها فى الإسلام ، وأيضا لم تمنع ابن أخيها خالد بن حزام بن خويلد ، وهو الذى سرت بإسلامه سرورا عظيما ، وكم تمنت أن تلقى أخاه حكيما بمثل ما لقيت به خالد بن حزام ولعلها رضى الله عنها تمنت أن تكون مع المهاجرين لولا وجود النبى صلى الله عليه وسلم وما تقوم به تجاهه من العناية والرعاية .

إنه الإيمان بالله الذى يهون فى سبيله كل صعب ، ويبذل له كل ثمين وغال ، ويتقرب به إليه سبحانه وتعالى بكل ما يملكه المسلم .

لقد خرج من فى البيت المبارك لتوديع رقية وزوجها عثمان بن عفان كان هناك على بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة وأخوها هند بن أبى هالة وأم كلثوم وفاطمة الزهراء ، وربما حضرت زينب أيضا وعلى رأس الجميع أم المؤمنين .

وتقابل من الجمع من تقابل وكان منه أبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ومعه امرأته هند بنت أبى معاوية بن المغيرة ، وعامر بن ربيعة العنزى ومعه امرأته ليلى بنت أبى حتمة بن غانم ، وأبو سيرة بن أبى رهم ومعه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو ، وسهيل بن وهب بن ربيعة ومصعب بن عمير بن هاشم ، وعبد الرحمن بن عبد عوف وحاطب بن عمرو بن عبد شمس وعثمان بن مظعون بن حبيب الجمحى .

خرج هذا الجمع المبارك ، أصحاب أول هجرة فى الإسلام ، خرجوا مستخفين يلفهم الليل البهيم ، وعين الرحمن ترعاهم ، وكان بعضهم يمتطي الدواب والبعض يسير على الأقدام ، وتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ميناء الشعيبة على ساحل البحر الأحمر ، وما أن وصلت جموعهم حتى أمروا عليهم واحدا منهم ، فقد اختاروا عثمان بن مظعون .

ومن توفيق الله ، أن وجد المهاجرون إلى الله سفينتين تستعدان للإبحار إلى أرض الحبشة فركبوا فيهما كل واحد بنصف دينار .

أقلعت السفينتان وقد علم المشركون بمكة بما كان من أمر الهجرة

والمهاجرين فأجمعوا أمرهم على أن يردوا المهاجرين إلى قريش بالقوة فأسرعوا خلفهم إلى ميناء الشعيبة ، ولكن ما كان أعظم دهشتهم حينما وجدوا الميناء خاليا ، وأن الجمع قد انطلق إلى عرض البحر منذ وقت قصير(١) .

عادوا إلى مكة وقد ملأ الغيظ والحقد قلوبهم عادوا بخفى حنين بين سخرية واستهزاء المشركين وفرح وسرور المسلمين لنجاة إخوانهم من مؤامرة المتآمرين .

وصل ركب الإيمان إلى أرضَ الحبشة فى شهر رجب من السنة الخامسة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدوا الأمن والأمان ، وحرية العبادة لله وحده ، وشعروا بالطمأنينة ، فراح شعراؤهم ينشدون الأشعار ، ويرددونها فى فرح وحبور حتى انتقلت من أرض الحبشة إلى مكة المكرمة وكان مما وصل إلى الأسماع فى مجتمع قريش قول عبد الله بن الحارث بن سهم :

يا راكبا بَلِّغَنْ عنى مُغَلْغَلَةً(٢) — من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرىء من عباد الله مضطهد — ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة — تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخزي — فى الممات وعيب غير مأمون
إنا تبعنا رسول الله واطرحوا — قول النبى وعالوا فى الموازين(٣)

وكان هذا مما حث المسلمين على الهجرة إلى الحبشة فقد خرجوا زمرا زمرا بعد الجماعة الأولى حتى وصل العدد إلى نحو من ثمانين ، منهم جعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء بنت عميس

روى عن أحمد عن ابن مسعود أنه قال : « بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نحو من ثمانين .

ثم إنه وصل إلى علم المهاجرين بالحبشة أن الوليد بن المغيرة وأبا أحيحة أسلما ، وسجدا خلف النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : فمن بقى بمكة إذا

---

(١) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٨٦ .
(٢) المغلغلة : الرسالة ترسل من بلد إلى بلد .
(٣) عال : خان والأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٣٣٠ .

أسلم هؤلاء ؟ وقالوا : عشائرنا أحب إلينا فخرجوا راجعين حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبا من كنانة فسألوهم عن قريش وعن حالهم فقال الركب : ما يزال محمد يشتم آلهتهم ويعودون له بالشر وقد تركناهم على ذلك . ففكر القوم فى الرجوع ثانية إلى الحبشة ثم قالوا : قد بلغنا ندخل فننظر ما فيه من قريش ، ويحدث عهدا من أراد بأهله ثم يرجع .

لم يدخل أحد إلا بجوار من يجيره من قريش ، أو يستخفى فلا يراه أحد ، وكان من الذين رجعوا ابن مسعود فمكث يسيرا ثم رجع إلى أرض الحبشة .

ومن الذين عادوا إلى مكة عثمان بن مظعون ، أجاره الوليد بن المغيرة فكان يغدو ويروح فى أمان الوليد بن المغيرة .

قال : والله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله مالا يصيبنى لنقص كبير فى نفسى .

مشى إلى الوليد ، فقال يا أبا عبد شمس ، وفَتْ ذِمتك ، وقد رددت إليك جوارك . قال : لم يا ابن أخى لعله آذاك أحد من قومى ؟ قال عثمان بن مظعون : لا ولكنى أرضى بجوار الله عز وجل ، ولا أريد أن استجير بغيره . قال : فانطلق إلى المسجد فاردد علىّ جوارى علانية كما أجرتك علانية فانطلقا حتى أتيا المسجد فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء يرد علىّ جوارى قال عثمان : صدق قد وجدته وفيّا كريم الجوار ، ولكننى قد أحببت ألا استجير بغير الله عز وجل فقد رددت عليه جواره .

ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة فى مجلس من قريش ينشدهم قبل إسلامه فجلس عثمان معهم . قال لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل . فقال عثمان : صدقت فقال لبيد : وكل نعيم لامحالة زائل . فقال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول . قال لبيد : يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه من سفهاء معه قد فارقوا ديننا فلا تجدن فى نفسك من قوله .

فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما ، فقام ذلك فلطم عينه فورمها والوليد ابن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان فقال : أما والله يا ابن أخى إن كانت عينك

عما أصابها لغنية ، ولقد كنت فى ذمة منيعة .

قال عثمان بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله عز وجل ، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

قال له الوليد : هلم يا ابن أخى إن شئت إلى جوارك فعد فقال : لا[1] .

وهكذا فقد أجار بعض المشركين من اراد البقاء من الذين أتوامن الحبشة ولم يرغبوا فى الرجوع .

وكان من الذين رجعوا إلى مكة عثمان بن عفان ، وزوجته رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامرأته سهلة بنت سهيل ، والزبير بن العوام ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة ، وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبى حثمة وغيرهم ، فقد قدم مكة من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلا .

لقد فرحت السيدة خديجة برؤية رقية وعثمان لكن ذلك لم يقطع السيدة رضى الله عنها من متابعة أحوال من بقى فى الحبشة والاستماع لأخبارهم وأحوالهم ، وكذلك أخبار من عادوا من الحبشة وألحق بهم العذاب كفار مكة ، حتى أذن رسول الله للمسلمين بالخروج إلى الحبشة مرة ثانية فخرج من خرج وكان معهم عثمان بن عفان وزوجته رقية .

كان خروجهم فى هذه المرة أعظم مشقة فقد لقوا من قريش تعنيفا شديدا ، ونالوهم بالأذى واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حسن جواره لهم .

وعندما أراد عثمان بن عفان الهجرة الثانية مع زوجته رقية قال : يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولست معنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإلىّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعا » قال عثمان : فحسبنا يا رسول الله[1] .

وعندما هاجر المسلمون المرة الثانية ، لم يزدادوا إلا أمنا وسكينة ،

---

(١) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٩٠ .

(١) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥١٧ ، طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢١٧ (ط بيروت) .

لايؤذيهم أحد ، ولا يسمعون شيئا يؤذيهم ، ولا يرون من النجاشى إلا خيرا .

لم تسكت قريش هذه المرة ، فقد اجتمعوا وتآمروا فيما بينهم ، واتفقوا على أن يبعثوا رجلين مشهورين بالخبرة والذكاء ، ولهم دراية بالمجتمع الحبشى وهما عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ، وكان معهم الهدايا التى يحبها النجاشى وبطارقته .

اجتمعوا أولا بالبطارقة ، وقدموا لهم الهدايا ثم قالا لهم : لقد جاء إلى بلدكم غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد جئنا إلى الملك نطلب منه أن يردهم معنا إلى أهليهم وبلادهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى وأعلم بما عابوا فيه .

فقالوا : نعم . فلما دخل عمارة وعمرو على النجاشى سجدا له وقدما له هداياهما فقبلها ثم قالا له : أيها الملك إن نفرا من بنى عمنا سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم جاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم فهم أعلى وأعلم بهم منا وبما عابوا عليهم وبما عيبوهم فيه .

قال البطارقة : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم وأعلم بما عابوا عليهم . فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم . قال النجاشى : أين هم ؟ قال عمارة وعمرو : فى أرضك . غضب النجاشى ثم قال : لاها الله إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

أرسل النجاشى إلى المسلمين يدعوهم للقائه ، فلما جاءهم الرسول ، اجتمع المسلمون وتناقشوا فيما يفعلون ويقولون .

ثم قالوا : والله ما نقول إلا صدقا ، ولا نحدث إلا بما جاء به ديننا ورسولنا وما فعله أهل مكة فينا .

قال جعفر بن أبى طالب : أنا أخطبكم اليوم ثم إن جعفر بن أبى طالب دخل على النجاشى وتبعه المسلمون ، فسلم ولم يسجد لا هو ولا المسلمون .

ولما سئلوا فى هذا قالوا : لا نسجد إلا لله عز وجل وحده .

قال النجاشى : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ لقد أجاب جعفر بن أبى طالب فأحسن وشرح ووضح ما كان عليه أهل مكة من عبادة الأصنام وأكل الميتة وقطع الأرحام والإساءة إلى الجار وإتيان الفواحش ما ظهر منها وما بطن ثم بعث الله رسوله بالهدى ودين الحق فأخرج المؤمنين به من الظلمات إلى النور ، فعبدوا الله وحده لا شريك له وأمروا بالصلاة والصدقة وصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء والبعد عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم .

قال جعفر : ولقد آمنا به وصدقنا بكل ما جاء به فما كان من سادة مكة إلا أن قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا وقد خرجنا من بلادنا إلى بلادك واخترناك عمن سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

ثم تلا جعفر شيئا من القرآن ، فبكى النجاشى ومن معه من أساقفته .

ثم قال له النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ثم اتجه النجاشى إلى عمارة وعمرو وقال لهما : أعبيد هم لكم ؟ قالا : لا قال : أفلكم عليهم دين ؟ قالا : لا قال : انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا ولا يُكادون[1]

لقد وصلت الأخبار إلى مكة تحمل رد النجاشى على رسولى القرشيين وفرح المسلمون بما أفاض الله على المهاجرين . وسر النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا لهم بالخير وكذلك فقد فرحت السيدة خديجة فلقد اطمأنت على المسلمين فى تلك البلاد البعيدة وكذلك اطمأنت على ابنتها رقية وزوجها عثمان ودعت لهم جميعا بالتوفيق وظلت تتابع الاستماع إلى أخبارهم بجانب ما تتابعه فى مكة

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٢٠ .

من طغيان الطغاة وظلم الظالمين ، وهى بجانب الرسول تتابع معه الأحداث الحديدة التى يأتى بها الكفار ويتفننون فى عملها وإلحاقها بالمسلمين ، وحتى وهى فى شعب بنى هاشم وقد منع الكفار عنهم كل شىء لم تنس هؤلاء البعيدين عن البلاد .

أما الذين هاجروا فقد رجع من رجع إلى مكة وبقى من فيها حتى علم بهجرة النبى صلى الله عليه وسلم فاتجه من الحبشة إلى المدينة وهم أشد إيمانا وأصلب عودا وأكثر استعدادا للجهاد فى سبيل الله .

* * *

المقاطعة ودور السيدة خديجة رضي الله عنها

كان لا يمر يوم على الدعوة إلى الله ورسوله إلا ويدخل فيه مسلمون جدد من مختلف الطبقات من السادة ومن العبيد ومن النساء حتى ومن الصبيان ولم يقتصر الأمر على الأفراد بل إن بعض القبائل بدأت تفكر فى الدخول فى الدعوة الجديدة .

وكانت قريش ورؤساؤها وأهل الصلف من المشركين قد فقدوا عقولهم وصوابهم فضاعفوا العمل والإيذاء لكى يقضوا على الدعوة وبرغم شدة الإيذاء ، فقد أصبح عديم الجدوى ، فالمسلمون يتحملونه مهما تناهى المشركون فى ضراوته وهم على استعداد ليتحملوا أكثر وأكثر فهو لم يمنع الناس من الدخول فى الدعوة ،بل أحيانا يكون الإيذاء سببا فى دخول بعض السادة فى الإسلام والإيمان بما جاء به محمد بن عبد الله كما فعل حمزة رضى الله عنه .

وأيضا فقد رأت قريش أن المسلمين حينما يهاجرون ويتركون مكة يصيبون المأمن والاستقرار ، ويكون ذلك دعاية لدينهم ولدعوتهم ، وهم لا ينسون ما لاقاه المسلمون فى الحبشة من الترحيب والبر ، وتركهم أحرارا يعبدون الله كما يشاءون

فكر القوم فى أسلوب جديد يمكن من وجهة نظرهم أن يقضى على الدعوة وهو التخلص من صاحبها ، ولكن كيف يمكن أن يتخلص من صاحبها بدون أن تكون هناك عواقب قد تجر الوبال عليهم . لقد فكروا فى أن يذهبوا إلى أبى طالب ، ويعرضوا عليه موضوعا جديدا لعله يقبله ، لقد مشوا إليه ومعهم « عمارة بن الوليد » ثم قالوا : يا أبا طالب هذا أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه ، وادفع إلينا هذا الذى خالف دينك ودين آبائك فإنما هو رجل برجل قال : بئس ما تسوموننى ، تعطوننى ابنكم أربيه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه !!

فقال المطعم بن عدى بن نوفل : يا أبا طالب ، قد انصفك قومك ، وجهدوا على التخلص منك بكل طريق قال : والله ما أنصفتمونى ، ولكنك أجمعت على خذلانى ، فاصنع ما بدا لك(1) .

قال أشراف مكة لأبى طالب : إما أن تخلى بيننا وبينه فنكفيكه ، فإنك على مثل ما نحن عليه أو أجمع لحربنا فإنا لسنا بتاركى ابن أخيك على هذا حتى نهلكه أو يكف عنا ، فقد طلبنا التخلص من حربك بكل ما نظن أنه يخلص .

ثم إنهم اجتمعوا ليتشاوروا فى أمر آخر ، يرونه حلا ليس له بديل يريحهم ، ويرتاحون من محمد ، وكان صاحب هذا الرأى « النضر بن الحارث » وأيده عقبة بن أبى معيط وأبو جهل بن هشام ، وصدق عليه أعداء الدعوة . هذا الرأى هو قتل محمد .

ولكن من الذى سيقتله ؟ ومن الذى سيرضى أن يكون هو وأهله هدفا لانتقام بنى هاشم وبنى المطلب ؟

ورأى القوم أن يمشوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب فذهبوا إليهم وأخذوا يساومونهم فقد قالوا لهم : خذوا منا دية مضاعفة ، ويقتل محمدا رجل من قريش وتريحوننا وتريحون أنفسكم(2)

فثار بنو هاشم وبنو المطلب واعتبروا هذا القول مهانة لهم ، فزادوا فى معارضة القوم والرد على سفههم .

فقد قالوا : والله لو مس محمد لظل القتال بيننا حتى يفنى بعضنا بعضا وبهذا انتقل الأمر من الإيذاء إلى عداء بين بنى هاشم وبنى المطلب غير أبى لهب وبين أعداء الدعوة من أمويين وتيميين ومخزوميين وغيرهم ممن انضم إليهم من قريش فى العداواة لمحمد وللمسلمين .

كانت السيدة خديجة تعجب أشد العجب مما وصل إليه القوم فى تفكيرهم الأحمق ، وهى تتابع سير الدعوة وموقف أهل مكة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفئة الضالة ولكن شدة إيمانها بالله ووعده الذى وعد به نبيه كان

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٦٦ .

(2) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٠٢ .

يفرج عنها الكثير من الحزن حتى تستعد للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذهب ما نزل به من حزن ، كى يتقوى على الدعوة والسير فيها .

لما رأى القوم تعصب الهاشميين والمطلبيين أجمعوا على مقاطعتهم وإخراجهم من مكة إلى شعب بنى هاشم بن عبد المطلب وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا يتزوجوا منهم ، ولا يزوجوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ولا يقبلوا منهم صلحا ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم اجتمعوا لذلك وتناقشوا ووجدوا الجمع موافقا على ما اتفقوا عليه ، وأرادوا أن يؤكدوا ذلك فكتبوا صحيفة ، وكان الذى كتب الصحيفة النضر بن الحارث .

ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم ، ووقفوا لهم فى الأسواق يمنعونهم من ممارسة البيع والشراء بالمغالاة فى الأثمان والزيادة عليهم ، أو بشراء كل الطعام أو الأدم وما يحتاج إليه ، ووقفوا لكل قافلة تأتى إلى مكة يحذرونهم ويهددونهم أحيانا إن هم باعوا أو اشتروا من بنى هاشم بن عبد المطلب .

لقد انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب فدخل إلى شعبه الكل سواء منهم من آمن بما جاء به محمد أو لم يؤمن ، فالمؤمنون دخلوا حفاظا على عقيدتهم وتعاونا مع إخوانهم ، واتحادا مع الفئة المؤمنة ، والذين لم يؤمنوا إنما دخلوا حمية وعصبية مع أهلهم وذويهم ، ولم يشذ عن بنى هاشم إلا أبو لهب فقد انضم إلى قريش ووقف من أهله موقف العداء .

لقى أبو لهب هند بنت عتبة زوج أبى سفيان بن حرب أخى زوجته « حمالة الحطب » فقال : يا بنت عتبة هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقها وظاهر عليها ؟! قالت : نعم جزاك الله خيرا يا أبا عتبة .

أقام القوم على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شىء إلا سرا مستخفيا به من أراد أن يصل قريبا له من قريش ، لقد قطعت عنهم الميرة حتى إن الرجل ليخرج بالنفقة فما يبايع حتى اشتدت بهم الحال .

كانت السيدة خديجة بنت خويلد من الأوائل الذين دخلوا الشعب مع زوجها تشاركه وتتبعه إيمانا ومحبة لله ولرسوله ، تتحمل آلام الحياة وشظف العيش وهى هنية بجواره ، وعيناها تحرسه وترعاه ليلا ونهارا تراقبه مخافة أن تغدر به قريش .

وكذلك كان يفعل أبو طالب ، فكان وهو فى الشعب يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى إلى فراشه كل ليلة حتى يراه ويطمئن عليه ، وحتى لا يصل إليه من أراد به شرا أو غائلة ، فإذا أراد الرسول أن ينام ، لا يتركه ينام فى فراشه بل يأمر أبو طالب أحد أولاده أو اخوته أو بنى عمه أن ينام الرسول مكانه وينام هو مكان الرسول ، وقد يأمر الرسول أن يأتى بعض فرشهم فيرقد فيه خوفا من أن تمتد يد آثمة إليه(١) .

كان بنو أسد يعرفون أن خديجة قد يؤذيها الجوع وهى التى تربت فى منابت العز والرفاهية لذلك فقد رتبوا أمورهم على أن يرسلوا إليها الكثير مما تحتاج إليه ، فكان إذا جاء الليل ونام القوم ، أعدوا المتاع الذى يظنون أنها تحتاج إليه ، ووضعوه فوق راحلة يتولى قيادتها غلام يذهب إلى خديجة ، وكان أحيانا يوضع المتاع على الراحلة ويؤتى بها إلى باب الشعب(٢)ثم تضرب لتدخل عند السيدة خديجة رضى الله عنها وما أظنها تستأثر وحدها بما تحمل الراحلة بل كانت كعهدها السابق يشاركها القريب والبعيد ، ولقد كان من فضل الله أن يكون للسيدة رضى الله عنها الفضل فى تمزيق الصحيفة وبسببها يوضع أول مسمار فى تحطيم هذه المقاطعة والقضاء على ماائتمر عليه القوم ، وأن يضرب أبو جهل بلحى بعير فيشج ويوطأ وطئا شديدا ، وأن يجتمع القوم بعدها لتمزيق هذه المعاهدة الغادرة .

لقى أبو جهل بن هشام حكيم بن حزام ابن أخى خديجة بنت خويلد ، وفى هذه المرة كان معه غلام يحمل قمحا يريد عمته خديجة فتعلق به الشقى أبو جهل وقال بصوت مرتفع : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟! لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٤٣ .

(٢) اتحاف الورى بأخبار أم القرى ح ١ ص ٢٧٣ .

فقال أبو البخترى بن هشام بن الحارث : طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل . أبى أبو جهل حتى نال كل واحد منهما صاحبه فأخذ أبو البخترى لَحْى بعير فضربه ، ووطئه وطئا شديدا .

ومن اليوم الذى ضرب فيه أبو جهل حينما أراد أن يشنع بحكيم بن حزام لإرساله القمح إلى عمته ، والقوم يفكرون فى إنهاء هذه الصحيفة الغادرة وكانت هذه الحادثة سببا لنقضها .

لقد راح القوم يفعلون مثل ما يفعل حكيم لعمته ، فقد تحدثت بيوت قريش ونساؤها بذلك ، وتناقلها الناس ، وعابوا على من لم يفعل مثله ، بل واتهموهم بالضعف والبعد عن النخوة والرجولة ، فأخذتهم الحمية والشهامة .

فهذا ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد المطلب لأمه ، وهو من أشراف قومه ، يأتى ليلا بالبعير قد أوقره طعاما بالليل حتى إذا صار قريبا من مدخل الشعب قلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبيه ، فيدخل عليهم الشعب ويأتى بالبعير قد حمله برا فيفعل مثل ذلك .

واستمر هشام ابن أخى نضلة فى شفقته ووصله لرحمه الذين هم داخل الشعب حتى لقد أدخل عليهم فى ليلة واحدة ثلاثة أحمال طعاما .

علمت قريش فمشوا إليه حين أصبح فكلموه فى ذلك فقال لهم : إنى غير عائد لشيء خالفكم .

فانصرفوا عنه ثم إنه عاد الثانية ، فأدخل ليلا حملا أو حملين فأغلظوا له القول وهددوه . فقال لهم أبو سفيان بن حرب : دعوه رجل وصل أهل رحمه ؛ أما إنى أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل لكان أحسن بنا(١) .

وبدأت المشكلة فى الحل ، فقد كره قوم وعلى رأسهم أبو سفيان هذه المقاطعة اللعينة ، وكأنه ندم على ما كان منه ، ومطاوعته لقومه ، فلام نفسه ، وتمنى لو فعل مثل ما فعل حكيم بن حزام وهشام ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد المطلب

---

(١) اتحاف الورى بأخبار أم القرى ج ١ ص ٢٨٣ .

ولم يقف الأمر عند الكره والبغض بل لقد فكر بعض الناس من أصحاب القلوب المشفقة والضمائر الحية فى القضاء على هذه الصحيفة ، وإبطال المعاهدة الجائرة ، فقد رأوا ما حل بأهلهم وذويهم من بنى هاشم بن عبد المطلب .

لم يكتف هشام بما قدم إلى أخواله من بنى هاشم بل بدأ يلعب دورا لحل هذه الأزمة ، فقد ذهب إلى زهير بن أمية ، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال له : يا زهير أرضيت أن نأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وننكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟

أما إنى أحلف بالله لو كان أخوال أبى الحكم بن هشام ، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك إليه .

قال : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها .

قال : قد وجدت رجلا . قال : من هو ؟ قال : أنا فقال له زهير : ابغنا رجلا ثالثا .. ذهب إلى المطعم بن عدى فقال له : يا مطعم أرضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ أما والله لئن مكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا .

فقال : ويحك فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد . قال : قد وجدت ثانيا . قال : من هو ؟ قال : أنا قال : ابغنا ثالثا . قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية قال : ابغنا رابعا . فذهب إلى أبى البخترى بن هشام ، فقال له نحوا مما قاله للمطعم بن عدى . فقال : وهل أحد يعين على هذا الأمر ؟ قال : نعم قال : من هو ؟ قال : زهير بن أمية والمطعم بن عدى وأنا معك قال : ابغنا خامسا . فذهب إلى زمعة بن الأسود فكلمه ، وذكر له قرابتهم ، وحقهم فقال : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم . وسمى له القوم.

تواعد القوم على الاجتماع ليلا ، واتفقوا على مكان اجتماعهم وهو أعلى

جبل الحجون ، وهناك تم الاجتماع ، وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى نقض الصحيفة ، حتى ينقضوها قال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس . قال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لا يباعون ، ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة

قال أبو جهل : — وكان فى ناحية المسجد : — كذبت والله لا تشق قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت قال أبو البخترى : صدق زَمْعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به .

قال المطعم : صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى الله منها ، ومما كتب فيها . وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل تشوور فيه فى غير هذا المكان .

كان أبو طالب جالسا فى ناحية المسجد وقد سمع ما دار بين القوم ورأى المطعم بن عدى وقد قام إلى الصحيفة ليشقها فوجدا أن الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك الله »[1]

وخرج النبى صلى الله عليه وسلم من الشعب وله تسع وأربعون سنة أما السيدة خديجة فقد ألم بها مرض فى أواخر الأيام وهى فى الشعب لذلك فقد خرجت متثاقلة غير نشطة نشاطها المعهود وذهبت إلى بيتها لتبدأ حياة جديدة .

* * *

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ح ١ ص ٣٧٦ .

ختام حياة كريمة

وانتهت المقاطعة والحصار بين حزب الكفار والمشركين أعداء الدعوة وبين فرح وسرور المؤمنين الصابرين المختبين ، واستعدت السيدة خديجة رضى الله عنها للعودة إلى بيتها ، لكنها لم تعد بنفس النشاط الذى أتت به ، فحينما جاءت إلى شعب بنى هاشم كانت أكثر نشاطا وحماسا للمشاركة فى هذه المحنة ، أما اليوم فإنها متثاقلة ، فقد دب الضعف إلى جسمها ؛ فحركاتها مقيدة ، وأعمالها قليلة ، ومسائلتها عن سير الدعوة محملة وكذلك عمن دخل فى الإسلام ، وعن الجديد من أحوال المسلمين ، وعما نزل من القرآن الكريم ، والاستماع إليه وترديده ، ثم عن أحوال المشركين مع المؤمنين ، وهل لانت قلوب البعض ؟ أم مازالوا على جفوتهم وخشونتهم لم يكن كل هذا بنفس الأسلوب الذى كانت تتحدث به أولا ، لقد كانت تطنب فى كل ما تقول وتسترسل فى أقوالها وتسأل عن كل أمر صغر أو كبر ، تريد أن تطمئن اطمئنانا كاملا عن كل موضوع يهم الرسول والمؤمنين ليزداد فرحها وشكرها لله ، وليكثر تضرعها ودعاؤها لله أن ينصر الدعوة ويمهد لها الطريق السوى .

لم تعد تملك الطاقة الكبيرة الأولى ، لكنها أصبحت تسأل وتجمل ، وتوجز فلا تطنب وبخاصة حينما كان يشتد عليها الضعف والمرض .

إنها الآن أكثر تفكيرا ، فهى تعلم أن الله هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليبلغ رسالته إلى الخلق ، وأنه مؤيده وناصره ومحال أن يتخلى عنه ، ليتركه للشرذمة الآثمة ، وأنه مالك أمره ، وأن المقادير تتدخل حينما تتأزم الأمور ، فهى لا تنسى ما فُعِل بأبى جهل حينما رأى نفسه متمكنا من أن يصيب محمدا . بحجره الكبير ، وهى لا تنسى ما فعل الله بأم جميل ـــ حمالة الحطب ـــ حينما حملت حجرها لتضرب به رأس محمد وهو جالس بجوار أبى بكر وقد جعل الله على بصرها غشاوة فلم تره ، إنها لاتنسى أشياء كثيرة ففضل الله عظيم ونعمه على رسوله جليلة .

أصبح النبى صلى الله عليه وسلم يجابه الكفار ، ويرد عليهم من منطق القوة ويجادلهم بالحجة والدليل ، وأن الأمور كلما زادت فى التعقيد ، كان حلها من الله فى صالح الفئة المؤمنة ، وإذا كان صلى الله عليه وسلم يصيبه الكثير من الأذى فى سبيل نشر الدعوة فإن ذلك لرفع مكانته ومنزلته عند رب العالمين .

إن الدعوة — والحمد لله — تسير بخير ، وإن المسلمين يزيد عددهم يوما بعد يوم ، ولقد انضم إليها الكثير من شباب قريش وسادتها وعبيدها وإمائها ، وكلهم من أصحاب المبادئ القوية ، والعقيدة الصلبة التى لا تلين ولا تضعف ، إنهم ملتفون حول رسولهم صلى الله عليه وسلم ، لو طلب منهم أن يلقوا بأنفسهم فى أشد المخاطر لفعلوا راضين فرحين بما أمرهم به ، ومنفذين ما أقبلوا عليه ، وإنهم على استعداد للتضحية بكل ما يملكون فى سبيل الله ، بل لقد ضحى الكثيرون فعلا بكل ما يملكون فى سبيل الدعوة حبا فى الله سبحانه وتعالى وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الحب أقوى وأشد من حب النفس والأموال والأولاد ، ورضى الله عن الذين ضحوا من أمثال أبى بكر وعثمان وغيرهما رضى الله عنهم أجمعين .

حتى النساء أصبحن يستعذبن الموت فى سبيل الله ، ويضحين من أجله بحياتهن ورحم الله سمية أم عمار بن ياسر وزنيرة الرومية والنهدية وابنتها رضى الله عنهن .

كانت السيدة خديجة رضى الله عنها كلما فكرت فى أمر الدعوة ، ورأت الأعداد والجماعات تكثر يوما بعد يوم أثلج صدرها ، وعمها البشر والسرور .

لقد كانت تود أن تظل بجانب رسول الله تساعده ، وتشد أزره ، وتدفع عن نفسه الكثير من الآلام والأحزان ، ولكنها تحس بقرب دنو الأجل ، والإنسان فان ، ورب العالمين هو الباقى وهو المصدر الأول للقوة والمساعدة التى يصغر أمامها كل عون وكل مدافع وإن للإنسان وقتا محددا مهما طال به العمر سينتهى ، وإنها لتحمد الله كثيرا على نعمة الإيمان وعلى ما أولاها من فضل وسبق وتشريفها بزواجها من رسول رب العالمين ، وأيضا على أن وفقها فقدمت ما قدمت من مال وجهد عن إيمان وثيق وطاعة لله ولرسوله .

لقد علمت أن أبا طالب يشتكى العلة ، وأنه قد أصابه الضعف والمرض وأنه حبيس فراشه ، ولم يعد يستطيع المشى والحركة كثيرا فمضت تسأل عن أحواله من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الذين يعودونها .

لقد وصل إلى علمها ما اجتمع عليه أمر قريش ، وذهابهم إلى أبى طالب ، فقد ذهب إليه عتبة وشيبة ابنا ربيعة ومعهما أبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب مع رجال آخرين من سادة قريش فماذا قالوا ؟

قالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه وخذ له منا ، وخذلنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا ودينا ، وندعه ودينه .

فما كان من أبى طالب إلا أن أرسل إلى ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ودخل على عمه أبى طالب ، وقد جلس القوم محيطين به ، ولم يكن بينهم وبينه سوى موضع لجلوس رجل ، فخشى أبو جهل أن يجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، فيكون قريبا من عمه ، فوثب أبو جهل فجلس فى ذلك المجلس فلم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا قرب عمه ، فجلس عند الباب .

قال أبو طالب — وهو فى مرضه — يريد أن يترك ابن أخيه وقد اطمأن عليه من جهة هؤلاء العتاة .

قال : يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك ، وقد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك ! فقال صلى الله عليه وسلم : نعم كلمة واحدة يعطونيها ، يملكون بها العرب ، وتدين لهم بها العجم . فزعوا لكلمته ولقوله فقال القوم : كلمة واحدة ؟ قال : نعم فقال أبو جهل : نعم وأبيك عشر كلمات !

قال صلى الله عليه وسلم : تقولون : لا إله إلا الله . وتخلعون ما تعبدون من دونه . فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : يا محمد تريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن امرك لعجب ، ثم قال بعضهم لبعض : ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا ، وامضوا على دينكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم

تفرقوا(١) ، فأنزل الله أول سورة « ص » .

﴿ ص . والقرآن ذى الذكر . بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص . وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الألهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب . أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب . أم لهم ملك السمٰوات والأرض ومابينهما فليرتقوا فى الأسباب . جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾(٢)

لقد استمعت السيدة خديجة رضى الله عنها إلى ما قاله القوم لأبى طالب ، ومارد به الرسول صلى الله عليه وسلم على القوم وما قالوه ، واتفق رأيهم عليه ، ثم استمعت وقرأت ما نزل فيهم من قرآن كريم ، واستسلمت بعد ذلك لفكر عميق ، ومر بخاطرها ما قاساه محمد من الفئة الظالمة ، وكافح وصابر ، حتى وصل إلى ما وصل إليه فطالما تمنت أن يرجع هؤلاء القوم عن صلفهم وكبريائهم ، ويفكروا بعقول سليمة ، وينطقوا بآراء متزنة ، وأن يعترفوا بما جاء به محمد ، ويؤمنوا به لتكون لهم السعادة فى الدنيا والآخرة .

ثم تساءل رضى الله عنها : ولماذا لا يكون ما ينطق به محمد من عند الله ؟ لقد تزوجته وعشت معه أكثر من خمس وعشرين سنة ، وما سمعته نطق بمثل هذا القول ، ولم يقل مثل هذا الكلام ، ولو كان من عنده لسمعته من يوم أن عرفته ولكننى لم أسمعه إلا بعد حياة طويلة ، وتجارب عنيفة مستمرة ، وهو يجاهد ويكافح ويتقوى على رؤية الملك وهو بين الخوف والاضطراب ، وبين البعد والقرب ، حتى وصل إلى ما وصل إليه ، كل دلك بتوفيق الله وهدايته .

فله الله وهو الذى أرسله وهو الذى يحرسه بعنايته وسينصره حتما بإذنه ، ولن ينال أحد منه .

---

(١) سبيل الهدى والرشاد ح ٢ ص ٥٦٣ .

(٢) سورة ص ١ — ١١ .

وكأنها غفت إغفاءة ، واستراحت بعد أن تحملت آلام المرض ، وما تعانيه من ضعف ثم مضت تتذكر حقيقة مرت على خاطرها .

إن محمدا مع ربه ، وربه أقوى منى ، ومن كل شيء ومن كان معه الله ، فلن يضيعه أبدا ، وما قدمته من عون لمحمد ، ومساعدة له لكى يتحمل أعباء دعوته ما هو إلا سبب من الأسباب ، وطريق يتوصل به إلى ثواب الله ، الذى جعل جزاء الثواب بلا حدود ، وفضله بلا نهاية ، ويد الله فوق أيدينا ، وقوته فوق قوتنا ، والله كفيل بمحمد ودعوته

بعد مدة سألت عن أحوال أبى طالب فقيل لها : لقد اجتمع عنده سادة قريش — مرة ثانية — ووجهاؤها ، وهو كما كان دائما فى مكان الرياسة منهم ، وأراد أن يوصيهم ، فكان مما قاله لهم .

« يا معشر قريش أنتم صفوة الله فى خلقه وقلب العرب ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب ، وعلى حربكم إلب .

وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية ، فإن فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش وثباتا للوطأة ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها ، فإن فى صلة الرحم منسأة فى الأجل ، وزيادة فى العدد .

اتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى واعطوا السائل ؛ فإن فيها شرف الحياة والممات ، عليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة فإن فيهما محبة فى الخاص ، ومكرمة فى العام .

وإنى أوصيكم بمحمد خيرا ، فإنه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وأيم الله كأنى انظر إلى صعاليك العرب وأهل البر فى الأطراف ، والمستضعفين من الناس ، قد أحابوا دعوته وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ، ودورها خرابا ، وضعافها أربابا ، وأعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده .

قد محضته العرب ودادها ، وأصفت له فؤادها ، وأعطته قيادتها دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم ، كونوا له ولاة ولحربه حماة ، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكفيت عنه الهزاهر ، ولدفعت عنه الدواهى »[١] .

مهما قيل فى هذه الخطبة ، ومهما أحاط بها من آراء فما أراها إلا تعبيرا عما يكنه صدر أبى طالب من حرص على مكانته فى قومه ، ومن حرصه على إظهار مكانة قومه عند العرب ، وتعظيمه للبيت الحرام ، وحث الناس على تعظيم البيت ، والدعوة إلى صالح الأعمال من صلة الرحم وترك الظلم ونجدة المستغيث وإعطاء السائل وأداء الأمانة .

وإذا ما تحدثنا عما قال فى ابن أخيه فما نراه إلا قد فعل أكثر مما قال ، فدافع عنه وحث القوم على البعد عن الإساءة إليه ولكن هل يغنيه تقربه إلى هؤلاء أو دفاعه عن محمد وهو على دين آبائه من الله شيئا كلا ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[٢]

مما لا شك فيه أن السيدة خديجة رضى الله عنها قد وعت كل هذا وقد مر بخاطرها منزلة من لم يؤمن بالله ويقدم عمل الخير للناس ، لا يغنى ذلك من الله شيئا ، والإنسان إذا لم يكن بينه وبين الله صلة وهى الشهادة بأنه واحد أحد فرد صمد ، لا يمكن أن يدخل فى عداد المؤمنين ، إن الله هو كل شىء فى حياة المؤمن ، وإذا تخلى الله عنه فلن ينفعه شىء ولا يتخلى الله إلا عن المشركين .

ومهما كانت منزلة أبى طالب من أهل قريش ، ومهما قدم لمحمد ابن أخيه فلن يغنى عنكم من الله شيئا ، وإذا مات فإنما يموت على غير الملة يقول صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم .... لا أغنى عنكم من الله شيئا ... يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله

---

(١) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٦٤ ــ ٥٦٥ .

(٢) سورة النساء ١١٦ .

لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا »

إذا فصلة الإيمان لابد أن توثق بالله سبحانه وتعالى ، وصلة الحب والبغض إنما تكون له سبحانه وتعالى ، وكل شيء يفعل بعيدا عن الله فلا فائدة فيه

لقد مر على خاطرها رضى الله عنها أول معرفتها بمحمد حينما آثرته فإنها آثرته لله وللصفات التى يحبها الله ، فالأمانة من الله والبعد عن المعاصى لله والعبادة إنما تكون لله وحده .

والآن وقد قاربت حياتها أن تنتهى فليس لها إلا أن تذكر الله دائما وأن تفرغ قلبها من كل شيء فى هذه الحياة لتتجه بعقلها وبقلبها وبروحها وجسمها إلى الله ، إنها قادمة إليه ، وهى ترجو منه العفو والمغفرة والرحمة والرضا ، وأن يهون عليها الطريق إليه ، إنها تشعر بأن الله معها ، وأنها ستلقاه وكلها أمل فى لقائه فى منزل صدق .

لقد غفت إغفاءة ثم استيقظت فراحت تسأل عن أبى طالب وهل أسلم أو ما يزال على عهده وولائه لدين الآباء والأجداد ثم انتابها حزن على ما وصل إليه ، إذ أخبرت أنه لا يزال على دين قومه .

لقد قالوا لها : جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد عنده أبا جهل ، وعبد الله بن المغيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم قل « لا إله إلا الله » كلمة أشهد لك بها عند الله . فقال أبو جهل ، وعبد الله ابن أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟

فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ، ويعودان لتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم .

هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله[1]

أخذ الحزن الشديد برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يدر ما يقوله ، والروح تستعد لتخرج من جسد أبى طالب ، وهو ما يزال على موقفه ، ولم

---

(١) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٦٥ .

تظهر منه بادرة تدل على أنه استجاب لابن أخيه لقد مات أبو طالب !!

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قال : « أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك »[1]

فأنزل الله بعد ذلك : ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم** ﴾[2]

ونزل فى أبى طالب قرآن يتلى ، وهو قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إنك لا تهدى منَ أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾[3]

لقد حزنت السيدة خديجة حزنا شديدا من أجل أبى طالب ، وميتته التى مات عليها ، وكم كانت ترجو لو آمن بما جاء به ابن أخيه ، رسول رب العالمين ، ولكن الأمر انتهى .

لقد حمدت الله كثيرا إذ وفقها للإيمان ، ووفقها أن قامت بدورها فى خدمة دعوة الله سبحانه وتعالى محتسبة ما قامت به لله ، بل إن خدمتها لزوجها الأمين ورسوله الذى خصه بالرسالة إنما كان لله ، وإن حب الله قد نقش فى قلبها وسيظل مختلطا بروحها بعد أن يفنى هذا الجسد البالى .

إنها تغمض عينيها فتفرح بلقاء الله وبحياتها الثانية ، وما أعده الله للمتقين الذين ترجو أن تكون منهم ، وإن لها لأملا كبيرا فى جانب الله جل وعلا .

إنها لتنتظر أن يلحق بها محمد ، ومما لا شك فيه أنه سيموت وسيتقابلان ، ومما لا شك فيه أن الذى سهل لهما اللقاء فى الدنيا سيحقق لهما اللقاء فى الآخرة .

ثم تفتح عينيها فتجد الزوج الوفى يحوطها بعطفه وحنانه ، ولا يملك لها إلا الدعاء الذى يرجو من الله قبوله ، أما الصغيرة فاطمة فإن الدموع تنهمر من عينيها وهى تنظر إليها من بعيد ، فتقبل عليها ، ثم تولى بعيدا تمسح الدموع من

---

(١) المرجع السابق .

(٢) سورة التوبة ١١٣ .

(٣) سورة القصص ٥٦ .

عينيها ، إنها تنظر إلى الذين يلتفون حول الأم الرءوم والدموع تتساقط من أعينهم ، وهم يبكون ولا تملك إلا أن تبكى متلهم .

لقد حضر الخاصة من الأهل والأقارب يهونون عليها لقاء الله ، واقترب منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى تودع الحياة الدنيا فقال : « يا لكره ما أرى منك يا خديجة ، وقد يجعل الله لى فى الكره خيرا كثيرا »[1]

سنلتقى عند مليك مقتدر ، سنلتقى فى رحاب الله ، الذى عتسنا له ، ونخلد فى الدار الآخرة ، وننال جزاء ما قدمنا فى هذه الحياة الفانية

ثم أسلمت الروح وهى بين يدى رسول الله

سرى الخبر فى أرجاء مكة يحمل نبأ وفاة أعظم امرأة عرفتها تلك الأرض الطاهرة ، ووقع الخبر على أهل مكة كالصاعقة .

لقد ماتت خديجة بنت خويلد ، وتقبل الناس هذا الخبر بالحزن الأليم ، والذكرى الحسنة فهى نمط لا يتكرر .

لقد مرت على الحياة كالنسيم العليل لم تسىء إلى إنسان ولم تحرج من فيها كلمة تخدش السمع ، ولم تتدخل فيما لا يعنيها ، ولم تخرج عن طورها برغم ما كان يلاقيه أحب الناس إليها فى دعوته إلى الله ، وكانت تكتفى بشد أزره ، وتقويته على أداء رسالته ، وتصبره على ما يعانيه من القوم .

لم يوجد فى مكة من يقول إن عليها إساءة ، وإنما يقولون إن لها كل خلق جميل ، وطبع سليم ، وعقل راجح ، ونفس عطوف ، وقلب كبير ولن يكرر الزمن مثل خديجة .

موقف مهيب تجمع له كل من فى مكة وزوارها ، والقبائل المحيطة بمكة ، فالكل يعرف ما قامت به فى حياتها . لقد اتجهوا جميعا إلى بيت خديجة رجالا ونساء ليودعوها إلى منزلها الأخير .

التف المسلمون حول رسولهم صلى الله عليه وسلم ، وقلوبهم تنفطر من

---

(١) إتحاف الورى بأخبار أم القرى ح ١ ص ٣٠٤ .

أجل نبيهم ، فهم يعرفون مكانتها عنده ، وحبه لها ، وتقديره العظيم لما قامت به ، حتى إذا خرجت من بيتها أسرع المسلمون إلى النعش يتبادلون حمله ، ليوصلوها إلى مقرها الأخير فى الحجون .

نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرتها ، ولم يكن يومئذ سنت الصلاة على الجنازة ، ووسدها صلى الله عليه وسلم بنفسه ، ودعا لها كثيرا ، وهو بيِّن الحزن على أعظم امرأة عرفها التاريخ .

كان ذلك فى اليوم العاشر من رمضان فى العام العاشر من بدء الدعوة إلى الله ، وقد مضى على موت أبى طالب ثلاثة أيام ، رحمها الله وجعل مقامها مع النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

* * *

منزلة السيدة خديجة رضي الله عنها

قانون الثواب والعقاب فى شريعتنا الغراء والحنيفية السمحة يقوم على ما يقوله الإنسان ، وما يعمله ، فيجازيه الله سبحانه وتعالى على قدر عمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿ لا تظلمون ولا تظلمون ﴾(١)

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾(٢)

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾(٣)

وكلما زاد الإنسان فى عمل الخير ، وأخلص لله زاد الله فى الثواب والأجر وأعلى المكانة ورفع المنزلة .

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾(٤)

﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا ﴾(٥)

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا . قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا . قل إنما أنا بشر مثلكم

---

(١) سورة البقرة ٢٧٩ .

(٢) سورة الزلزلة ٧ ــ ٨ .

(٣) سورة النحل ١١١ .

(٤) سورة النحل ١٢٨ .

(٥) سورة مريم ٧٦ .

يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[1] .

تلك هى سنة الله ﴿ **ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾[2]

فماذا قالت السيدة خديجة رضى الله عنها ؟ وماذا فعلت ؟ وماذا قدمت من عمل ؟ لقد قدمت رضى الله عنها فى حياتها كل خير وفضل ، جبلت على حبها لله ، وفعلها الخير من أجله ، وقدمت المساعدة والعون لكل من عرفت ، وعلمت حاجته وضيقه ، سواء فى الجاهلية أو فى الإسلام .

لم يتسرب الشر إليها ، ولم تفكر فيه ، وإنما عاشت للخير ومن أجل الخير ، كانت ملاكا فى ثوب إنسان ، عالية الهامة شامخة فى غير كبر أو صلف ، محل احترام من الجميع .

فما إن عرفت محمدا ، وتوسمت فيه أنه الطريق إلى الله ، حتى عضت عليه بالنواجذ ، وتفانت فى خدمته ، وقدمت كل ما يحتاج إليه ، ولم تدع وجها من وجوه العناية به ، والإخلاص له ، إلا قامت به على أكمل وجه ؛ لأنه عبد الله ، ولأن الله سيرعاه فكانت تشعر بما لا يخالجها شك ، أن محمدا هذا ليس إنسانا عاديا ، وإنما خلق لمهمة عظيمة فما جبل عليه ، وما خلق له لابد أن يكون لأمر كبير .

كانت كلما جلست إليه ، وتحدثت معه ، شعرت بروحها تنساب إلى العالم الصافى المملوء بالروحانية التى تطير بأجنحتها معه ، فتعيش فى سعادة لا تعادلها سعادة .

لقد فتح أمامها أبوابا من النفحات الإلهية التى ارتقت معها إلى سماء المعرفة التى تشرق بالنور والسعادة .

« شاطرته الحياة وهو فى ريعان الشبيبة ، فكفته بمالها الكد المضنى فسهلت له التجرد للتفكير والتأمل وهما بابا الاهتداء إلى الحق ، وطريقا التهيؤ

---

(١) سورة الكهف ١٠٧ ـــ ١١٠ .

(٢) سورة الأحزاب ٦٢ .

للنبوة التى كتبها الله له ، وسوغت له الانقطاع عن العمل الدنيوى الأيام والليالى التى كان يقضيها فى غار حراء ، ولم تقف عقبة فى سبيله لقطع المرحلة من حياته الاعتزالية »(١)

حتى إذا أخبرها بالنبأ العظيم لم تقف صامتة ، ولم يذهب بها التفكير مذاهبه ، ولم تفكر لحظة تسترسل فيما قاله الرسول الأعظم ، ولم ترجع قوله إلى ما كان مشهورا فى زمانها من الحديث عن الجن والشياطين أو إلى مرض نفسى ، أو إلى ضعف وتخاذل ، وإنما كانت قوية فى إجابتها وفى تعبيرها وفى استنتاجها مما يدل على أنها قوية النفس والجنان ، متفتحة العقل ، واسعة التفكير ، سليمة المنطق ، فاهمة لقانون الإثابة والعقاب الإلهى ، واعية لكل ما سمعته من ابن عمها ، مطبقة ما كانت تفكر فيه ، وشهدته على الرسول الأمين من صفات وأعمال .

« كلا .... والله لن يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث وتقرى الضيف وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر »

فمن أين لها هذا التعبير الرائع ؟! وكيف استخدمته لتعبر به فى هذا الموقف الصعب ؟! وكيف اتجه بها التفكير إلى الواقع الصحيح ؟!

إن هذا يعنى أنها كانت تعيش فى واقع الأحداث وتعرف تسلسل الحوادث وتدرك النتائج ، فتستريح نفسها ويطمئن قلبها ، وتلتزم بالوقوف مع صاحب الدعوة لا تتخلى عنه لحظة وإنها لتعرف موضعها وكأنما رسمته وخططت له من قبل منذ زمن طويل ، فلا تتقدم عنه خطوة ، ولا تحاول أن تتدخل فيما ليس لها به شأن ، ولا علم عندها به ، أو تدعى علما تظهر منه هوى أو إشباع رغبة داخلية ، وإنما عاشت تنتظر إشارة من رسول الله لتنفيذها ، وإذا استشيرت فى أمر كانت إجابتها إجابة الحكيم البصير .

لها الله . لقد كانت ذات مال ، ولدوات المال إدلال ، وملال من اضطراب الأحوال وخديجة كانت تعلم أن مضى روجها فيما هو فيه ، مع عمله فى تجارتها يوجب لها الكساد ، فلم يُرْو أنها فاتحته مرة فى الإقلاع عما هو

(١) مجلة الأزهر ١٣٥٩ ص ٦٤٨ السيرة المحمدية محمد فريد وجدى .

بسببيله ، محافظة على مكانتها المالية ، وهذا أندر ما يكون فى أصحاب الهيل والهيلمان(١) .

كانت أول من آمن به ، وأول من صلت معه ، وأول من عاونته ، وساعدته على تخطى الأزمات حتى أصبح له رصيد قوى من الرجال وهذا كله قليل بجانب عون الله ورعايته وحراسته .

« فكان لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه ، وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه بها ، فكانت تثبته وتصدقه وتخفف عنه ، وتهون عليه ما يلقى من قومه »(٢)

ثم تبعت النبى صلى الله عليه وسلم إلى الشعب تاركة ثروتها ، وصبرت صبر الأكرمين ثم فارقت الدنيا إلى أكرم الأكرمين سبحانه وتعالى .

لقد حزن النبى صلى الله عليه وسلم حزنا عظيما ، ولم ينسها ، فكان دائم الثناء عليها ، وكان يستغفر لها ، ويدعو لها برفع الدرجات عند رب العالمين ، ولقد تركت فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم مكانة لم تملأها امرأة بعدها فلم تبلغ زوجة من زوجاته منزلتها .

كان يحن لكل ما يعود به إلى ذكرى السيدة خديجة رضى الله عنها ، ويتودد إلى كل من له صلة بها .

أقبلت هالة أخت السيدة خديجة لزيارة المدينة ، وسمع الرسول صلى الله عليه وسلم صوتها فى فناء بيته ، وكان يشبه صوت السيدة خديجة فهش لها قائلا : « اللهم هالة أخت خديجة »

روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن عليها الثناء ، فذكرها ذات يوم من الأيام ، فأدركتنى الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزا قد أخلف الله لك خيرا منها ... قالت : فغضب صلى الله عليه وسلم

---

(١) المرجع السابق

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص

حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : « لا والله ما أخلف الله لى خيرا منها . لقد آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله عز وجل أولادها إذ حرمنى النساء »

قالت : فقلت بينى وبين نفسى : لا أذكرها بسوء أبدا[1] .

وروى عنها أنها قالت : ما غرت على أحد من نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكن كان رسول الله يكثر من ذكرها ، وربما ذبح الشاة يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول : « إنها كانت ... وكان لى منها ولد »[2]

وزارت امرأة عجوز النبى صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة رضى الله عنها فهش لها وأكرمها ، وبسط لها رداءه فأجلسها عليه . فلما انصرفت سألته عائشة عنها لتعلم سبب إكرامه لها . فأخبرها صلى الله عليه وسلم أنها كانت تزور خديجة رضى الله عنها .

ومن أمثلة الوفاء لذكرى أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها أن ماشطتها وكانت تدعى « أم زفر » وفدت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة فأكرم وفادتها ثم قال :

« هذه كانت تغشانا فى عهد « خديجة » وإن حسن العهد من الإيمان

وتمر الأيام بالمدينة ، وذكريات السيدة خديجة رضى الله عنها لا تفارق بال النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان كلما تطرق لذكريات مكة ، وحياته فيها ، وكفاحه الذى كافحه ، وموقف المشركين منه واستمرارهم على إيذائه تذكر شريكة حياته ، ووقوفها بجواره ، ورعايتها له ، وتشجيعها إياه

ظل هكذا حتى عاد إلى مكة ، عاد عودة المنتصر ، فقد خرج منها مختفيا عن أعين المشركين ومعه أول المسلمين أبو بكر الصديق تحت حراسة الله

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى مسنده .

(٢) أخرجاه الصحيحين البخارى ومسلم فى فضائل خديجة .

سبحانه وتعالى وفى ظلام الليل البهيم ، والآن يعود إلى مكة بلده الحبيب ومعه عشرة آلاف مقاتل ، وصوت الحق يدوى فى أرحاء البلد الأمين ، والتكبير يرتفع إلى عنان السماء فقد تخاذلت الفئة القليلة المشـركة ، ثم تتابع جمعهم إلى الإيمان ، الواحد تلو الآخر يطلبون السماح ، ويرجون العفو من أخ كريم .

وقال لهم الرسول الرحيم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء»

وزاد الحماس ، وارتفع صوت الجموع الكثيرة المتراصة فى أنحاء مكة : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده

ترى هل سمع الموتى هذا التكبير والتهليل والثناء على من بيده النصر والتأييد ؟ وهل سمعته أم ياسر وأبو ياسر ومن معهما من الأموات الذين جاهدوا فى سبيل الله فى مكة من قبل ثم هل سمعته السيدة خديجة رضى الله عنها ؟

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ليخبرنا أن الموتى يسمعون وقع الخطا وأنهم يردون السلام وأن منهم من يعذب ومنهم من ينعم .

إذا كان كذلك فلا نشك فى أنها فرحت فرحا شديدا فى عالمها الآخر ، وقد زادت من شكرها لله والثناء عليه والحمد له على ما ادخره لعباده المخلصين .

لقد ولى القائد الأعظم الزبير بن العوام ابن عمته صلى الله عليه وسلم وابن أخى السيدة خديجة قيادة خيل المهاجرين والأنصار يوم فتح مكة العظيم وأعطاه رايته وأمره أن يغرزها بأعلى مكة بالحجون ، وقال له : « لا تبرح حيث أمرتك أن تغرز رايتى حتى آتيك » فلما وصلت خيل الزبير إلى الحجون قال له العباس بن عبد المطلب : يا أبا عبد الله ، ها هنا أمرك رسول الله أن تركز الراية »

وهناك بالحجون حيث ترقد أم المؤمنين خديجة فى قبرها ، ارتفعت راية القائد العام صلى الله عليه وسلم ، وضربت للرسول القائد قبته حيث اتخذ مكانا كى يدير معركة الفتح الأعظم ، ومن هناك تلا رسول الله صلى الله عليه

وسلم قوله تعالى : ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾(١)

لقد بشر جبريل عليه السلام أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله عنها وهى فى دنياها مرتين : الأولى : حينما جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحمل طعاما أو شرابا فقال له جبريل : هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى . وهذه بشرى تحية وسلام من رب العالمين ، قابلتها السيدة رضى الله عنها بقولها : « الله هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام »

وهذا من وفور فقهها رضى الله عنها حيث جعلت مكان رد السلام على الله الثناء عليه ، ثم غايرت بين ما يليق به وما يليق بغيره

وقالوا أيضا : « وهو رد على البديهة يدل على ما حباها الله به من ذكاء وفطنة ، وما وهبها من لباقة ألهمتها أن تعظم الله فى ردها بما هو أهله ، وأن تسأله السلام والأمان ، وأن تشكر جبريل لتبليغها ما أفاء الله عليها من نعمة وفضل »

الثانية : حينما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبشرها ببيت فى الجنة من لؤلؤ يسوده الهدوء ولا يجد من يسكنه إلا راحة البال وهناءة العيش وسعادة دائمة .

فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب » و ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾(١) صدق الله العظيم

* * *

---

(١) الإسراء ٨١

(١) سورة الرحمن ٦٠ .

« يا أهل مكة أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب
وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ؟
والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة
الظالمة »

زهير بن أمية

***

« أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا
صخب فيه ولا نصب »

من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

المصادر والمراجع

١ ـــ السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وآخرون
مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٣٧٥ هـ ـــ ١٩٥٥ القاهرة

٢ ـــ السيرة الحلبية للحلبى
المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٣٨٢ هـ ـــ ١٩٦٢ م

٣ ـــ السيرة النبوية لدحلان (هامش السيرة الحلبية)

٤ ـــ اتحاف الورى بأخبار أم القرى لابن فهد تحقيق فهيم شلتوت
دار الجيل للطباعة القاهرة من مطبوعات جامعة أم القرى مكة المكرمة

٥ ـــ مغازى رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير تحقيق د . محمد مصطفى الأعمطى مكتب التربية العربى لدول الخليج الرياض ١٤٠١هـ ـــ ١٩٨١

٦ ـــ أنساب الأشراف للبلاذرى تحقيق محمد حميد الله دار المعارف القاهرة

٧ ـــ تاريخ الطبرى للطبرى تحقيق محمد أبو الفضل
دار المعارف القاهرة ١٩٦١

٨ ـــ آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى دار صادر بيروت

٩ ـــ شمائل الرسول لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد
عيسى البابى الحلبى القاهرة ١٩٦٧

١٠ ـــ الكامل فى التاريخ لابن الجوزى تحقيق عبد الوهاب النجاح
إدارة الطباعة المنيرية ـــ القاهرة ١٣٤٩ هـ

١١ ـــ نهاية الأرب للنويرى طبعة دار الكتب القاهرة

١٢ ـــ رحلة ابن بطوطة دار صادر بيروت ١٩٦٤

١٣ ـــ منتخب من كتاب أزواج النبى ﷺ لابن زبالة تحقيق د . أكرم ضياء العمرى مطبعة الجامعة الإسلامية المدينة المنورة ١٤٠١هـ ـــ ١٩٨١ م

١٤ ــ سبيل الهدى والرشاد للصالحى الشامى تحقيق د . مصطفى عبد الواحد
القاهرة ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م
١٥ ــ سيرة ابن اسحاق لابن اسحاق تحقيق محمد حميد الله
معهد الدراسات والأبحاث الرباط ١٣٩٦ هـ ــ ١٩٧٦ م
١٦ ــ جوامع السيرة لابن حزم تحقيق احسان عباس وآخرين.
دار المعارف القاهرة
١٧ ــ المواهب اللدنية للخطيب القسطلانى دار الكتب العلمية
١٨ ــ تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس للدياريكرى
مؤسسة شعبان بيروت
١٩ ــ السيرة النبوية لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد
دار المعرفة بيروت ١٣٩٦ هـ ــ ١٩٧٦ م
٢٠ ــ حدائق الأنوار للشيبانى الشافعى تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصارى
على نفقة الشيخ خليفة آل ثانى أمير قطر
٢١ ــ المغازى النبوية للإمام ابن شهاب الزهرى تحقيق د . سهيل زكار دار الفكر بيروت ١٤٠٠ هـ
٢٢ ــ ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى محب الدين الطبرى
دار المعرفة بيروت
٢٣ ــ السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين محب الدين الطبرى
مكتبة التراث الإسلامى حلب
٢٤ ــ تحفة الأحوزى للحافظ أبى يعلى تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان
المكتبة السلفية بالمدينة المنورة
٢٥ ــ فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى
المكتبة السلفية القاهرة
٢٦ ــ الطبقات الكبرى لابن سعد دار صادر بيروت
٢٧ ــ الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ١٣٢٨ هـ
٢٨ ــ الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى تحقيق مصطفى عبد الواحد
دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٦٦ م

٢٩ ـــ أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين مطابع الشعب القاهرة
٣٠ ـــ ثورة الإسلام محمد لطفى جمعة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨
٣١ ـ سيد قريش معروف الأرناؤوط دار القلم بيروت ١٩٧١ م
٣٢ ـــ قصص العرب محمد أحمد جاد المولى وآخران
عيسى البابى الحلبى القاهرة ١٩٧٢ م
٣٣ ـــ تراجم سيدات بيت النبوة د . بنت الشاطىء
دار الكتاب العربى بيروت
٣٤ ـــ نور اليقين محمد ﷺ الشيخ الخضرى دار الإيمان سورية
٣٥ ـــ زوجات النبى محمد ﷺ واسرار الحكمة فى تعددهن
ابراهيم محمد حسن الجمل مكتبة وهبة القاهرة
٣٦ ـــ خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهره دار الفكر العربى القاهرة ١٩٧٢م
٣٧ ـــ مطلع النور عباس محمود العقاد منشورات المكتبة العصرية بيروت
٣٨ ـــ حياة محمد د . محمد حسين هيكل دار المعارف القاهرة
٣٩ ـــ حياة الرسول المصطفى تأليف العميد عبد الرزاق محمد أسود الدار العربية للموسوعات بيروت
٤٠ ـــ نساء النبى ﷺ د . بنت الشاطىء دار الهلال
٤١ ـــ محمد رسول الله والذين معه . عبد الحميد جودة السحار
مكتبة مصر القاهرة
٤٢ ـــ أبو ذر الغفارى منير الغضبان دار العربية بيروت
٤٣ ـــ عائشة أم المؤمنين زاهية مصطفى قدورة
دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٧٢ م
٤٤ ـــ فاطمة الزهراء العقاد المكتبة المصرية بيروت

* * *

فهرس الكتاب

* * * * * * * * * * * * * * * *

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٤٨٣٥

الترقيم الدولى ٥ - ١٨٧ - ١٤٢ - ٩٧٧

* * * * * * * * * *

دار النصر للطباعة الإسلامية

٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة

ت ٧٧٣٢٢١

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير
الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس ٦٦٢٢٢٢٢
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة - ص.ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦



٦٠٠ قرش